فك المرموز
في
روايات حليم يوسف

ريبر هبون

LM LEHRCENTER FÜR MENSCHENRECHTE

ريبر هبون

فك المرموز في روايات حليم يوسف

LM LEHRCENTER FÜR MENSCHENRECHTE

ريبر هبون

كاتب، شاعر وناقد سوري، ولد في مدينة منبج في العام ١٩٨٧
صدر له أول عمل نثري نقدي بعنوان (أطياف ورؤى) في العام ٢٠١٧
صدر له أول ديوان شعري بعنوان (صرخات الضوء) في العام ٢٠١٩
وعمل شعري مشترك مع الشاعرة بيار كوباني بعنوان (جولات كردستانية) في العام ٢٠١٩
صدر له بالكردية ديوان شعري بعنوان (صرخات الضوء) في العام ٢٠٢٠
عمل على تحرير صحيفة الحب وجود وتوجود معرفة الالكترونية
مؤسس دار نشر ألكترونيتها اسمها دار تجمع المثقفين الأحرار
نشر العديد من البحوث النقدية والمقالات الفكرية والأعمال الأدبية باللغتين الكردية والعربية.

تدب السياسة في إهاب وهيا كالغربة الرقطاء تغير ألوانها في محاكماتنا ولغتنا وتصوراتنا...
أيها الإدراك المكون في داخلنا ماذا قبل إلى الرموز انطق ولو أهتكك البوح...
ما كان أطول عذابك يا حليم تبحث عن وطن في عالم عجز عن تطبيق أدنى مواطن قصار يصحبك على دفن المظلومين يوعود حلية
حليم لا تعرف به سلطات بلادة فليس له من خيول مناقلة ولا بنادق مسلحة...
يرف أمله عبر رموزه سنجدها وتخيل إلى أحياناً أن نزعة التمرد في كلماته تكمن وراء هيامه بالغربة متطلعة في قلبه توحي له بشعور مختلط بالحب والرهبة والتعجب، فليس من الغريب أن نجد جاذبية للوهوب الكبير حليم قد تأملت في فكر أ.ريبر هبون.
إياك أن تنسى أن حرج حليم ليس ذاتياً ورميزه ليس عقوباً بل هي نتاج سياسة مورست عليه سياسة يد من حديد داخل قفاز من نظام شمولي هو نظام خونة وخردة تصنع منها الموت الذي لف بلده ولوعيه...
من حسن حظي أني تلقيت وأنا لا أزال غضيماً بأمراض الأحزاب وعقد السياسيين درساً نقدي من روايات حليم لاعقده في الكتب الأعيادية التي كتبت نزفاً في جون روايات حليم بقية حبر وسهام من الجمرات والآلام والانتصارات حقاً.
الرموز وفكها إغراء لاعتناق الكرامة من هنا من أدب شفوف عطوف...
وإذا كانت أثر الرحلة إلى روما قد منحت غوته مساحة بين الضباب والنور بين الغموض والوضوح بين الممحية والحضارة وهو عند حبال الألب من الشمال إلى الجنوب فإن منفى حليم جعل من قلبه يتجدد في الغرب لغرف وكفى به قدسية حرف كالسيف لا يعرف الزيف.

د. علاء الدين آل رشي

Klimaneutral

9 783948 610104

فكُّ المرموز
في روايات حليم يوسف

من نحن

مؤسسة ألمانية تعليمية تعنى بقضايا حقوق الانسان ونبذ العنف والكراهية وثقافة الإقصاء والدم والعنصرية وتدعو إلى السلم والسلام الأهلى والعالمى وتستثمر الثقافة والإعلام لنشر رسالتها، ونشر الوعى المتحرر من مفردات الاختزال والأحكام النمطية وتدعو إلى الإنفتاح والحوار والتلاقى ومد جسور التعارف بين الشعوب المختلفة، والتعريف بقيم وعادات وثقافة المجتمعات المتعددة بغية بناء ذاكرة ودية تلاقحية.

- ترسيخ مفهوم الحوار والاحترام من أجل تفعيل قوى المجتمع الكامنة لتحقيق هدف السلم بين الشعوب.
- نشر الأبحاث والدراسات التى تهتم بتحديد وتوضيح معانى الحرية والديمقراطية والتعددية والمشاركة والتنظيم المجتمعى المدنى القادر على تحقيق فاعلية ملموسة على الأرض بما ينعكس على الواقع العملى المنشود، ويحقق النهضة المرجوة.
- الاهتمام بخصائص المجتمع وهويته التى تبلور المفهوم الصحيح للمجتمع المدنى الذى يتوافق مع ثقافتنا وقيمنا ولا يكون نسخة مقلدة عن نماذج مجتمعية محددة، تختلف اختلافًا جذريًا عن مجتمعاتنا ويكون فى تعميمها وتقليدها إعاقة لدور المجتمع المدنى الخاص بنا

LM LEHRCENTER FÜR MENSCHENRECHTE

LM Lehrcenter für Menschenrechte
UG(haftungsbe- schränkt)
IBAN:DE09440100460357779466
BIC: PBNKDEFF
friedrichstraße 11
42105 wuppertal
Deutschland

فكُّ المرموز
في روايات حليم يوسف

تأليف
ريبر هبون

مدير مركز الشرق العربي
ترجمة
قسم الترجمة في مركز الشرق العربي
http://www.asharqalarabi.org.uk

2021
Germany

فكُّ المرموز
في روايات حليم يوسف

دراســة نقديــة

ريبر هبـون

الإهــداء:

إلى نفسي
سنواتي واللحظات المارة
كقطار.

توطئة

ليست الرواية إلا إيحاءات لمشاريع معرفية صيغت على نحو وجداني، أرادت أن تقدم الحياة كما يحلو للإبداع أن تصيّرها لتخرجها من إطار الرتيب إلى شكل فني، وإعادة مراجعة لها. وفي عملي الماثل بين أيديكم تناولت روايات الكاتب حليم يوسف، وقلّبت الصفحات بعناية، لألتمس في ثنايا عوالمه أفكاراً ونوازع جديدة تطمح لكسر القوالب والثورة على التقاليد الحكائية المبتذلة، بعيداً عن حيل الشعريَّة التي يلجأ إليها بعض الشعراء اللاجئين لعالم الرواية، وتشبثاً عميقاً بأدوات القص، السرد ومقوماته، لقراءة الواقع الاجتماعي للمجتمع الكردي في الأجزاء الأربعة التي تقاسمتها الأنظمة الغاصبة منذ رسوخ اتفاقية سايكس بيكو. لقد ظل انشغالي بهذه التجربة متركزاً في إشادة الجسور والتقاطعات بين الأدب والفكر، بوصف الرواية دعوة لنهضة اجتماعية ووسيلة للخروج عن كل باهت ونمطي في حياتنا المعيشة.

لقد وليت الاهتمام بالرمز والتأويل، كذلك مناقشة كل ما أوردته الرواية وجسده الكاتب عن إدراك أو عفوية غير مقصودة. وارتأيت في جعل الكتاب ساحة لتقليب القضايا والملفات الشائكة المتصلة بإطار روايات حليم يوسف العام، عقدت الروابط الفكرية مع اللغة الأدبية الصرفة الهادفة لتغيير السلوك الفردي من بوابة الوجدان.

إنها رحلة شيقة في رحاب الرواية النقدية المرموزة، حيث لا يزال فن النقد غامضاً في عالمنا الشرق أوسطي وخاصة في كردستان، بغياب وجود دولة كردية، فإن جهود الأقلام الكردية فردية، تتسم بالإنطواء وبذل الجهود المضاعفة لإخراج الأدب الكردي من حفرة التهميش والإبادة الثقافية.

اعتمد حليم يوسف على الطفولة وأجواء المكان، فهما صقلا حسه الإبداعي، فالبيئة هي الوعاء الإبداعي الحامل في طياته المعاناة والرفد المعرفي، لقد وجدت أن المنهج الرؤيوي والخيال اللذين يحملاهما الكاتب أقرب للرؤية المعرفية خاصة حين يلوّح بالتساؤل، فلا يغيب الحدس الفلسفي عنه وهو في غمرة وصف ما يعتري الإنسان في خضم رواياته، المعرفي الساعي للبحث عن كينونته المستهدفة.

إن الجهد النقدي على ضوء عوالم الكاتب لم يك سهلاً بل أشبه بتقليب الجمر دون ملقط، رحت أقرأ الحدث بأكثر من طريقة، معتمداً على طرق الموضوعات المتصلة برواياته.

امتازت الرحلة بإثارتها ومتعتها في سبر المعرفة المقترنة بالعلوم الإنسانية، والتساؤل المقيم بذهني كامن في عقد القران ما بين الأدب والفلسفة، الأدب والسياسة، الأدب وعلم النفس.

أخذ النقد هنا معنى التمحيص والإثبات والتأويل، وفي دخولي لتلك العوالم الوجدانية، وجدت صندوق أسرار، حكايا الإنسان ما بين الماضي والحاضر، الوطن والغربة، ونقل المعاناة لتبقى كما هي من بلد لآخر، استرسل قلمي بدوره وحلّق ليجمع بين المتناقضات والمتنافرات، ليخلق من الشبه بين الأشياء أزودَ من أربعين.

حليم يوسف يدعو في أدبه إلى التشبث بالحق كقيمة عليا، فالقومية لديه حب لا يحتمل أدنى شكل للضعف والخيانة، نراه يجسدها في المرأة، الأهل، شوارع مدينته، ذاكرتها المشوية بأشلاء الأطفال، حيث لم أنته من أية رواية إلا وأحسست في نهايتها بثقل حاد يؤرق صدري، مانعاً إيَّاي عن محاولة الخروج من باب الحزن الغفير. عشت مع الرواية كأنها امرأة معتقلة غزا الشيب شعرها الطويل، مفعمة بالشباب تحدثني عن العالم المتحول لحفنات من رماد، تذكرني بالوئام والسلم البشري المبتور، والذي لفظه الوهم المارد دفعة واحدة. لوهلة شعرت أن مجرد كتابة مقدمة عن مشروع كتاب نقدي هو مغامرة غير محمودة، وقد تكون شَرَكاً ذاتياً نصبه الكاتب المرهف والناقد

الحسّاس، إذ أن المقدمة اختزال شديد لجهد طويل وعسير، حصيلة مواكبة لصيرورة متسـمة بإنسـانيتها، قوميتها، فلسـفيتها وفنيتها، ولا تكون الرواية مكتملة مالم توقن الإنسـان كغاية والقومية كخصوصـية والفلسـفة كوسـيلة لفهم العالم والفنّ كمسـار تقويمي لكبوات الإنسان وعثراته بغية إصلاحه عبره.

ماذا يمكن القول بعد؟

سـأترك للمتلقيـة والمتلقي أن يسـرحا في فلاة هـذا العمل النقـدي، فهما الحَكَم الفصل لأي منجز معرفي محكوم بالخلود أو الإندثار في طيات الإهمال.

ريبر هبون - دوسلدورف
الأول من آذار العام 2020

البحث عن المفاتيح سوبارتو

مدخل

إنَ كتابـةِ روايةٍ، لا يمكـن أن يكون الهاجس العام للكاتـب الغوص في الحلم وحده، لا سـيما حين تتجه الرواية نحو تجسيد الألم الاجتماعي ورصد المشاعر التي ترافقها، فالتخييـلُ في هـذه الحالة لا يذهب إلى أبعد من نشـدان الحقيقة بلبوسٍ فنيّ، وأمام تجربة الكاتب حليم يوسف، لا بدّ وأن نذهب بعيداً صوب تأكيد الأفكار الحاملة لتكامل وحدة العقل والوجدان بغية تبيان قيم الإنسان المعرفيَّة وتصوراته لحياة أفضل تتحقق فيها أدنى درجات المسـاواة، لإعادة الاعتبار لكرامة الإنسـان الشـرق أوسطي، التي لا تزال تعيش التهميش وغلالة القيد.

الكتابـةُ الواقعيَّة لا تنحاز لمفهوم الذاتية الوجدانية التي تحمل معها شـعريَّةً ما في الألفـاظ، على قـدر ما تؤدي دور المـرأة الحامل للجنين المكتمـل، فالرواية بطريقةٍ ما تمثَّل الوعاء الكبير الذي يحتوي الماء، حيث تمضـي في رحاب شـموليَّة الأخذ بالأدوات للحديث عن قضـايا متعدِّدة، والتركيز على أكثر من زاوية بشكلّ مركَّبٍ ودائريّ لتشيع الروح الفنية التي هي على النقيض من العلم، أو لعلّها معالجةٌ متفرِّدة خاصَّة ومختلفة للحياة البشريَّة، وسبيلٌ من سبل الإلمام بتجارب الفرد إزاء عزوف المجتمع عن النهوض بأفراده.

رواية "سـوبارتو" تجهِّـز أدواتها في منحى الخوض مليَّاً في حيـاة الأفراد القابعين تحـت ظـل المجتمع المقهـور، الذي يعاني هو بدوره أيضـاً مـن السـلطة القمعيّة، ولعلَّ النقد في هذا السـياق يعدّ بمثابة الإلمام الشـامل بحصـيلة التقاليد والعادات المسلكيَّة التـي تتحدَّث الفنون الأدبيَّة برمَّتها عنها، وعلى الأخصّ الرواية، لأنّها تهتمّ بالإنسـان ومعالجته روحيَّاً وفكريَّاً، لذا فإنَّ جَلد الذات بتعبيريَّةٍ صاخبة، دعوةٌ للإحاطة بالنقاء

المتخيَّل والعناية به داخل ذائقة الإنسان الخائف والجائع، وشكل من أشكال الإثارة التي أراد الكاتب عبرها إبراز متعة الخوض في الحديث عن الألم والاحتجاج على القسوة التي تحوِّل عاشق البلد إلى فردٍ مغلوبٍ على أمره، مضطرباً في سلوكه، حانقاً على بيئته.

◆ **الرواية:**

يبدأ العمل بعرضٍ مأساوي، فيذكّرنا بحدث حريق سينما عامودا التي راح ضحيّتها 283 طفلاً، حيث يشير العمل إلى الحادثة وعلى نحوٍ مفصَّل، بلغةٍ مليئة بالكآبة والألم، مفصحاً بدراميَّة -تخترق الداخل- عن الألم في النفس رغم مضيّ السنوات، لذا نجد العملَ ضاجَّاً بمعالم الحدث وتأثيراته على من يتتبَّع الحياة وواقع المجتمعات، وفقَ أسلوبيَّةٍ ناطقة بما يدور في خِلد الشخصيَّات التي تفصح حركاتهم عن أرواحهم المكتظَّةِ بالحريق، حيث تقوم اللغة الوجدانية في هذا السياق بالإبقاء على الإثارة لاستشعار الحدث.

يمعن الكاتب في الحديث عن المعتقدات المتعارف عليها في مجتمعٍ مشبعٍ بنزعته الريفيَّة، والتآلف مع القناعات أيَّاً كانت مصادرها، ليعكس الكاتب ما يفصح عنه المكان والزمان من إيحاءاتٍ، وهنا لا ننشغل بتفسير ما تشير إليه العبارة بقدر الإشتغال على البحث عن طرق أخرى لقراءة "سوبارتو"، فالعمل الفني ينظَر إليه كونه قالباً أشمل وأكثر مرونة لبحث الإنسان من زاوية الوجدان الجمعي، ناهيك عن اللغة الأدبية وأثرها في منح مستويات تعبيريَّة لقراءة الحدث وفق واقعيَّة فنيَّة، إضافة إلى إشاراتٍ مرموزة توضّح رؤية الكاتب، كالهالة المحاطة بالعجوز "فلك"، حيث الدراية بكل واقعةٍ ومعرفتها لكل شيء، حسبما يعرفه أهالي القرية، في إشارةٍ إلى تيقّن المجتمع بقوةٍ خارقة ماوراء طبيعيَّة تفعل فعلها بالآخرين، سوى أنَّ تلك القوة لا تستطيع رفع الجهل عن كاهل الناس.

الرواية ليست وسيلةً توثيقيَّة للأحداث، بقدر ما هي وصفٌ للتجسيد المتعلِّق بأطوار معيشة الإنسان وطفولته: "ننشغل نحن الصغار بتشكيل عصابات صغيرة ضدَّ أخرى لحلّ خلافاتنا حول الانتماء القومي، أو حول السجائر التي كنَّا نتهافت على جمعها. يزداد فرحنا طولاً حسب طول السيجارة، نضرب بعضنا في الشوارع بعنف دمويّ، تسيل الدماءُ من أنوفنا، ترتفع السلاسلُ المعدنيَّة والقبضات الحديديَّة المسنَّنة لتخدش الوجوه والأذرع والبطون، بينما المعلِّمة تمسك بيد فاروق بهدوء، تأخذه إلى البيت بعد أن تتوقَّف حائرةً بيننا، محاولةً إيقاف حروبنا الطاحنة التي بلا جدوى:

- سأعاقبكم غداً في المدرسة".

ها هنا تتوضَّحُ العلاقة القائمة بين الذاكرة والذات في تقابلها مع الوصف والإمعان في أعماقه بهدف الحديث عن البيئة والطفولة الشقيَّة بدقَّة، عبر استخدام اللغة المُشيرة إلى إيقاع الحياة، والمشهد المعبِّر عن عالم عائم على سطح الدهشة والألم، فالمضيُّ في رصد وتصوير مشاهد الطفولة البائسة والحياة التي قوامها الفوضى والإهمال يجسّد دراما الحوار والحركة والشخوص في آنٍ معاً، فليس تجسيد حادثة الاغتصاب بأسلوبٍ فكاهيٍّ متندِّر إلَّا إشارةً إلى سوداويَة ما: "بيدي لمست ذلك العمود المرتجّ، ذعرت من حرارته وتوتّره الخارق، بدأت أحرِّك يدي ببطء، لم يقتنع، أمرني بإسراع حركة يدي وفعلت، وهو ينتفض بغموضٍ أدخل الدوار إلى رأسي، أطلق شيرو صرخةً تضاهي عواء قطيع كامل من الكلاب. صرخته أصابتني بالذعر والهلع، تدفَّق من رأس العمود سائلٌ لطَّخ يدي وينطال شيرو وأرض البركة، تراخى بعدها ممدَّداً على ظهره، رأيت العمود ينخفض شيئاً فشيئاً، ذكّرني بالهوائي الصغير لراديو أبي الذي أتسلَّى بإدخاله في بعضه البعض ببطء".

تتناول الرواية جوانب عدة تميل للانحراف والشبهة، سواء على صعيد القيم والقناعات الوليدة عن الدين والتأويل، أو نتيجة الاكتساب الخاطئ والتربية الغارقة

في الإهمال، أو على صعيد العائلة أو المدرسة، وعن ضياع المنظومة الأسرية والتربوية معاً، مما أفرز عنه ضياع الجيل، وحرمان الطفل من نمط صحيح للتربية والتعليم في آن معاً، كذلك لحالة العنف السائدة في العائلة من خلال تسيد الأب واضطهاد الأم وضياع الطفولة، ناهيك عن أن الفقر والجهل في تلازم واحد تحت سطوة منظومة السلطة القامعة القائمة على الإقصاء العرقي والإبادة الثقافية للمجتمع.

(سوبارتو) تستدعي الجهد والتأمل في مدارات لغتها، كونها تدرج الأورام والعلل في قائمة الاحتكام، وتزيد من شحنات التساؤل، قدر إيغالنا بها، وتنقيبنا لحقيقة ما تشير إليها. فمواكبة اللغة العاطفية للرواية مع الفضاء العام الموضوعي، قدم روح النص واندماجه بالمتلقي، ليخاطب بكليته ما يدور في فلك العقول والقلوب معاً. الشخوص في رواية سوبارتو، يخضعون لعلاج من نوع ما، ويعمدون للفرار من المعاناة عبر نافذة المكاشفة، فبدلاً من البحث عما تقوله الدلالة بمعناها اللغوي، لابد من الإسهاب في الخوض في بوابة سيكولوجيا المجتمع المتعرض لأقصى درجات الاغتراب والبؤس الناجمين عن التخلف السياسي وانعدام الوعي بالماهية الإنسانية، حيث ننظر للرواية بنمط حذر من التعرض لخفاياها، والتباسها بالكثير من زوايا حياتنا، وجوانب تحوم حول السلوك، مواكبته بربطه بالتربية والمنشأ، إلى جانب نزعة ذاتية تجول في ماهية الوجدان الجمعي، إذ تحث تلك النزعة على التشبث بالحق المنتهك، والتشرد الذي عم العائلة والمؤسسة، حيث لاقت الطفولة النصيب الوافر من هذا الضياع واستبداد الواقع المريض، في إشارة إلى أن تعثر قيام الفئة الشابة بدورها في التغيير وبواجبها تجاه المجتمع وصيانته، أدى ذلك لنشوب اغتراب واضح في التعبير وكذلك نظرة سوداوية تجاه المستقبل برمته، وكذلك الميل إلى تحقق معجزة الخلاص لسوبارتو، نتيجة إبداء العجز العلني عن مواجهة تركة الاستبداد وغطرسته: "حلمنا بلقاء هذا الشيخ العجيب لنطلب منه أن يجعلنا نملك أجنحة حتى تطير، بالإضافة إلى طلب صغير وهو أن يعلمنا

نحن أيضًاً كيف تطير الأباريق، وأن نجعل الرجال يبيضون. أن يعضوا الأحذية، لم لا؟ سـنكبر يومًاً، سـنجعل الأحذية والدول تطير معًاً."، فارتبـاط الكاتب بروح الوجودية المتشـبثة بروح المسؤولية الاجتماعية جعل كل شيء متعلق بالوصف والجنون في تجسيد الشـخوص مرتبطاً بقضـية أولية، وهـي الخلاص من الظلم والقيود المتمخضـة عنه، حيث أقحم الكاتب الملهاة في عرض المأسـاة، كونهما مثار تجلي في حياتنا، ولاشـك أن الملهاة والمأسـاة همـا وجها الحياة، على اختلاف بيئات المـرء ونمط قناعات محيطه، وفي الرواية تتجسد الهيئة العامة للحياة بما تفصح عنه اللغة في مقدرتها على التوثيق والرصـد وإحداث تقابلات ورؤى في ميدان التوصيف والجلد الذاتي الكامن في دواخل الشخصـيات الهاربة من شـبح موتها اليومي المتعدد الأوجه، ففي ذلك تتجلى مكامن القـوة الوجدانية في التأثير عبر اللغة، فلا تذهب الرواية مذهب المتعة المجانية، فاللغة تعمـد بأسـاليبها الحيوية الخاصـة إلى إتمام الحوار المهيج ما بـين لغة الكاتب وخيال المتلقي، حيث تسـاعد الكوميديا إلى جانب التراجيديا في فهم سـوبارتو، وما يرادفها من أماكن شـبيهة بهـا في كل مكان من أنحاء الوجود، حيث تغدو الرواية للإنسـان في كل زمان ومكان، ووسيلة تقويم وتغيير لكل الرواسب التي ماتزال تسكن داخل الإنسان نتيجة حـوادث الزمن، فتعمد الرواية إلى تبيان الغاية والوسـيلة المراد تحقيق الهدف من خلالها، وهو إشـعار الإنسـان بعظمة ما يلاقيه من أهوال مضـاعفة إبان مسيرته لتحقيـق عالم أفضـل، حيث تعطي الكوميديا دوراً للاشـعور في أن يـبرز ويتحدث من خلال سمات الملامح والحوار عما يتم الترويج له من قبل الروائي، وما يبثه من إشعار بحقيقـة الواقع التي تنعـدم فيه خواص الرأفـة والنزوع للمثالية، بينمـا تقوم الرواية بتحوير خيال الكاتب وذاتيته، نحو محاولات متعددة، الغرض منها تجسيد الواقع فنياً وتحقيق مطلب التأثير بالآخرين ونقل حصـيلة تجاربهم بطرائق تهب المتعة والفائدة، وكذلـك لتنقـل الأفكار التي تحدث في داخـل المرء وذهنه، الرغبة في عقد السـجالات

الهامة والمثيرة والتي تشكل الغاية القصوى من أي عمل روائي على وجه الخصوص، حيث يسود اللا استقرار في ملامح الشخوص وأماكن تواجدهم، السارد يتحدث عن سحنات الناس، أفكارهم، تعلقهم بالخرافات، وتبعيتهم للمشايخ، مما نجد سطوة العجوز "فلك" النفسية على سليمان وعلى كل أفراد القرية: "لمع نجم العجوز فلك تلك الفترة، ببثها لأخبار إضافية لا تعرفها الإذاعات أيضًا، كانت تنال نصيبها من هدايا الأخبار القادمة من الجهات البعيدة، بدأت تهتم بهندامها، ما أذهل سليمان أنها لا تسمع الراديو ومع ذلك تعرف كل شيء! ولأنه رآها مشرقة الوجه ذلك اليوم، فقد تجرأ وسألها عن كوخها المغلق،

اسمع يا سلو... إياك أن تقترب من الكوخ، لا يوجد فيه غير الأفاعي والعقارب.، حذِّر أصدقاءك الملاعين

".أيضًا من التفكير بالاقتراب من باب الكوخ

نجد نبرة القسوة إلى جانب إدخال الرهبة متجلية في قولها، فالهالة التي تحيط بالكوخ تحاول بث حقيقة التفكير لدى المجتمع، بالإضافة إلى صعوبة التحرر من الفكر الغيبي الملازم لطبيعة الحياة، فتتجلى السادية المفرطة التي تستخدمها العجوز بحنكة على مجتمع مازوشي اعتاد التألم إلى درجة الكبت والحرمان من حقه في الصراخ، فمتلازمة القسوة والكوميديا تمضيان على نسق واحد أحياناً ناقلةً لنا الروح النفسية للشخوص.

لا يقف الكاتب عند التجسيد، وإنما يدس المواقف والأفكار بطرائق إيحائية تتناول نقد الأمراض المتعلقة في علاقة السلطة بالجماهير، وكذلك ليكشف عن التخلف السياسي العام على مستوى التنظيم والوعي الاجتماعي، ولاشك أن أفكار الرواية الواقعية تتجه إلى الفلسفة الاجتماعية وعبر طرائق حديثها وحواراتها المتعددة من خلال تقابلات الشخوص مع المكان والزمان، أي الحقبة التاريخية والتي يشار لها من خلال الرموز والإيحاءات المنثورة في أنحاء العمل ككل، لتعكس التجارب

الإنسـانية الوليدة عن التأمل والمعاناة في أتون الحيـاة التي تغص بالغرابة والتناقض، ولاسـيما أن الرواية لا تغدو حديث المتلقي مالم تكن مشـبعة بالمأساة ومكتظة بتصوير الأحزان والنهايات المؤسفة، وسوبارتو بطبيعتها كتلة درامية تتحدث عن الألم وطرائق مواجهتها ومرور أبطالها بظروف كئيبة تثير الشـفقة، فبحسـب أرسـطو فإن "هيكل العمـل التراجيـدي لا ينبغي أن يكون بسـيطاً بـل معقداً وأن يمثل الحـوادث التي تثير الخوف والشفقة"، وعلى ضوء ذلك يتأسس الفضاء الزمكاني للرواية من بيان حقيقة التفاعل اليقظ ما بين العناصر الوصفية والأبعاد والمرامي الحية من إقامتها والمتلخصة بالأفكار المراد طرحها وتجسيدها، فالحب بين سليمان وبلقيس يمثل التماسك الحميم فيما بينهما عبر رابطة المعاناة، ودفع الطاقة لتقديم الأفضل رغم العوائق والمصاعب، وإبـراز للحب الطبيعي المغلف بعواطف مثالية نقية تكشـف عن الروابط الأزلية ما بين المـرأة والرجل، فبتصـاعد وتيرة الألم تظهـر مناجاة الرجل للمرأة في أشـدها لتمثل جمـال النص، وكذلك متعة الإيغال في مضـامين الجوهريـة والإفادة منها: "كان قلبي مرمياً إلى جوار حائط بيتكم حينها، عندما سقطت على الأرض، سقط هو من صدري راكضـاً إليك، وضـع فمه على أذنك اليسرى هامسـاً بكلمة قلتها لك قبل قليل، يومها اجتمعت حولك قطط الجيران ونساء الحارة وقلبي." حيث نرى هنا تلك الهالة اللغوية الشعرية محاولة أن تلامس الشغف الوجداني لعاطفة المتلقي، لتحاكي فيه إرادة القلب في التحرر من قيود العقل وسطوة المنطق في استعباده لعالم الوجدان الذي يستأنس به المرء لسـلوك المواجهة ضد ضـراوة اليأس وخشونة الحياة، فالحب هو الموضوع الأكمل للرواية المضمخة بالويلات والمتاعب والمواقف المتعددة، وهي أيضاً تعريف لجودة الفكر في حضـوره، ليتماهى مـع تلك العاطفة وليهيـأ لها ركناً رحباً في تلابيـب ذلك الغمار الهائـج في حيويـة الشـباب وتقلباتها، ففيه لابـد من الحديث عن لـون الحياة، طبيعة البيئة، أنماط تفكيرها، عوائدها، وكذلك حجم العثرات التي تواجه الأبناء في مسيرتهم.

◆ متعة الرواية :

الرواية وسـيلة إمتاع فنية تحاكي مستويات العقل والوجدان على نحو متكامل، وفي تباين مسـتوى الوعي ما بين الشخوص كلٌّ حسـب دوره التمثيلي، فإننا نجد اضطراباً نفسياً في بنية تلك الشخصيات وكذلك في ذاكرتها المبنية على تشرب الأحلام والأوهام وكذلك الصـراعات الاجتماعية ناهيك عن الفسـاد السياسي والقمع المنهج الممارس أبداً، حيث يتم إضفاء مسحة الدعابة إلى جانب الألم لإثبات تلازمهما وكذلك للتعريف بطبيعة الحياة، والحوادث التي تعترض الأفراد وتتحكم بمسار رغباتهم وطموحاتهم، وليسـت الغرابة والمبالغة مذهباً فنياً بحتاً، إنما توصيف للحدث وتشعباته، حيث تّقدَّم التراجيديا بوصفها تجسيداً لطابع الصراع، ما بين القيم الطبيعية والتشويه الممارس، حيث يعالج الروائي المجتمع كونه نسيج جامع لكل الصفات المختلفة للبشر، حيث تعالج الرواية القبح والتشويه والاضطراب إلى جانب انتصارها للحلم والأمل والتبشير بعالم أفضل، لذلك تبدو الكوميديا في ذاتها موقفاً ثابتاً إزاء العسف والجور الذي يتم ارتكابه إلى جانـب العته والجنـون، وكذلك التزلـف والتملق، وهكذا فـإن الرواية الاجتماعية تجسـد ألواناً متعددة يحملها الشـخوص عبر تلك الحوارات والسـمات العامة للرواية في كونها تقدم للمتلقي، طبيعة الحال، والألم السـاري في نفوس أفراد يلازمهم العجز المكتسـب، والحاجة للبروز في نسـيج المأسـاة الحاصـلة، حيث ثمة جلد ذاتي حاصـل بلهجة السارد للحدث يقدم البشر في "سوبارتو" على أنهم فلول وحشيةخائنة.

إبراز هذا التناقض هو المقصد من إبداء الفعل الروائي كموقف يحتوي على أفكار ترتدي لبوس الثورة والخروج عن العرف الجامد، وكذلك بغية إشـعال العقل وإشـغاله بمقتضـيات التفكـير بالمجتمع عبر طـرح التغيير كمسـؤولية تاريخية صـميمة ينقلها الأديب أو الروائي ليبقى دوماً على مسافة معينة من المتلقي في كل عصر ومكان.

الروايــة تعالج الإنســان، آلامه، أحلامه، وكذلك العثرات التي تواجهه على صــعيد تجاربه النفســية والوجودية ككل، بل وتذهب لأبعد من ذلك من كونها تحاكي تساؤلاته الفلســفية في إطــار جانبين متآلفين وهمــا خطاب العقل والوجدان معــاً، ولعل ذلك ما يســاعد المتلقي الفطن على اســتنباط رؤى جديــدة وابتداع حلول وآليــات أكثر حداثة وجــدة في التعامــل مع الأشــياء بعين الفنان ونباهــة الفيلســوف،وبمعرض حديثنا عن الكوميديا والغاية من عرضها في تفاصيل العمل الروائي فإننا نلمس ما قاله كرستوفر فــراي: (الكوميديــا مهرب، ليس من الحقيقة، بل مــن اليأس:إنها مهرب يأتي في آخر لحظة تؤدي إلى الإيمان).

لهذا فهروب الكاتب حليم يوسف يمثل تلك المحاولة المشروعة بتخطي الضعف على صعيد عيش الإنسان في أتون المواجهة إزاء الضغوطات والتحديات الجمة التي تقف في طريقه، لذلك كانت الكوميديا في ذاتها تشــبثاً ببســاطة الحياة وجوهرها وترفعاً عن الكآبة والحزن.

كل ما ســبق يحيلنا إلى القول: أن المسعى الحيوي للكتابة يتجلى في تحقيق الأثر في النفس، ربما نقلاً لحصــيلة تجــارب متعددة، وفتح قنوات للتحــاور الأكثر إثارة، ليس بــبروز الذات المنفعلة، بل بإيجاد ذوات متفاعلة تســتطيع أن تهب روح الدلالة، وكذلك الخوض في الأغــوار، إذ أن تجربــة الرواية تعد نافذة رحبة لتقصــي مــا بالداخل من مســاحات للتأويل والمقاربة، وكذلك للتعريف بجودة تجسيد التراجيديا، لدرجة التغني بــالألم وتحريض الروح على التفاعل والانغماس في اللغة وانســيابيتها في نقل مشــقات وعقبات المجتمع، والتي تواجه أفراده على الدوام، فشخصية "أبو عمشة" توحي برغبة جمة ومركزة في كســر طوق الصمت الســميك، والذي ما لبث أن يتداعى وبقوة، حيث توحي الشخصــية الإشــكالية هذه عــن تعرية للفســاد الأخلاقي الــذي يعتمل المجتمع المتعنــت بفوضــاه الناجمة عن التقاليــد والأعراف التي لا تهدد القيــم الجوهرية التي

تؤسس لعلاقات أفضل بين الرجل والمرأة: "مارأيكم أن أعدِّد لكم عشرات الأسماء من نساء سوبارتو هذه ممن يقمن بنفس العمل، ومئات الرجال الذين لا يعرفون من المدن التي يسافرون إليها بحكم أعمالهم سوى أفخاذ المومسات، آخرون يعملون ليل نهار مقابل مبلغ يضعونه بين نهدي عاهرة، حالات الزواج التي تحدث هنا عندكم، حسناً إذا سألك أحدهم عن معنى العهر، كيف تعرفه؟ اعتبر نفسك طالباً في مدرسة، ألا تجيب بأن العهر هو فتح الفخذين مقابل الحصول على المال؟".

فطبيعة التغييرات الاجتماعية التي كانت لمنظومة الدولة القمعية اليد الطولى في بنائها، حالت دون مواجهة الانحلال الأخلاقي، الذي جعل المجتمعات تعيش في دوامة الفقر والجهل، حيث أن طمس الثقافات لصالح بروز ثقافة واحدة وفئة حاكمة فارضة لهيمنتها، جعل مجتمع القاع يبرز أكثر فأكثر، حيث تذهب معالم التماسك والحضارة، لصالح نشوب الفساد بأشكاله في كل مكان، حيث تبقى القيم هنا أسيرة العبث بها كما أشار الكاتب إليها عبر سوبارتو، ويبقى صراع الإنسان الفعلي قائماً وفي أوج احتقانه للحفاظ على القيم الأخلاقية الطبيعية المرتبطة بالتكوين الذاتي للإنسان ومدى قدرته على المواجهة الفعلية ضد قوى الانحلال والتبعية والمرض، وبالتالي فإن ما أشار إليه الروائي بإسلوب استطلاعي عام هو من مؤشرات قيام انتفاضة شاملة تحدد طبيعة الواقع التالي فيما بعد، بعد انهيارات أخلاقية وتصدعات جمة خيبت الآمال وجعلت الشباب في حالة هلع ولا استقرار، ولاشك أن التركيز على الفساد الاجتماعي يرجع في الآن ذاته الاستبداد السياسي الذي جعل المجتمعات تعيش في تخبط وفشل تربوي فظيع، ما يجعلها عاجزة على استيعاب مضامين الحداثة الكلية التي تشمل الفكر والسياسة والمجتمع، حيث نجد أن سوبارتو أرادت الحديث عما يعتريها من فساد يحوي جميع الصعد، وما هذه البقعة التي يتحدث عنها الكاتب سوى أنموذج مثالي عن الأزمات التي يعانيها الشرق الأوسط، كما أن الحديث عن التحلل وغياب

الحياة الطبيعية يشـير إلى تفاقم الفسـاد الإداري وعجز الجهات المسؤولة على تفادي ذلك، ومع الوقت يفشل الجهاز المؤسساتي من أداء وظيفته الموكلة على عاتقه ويصاب بالشـلل والعجز التـام الذي يقودها إلى التشـظي والفنـاء كنتيجة حتميـة، فالانهيار يقودنـا إلى التنـازع والتقاتل، وكذلك لتفكك البنى الرئيسـية للمجتمع، وتصـبح تلك الأقاويـل والشـعارات مجرد كلام في الهـواء إزاء الخوف من الحاكـم وأتباعه، الذين همهم الأول ترسيخ سلطتهم عبر قمعهم اللا محدود، ولاسيما أن ظاهرة التطرف هو نتيجة سـلبية كارثية عن هذا الاسـتبداد والفساد الذي أشـار إليهما الروائي في سبره لمعضـلات سوبارتو وحوادثها، وليست إلا مؤشراً على تلك الهاوية واتساعها مع الوقت، فأمام هذا الكم من الانشـقاقات الحزبية التي أشار إليها، ومن هذه المحسوبيات التي توغلت داخل الحزب المنادي بالعدالة الاجتماعية والثورة، يرقد الحب ميتاً ومضـرجاً بدموع سـليمان، الذي لم يعد يرى في الحياة سـوى تلك الجماهـير التي تبدو مثل كتل سـوداء من الدخان، وسط أحزاب الغبار، والعالم المتداعي بخيباته الجمة حيث نتأمل هنا كيفية عرض المأساة بأسلوب يدعو للكآبة والحنق.

لا شـكّ وأن غايـة الرواية الاجتماعيـة المحاكة بروح وجدانية ذاتيـة، هي أن تنقل الصـور والمشـاعر والأحداث إلى المتلقي، ليعمد من خلالها إلى إعداد الذهن، وتهيئته للتسـاؤل والاستكشـاف والقدرة على الفهم الجيد والجديد لظواهر الحدث ومراميه، ولعل القارئ هنا أمام اختبار ذهني داخلي، ليستخدم كل حواسه وروحه، لأجل البحث عن مقاصد سوبارتو وفهمها على نحو جاد ومرتب، حيث يقف المرتدون عباءة التحزب والمشـغولون بتلفيـق المفاهيم التبريرية لصـالح الحزب الشـمولي، الـذي يلتف حوله عادة طغمة من المريدين الحمقى ممن شـربوا من آبار الوهم والانقياد والاصـطفاف التبعي إلى جانب المصـالح والمناصـب، أمام الحب ورغبة التغيير لدى شخصـية مثل (سـليمان)، حيـث ينقـل لنـا الروائي النقـد اللاذع الصـريح في التصـدي للتطرف

العقائدي البغيض الذي يعد جهة قمع أكثر فساداً، وتعد بمثابة الدولة التي توجد داخل الدولة القمعية الشاملة، فبدلاً من أن تؤدي وظيفتها المفترضة الدقيقة والموضوعية في تنظيم الجماهير والنخب الشابة، تقف عائقاً خشناً إزاء عواطف الأفراد وشؤونهم باسم الشعارات الجوفاء التي لا تمت بصلة للواقع المعاش، وبذلك ينقل لنا الروائي الصورة التي تكتظ بالنقمة والصراخ، مجسداً عجز وإفلاس الذهنية الشمولية في قيادة الجماهير ونهضتها.

إننا هنا في معرض تفكيك وتحليل واستنباط لدلالات الرواية لكشف المضامين الجوهرية فيها، وكذلك الإشارة إلى جمالية اللغة وقدرتها على الرصد والمواكبة والاستطلاع ونقل الأفكار بصراحة مطلقة، لتعطي من حيثيات التقابل بين الشخوص عن طريق الحوار، تلك الرؤى التي نطمح لإظهارها عبر إعمال النقد الكاشف لعلل المجتمع والتغييرات التي تطرأ عليه تبعاً لحوادثه، ولعل صرخة السارد سليمان توحي بمؤشرات التغيير الحية.

نجد معالم النقمة والصراخ، تبديها سمات وملامح شخصية "دينو" وكذلك نبرته التي احتوت الحماسة، السخرية والحنق الشديد حوّلته لشخص آخر، حيث بدأ بالجنون الفعلي إزاء حالات مزرية تتوالى، وتحول دون الوصول لنتيجة إيجابية، فبازدياد الأحزاب وكثرة الانشقاقات، تسير عجلة المجتمع إلى الفوضى والتقهقر الذي يسهب الروائي في الحديث عنه، حين انتقال سليمان إلى المدينة للدراسة، فخروج الأفراد أو المجموعات داخل حزب معين وتشكيل حزب آخر، أربك من فعالية الثقة والانجاز، حيث جعلت الفئات النزيهة تلجأ إلى الاعتزال السياسي الذي يسهم في طبيعة الحال إلى نشوب حالة أشبه بالجنون والزهد، الجنون الذي أصاب دينو وجعله هائماً ومعتقلاً إلى أن بات مختفياً مع مجموعة كبيرة من رفاقه لا أحد يعلم عنه وعنهم شيئاً، وبين سلوك الزهد أو الاغتراب الذي تجسد في شخصية سليمان وحبه

لـ "بلقيس"، وكذلك محاولته لتناسي حالة الحب الجميلة والطبيعية التي مر بها، والتي تكللت في النهاية بمزيد من الألم والشقاء والدخول في متاهة الشهوات والغرائز المبتذلة، هنا يربط الروائي بين الفساد السياسي والاجتماعي وأدوار الشباب، في ظل فساد وتحلل المؤسستين السياسية والاجتماعية، فالتنافس البغيض بين الأحزاب والهرولة إلى سباق الانقسام والتشظي، أدى بالنتيجة إلى ظهور الإعياء والوهن الاجتماعي الذي طفا جلياً في ملامح الفئات الشابة المستنيرة والتي يقع على عاتقها القيام بعملية البناء والتحول الديمقراطي، فبروز الصراع الداخلي خنقت في الفئة الشابة أسمى مواهبها في إدارة مناحي الحياة، لتبرز معالم الاغتراب بقوة، وجرى الانقسام في بنى المجتمع وترهل فئاته وشرائحة الشابة نحو كواليس الانزواء والتحلل والضياع، حيث الاغتراب الفردي، ومردّ تلك الانشقاقات هي تقليدية الفكر وجفاف الروح الابداعية وتسلط المتنفذين والانتهازيين وتوغلهم في كل تنظيم، يحاول القيام بأداء المهام الموكلة على عاتقها، هذا ما جعلها في النهاية أسيرة الفوضى والتبعية، وجعلت الشباب من أبرز ضحايا الانقسام الدائم.

إن العالم التراجيدي الذي بناه الروائي في تناوله لمجتمع "سوبارتو"، لم يكن وليد التخييل الفني وحسب، وإنما هو إبراز للذات المنتهكة من كل النواحي، والتشاؤم الذي أسبغ على الفضاء التمثيلي بزمانه ومكانه وشخوصه، أعطى للغة الفنية جودة تخييلية وإبداعية في الكشف عن أوكار الوهم والخرافة المتفشية في المجتمع الذي بات أسير فوضاه التربوية والسياسية، سيان أن تنقلت بين هدوء الأرياف أوحاضرة المدن: "كانت سلمى هي الحالة الوحيدة التي تدل على إمكانية وجود صداقة بين شاب وفتاة في مثل أجوائنا المشحونة على الدوام، صديقتي الوحيدة، كنت مخطئاً في التسمية إذن، بدأت أشعر بأن كل محاولاتها، لإصلاح الخلل في علاقتي مع غيرها، كانت تبرهن لي أنها الأنسب لي، وأنها الأكثر نضجاً وكمالاً وتفهماً لطباعي، ما علي إلا أن أعيد النظر

في مسألة الصداقة هذه وتبديلها بحب فوري وعنيف، خفت منها متسائلاً بيني وبين نفسي فيما إذا كانت النساء كلهن هكذا، خفت على انقلاب بلقيس علي وعلى حبي لها بين ليلة وضحاها، ظلت سلمى تسألني دون أن تدرك مدى اتساع الدوامة التي وضعتنا فيها: ألا تحبني ؟ كنت غريقاً، ضائعاً، تائهاً في لا شيء."

فالإشارة إلى التنازع بين البشر، ولاسيما بين المرأة والمرأة، هو ما يثير التساؤل في خضم الحديث والإسهاب الدقيق حول نزوع المرء الفطري إلى الاستحواذ والتملك، لاسيما وأن الرجل يستلذ في سعي امرأة ما تجاهه، حينما يكون متحرر القلب منها، سوى ميله إلى مواكبة تلك المعاناة بسادية قل نظيرها إزاء ذلك الحب الأحادي الجانب من طرف امرأة، حيث ننتقل لتساؤل آخر، وهو سر ميل الروائي إلى توطيد الجسور بين الماضي المتخم بالأقاويل والأساطير، وبين الحاضر المتخم بالأوجاع والخيبات الظاهرة، يتوضح ذلك من خلال أسماء مثل بلقيس، سليمان، الهدهد، زنوبيا، سلمى، فما حقيقة ذلك البترول الأسود المتدفق بين الفخذين المتباعدين، والذي يفتح الأفواه الشرهة أكثر إلى مزيد من الأستئثار والطمع والاستبداد؟ إن هذين الفخذين هما النهرين الكبيرين المتربعين بين سفوح وجبال كردستان، حيث البترول الأسود الذي بات لعنة الشعب الكردي على مدى تصارعه مع المحتلين إلى وقتنا الحالي، حقيقة هذا المزج المتشعب بين الرموز وكذلك الأسماء، توحي لقدر من البساطة والسذاجة التي تزدهي بها طباع الشخوص: بسكويتو، سافار، دينو، برو، وكذلك تثيرنا نقطة أخرى وهي عنف الشبق في تناول الروائي لوصف العلاقة الجنسية، كما بين رشو وخالته، وبين سليمان ورفاقه مع حميدة العانس، وكذلك بين فريال وسليمان، بين ابراهيم ونرجس، فالرابط المشترك هو العنف في تناول العلاقة الجنسية التي تشي بقدر هائل من الكبت والحرمان والابتذال الذي عزز مكانه في دواخل الأفراد، فجمع كل المشاعر والسلوكيات لم يكن وليد المصادفة أو رهن المزاج الإبداعي وتقلباته في السرد، بقدر ما

له من تجليات ومعانٍ واضحة ومتعددة، منها ما يتعلق بالنقد السياسي لممارسة الأفراد وتعسفهم، ومنها ما يتعلق بالنفاق والإزدواجية المتفشية في ذوات الناس والمتنفذين وطغيان المنظومة النفعية الاستهلاكية على كامل مفاصل الحياة الاجتماعية والثقافية، لتؤثر سلباً على العملية التربوية.

يحاول الروائي أن يعاين التطرف المرضي في ذهنيَّةٍ لا تعي موقعها الحقيقي، إنّما ضاعت في سلوك العادة والأفكار الوافدة، فلا أم بلقيس استطاعت أن تتحرر من ذلك السلوك الغرائزي في التعالي والفوقية، ولا هي استطاعت في الآن ذاته أن تتأقلم وتستقبل عن وعي وإدراك طبيعة الأفكار الوافدة إليها عن الأممية الاشتراكية، وإنما باتت تعيش شأن من على شاكلتها، الأمر الذي أجبرهم الضياع في حالة التذبذب القهرية، وفي متاهة التهويم والسذاجة الهجينة المقتبسة من علل الماضي والحاضر، في نظرة أكثر تفحصاً لشخصية والدة أم بلقيس، والتي طرأ عليها اضطراب سلبي في سلوكها، حيث تعيش عقدة الإزدواج بين تحمُّل همِّ الإنسان والإنصاف، وما بين الروح الطبقية التي تجعلها في الآن ذاته ترى الرجل الخاطب من معيار ما يملك من نقود، إذ جسَّد الروائي ماهية الشخصية المتحدث عنها من قبل صابرو، مبرزاً طبيعة الأفراد والحياة اليومية التي يعيشونها، والنظرة المتصلبة السائدة في ثقافة مجتمع سوبارتو، ومنها إلى الحديث عن ازدواجية الفرد الإيديولوجي الذي يعيش ذلك الفشل الذريع، بين النظرية التي يؤمن بها، وبين الواقع وما هو عليه من أمراض وعلل لم يشأ أو يستطع التغلب عليها، فكيف إذاً يستطيع مكافحتها لدى الآخرين! حيث نلحظ أيضاً ذلك الإيحاء المبطَّن في الحديث عن ازدواجية المتحزب المعتنق عن سذاجة فكر التنظيم، دون أن يقاربه جوهراً وسلوكاً، في إشارة إلى ذلك الاضطراب النفسي الحقيقي المستوطن ذوات الأفراد المتحزبين، وذلك الخلل بين سلوكهم والغايات التي يسعون لتحقيقها، فهل هذا الخلل نفسي أم اجتماعي؟! وما طبيعته ونتائجه على

منظومة الحياة الاجتماعية ككل، والشباب على وجه الخصوص؟ ففي تعقب الروائي وإظهاره لمختلف العقد والظواهر النفسية، مثار حديث عن أزمات سلوكية ناتجة عن هذا الاضطراب الفعلي وطبيعة الأنظمة القمعية التي تنشب أظافرها بإحكام في جسد المجتمع ومفاصل حياته، وذلك البون الشاسع بين الأجيال، حيث نشأ ذلك التباعد فيما بين الأجيال، وهذا أربك من فعالية التفكير النقدي وشتت الإبداعات واحتمالية ظهورها، الأمر الذي جعل الأفراد في حالات نفور وعدم التقاء فيما بينهم، فعمَّ الاغتراب كافة الأوساط، وبات الناس أشبه بفوارغ رصاص متناثرة على الأرض.

إن مجتمع سوبارتو، هو الميدان الذي يعج بمختلف العقد السلوكية الداعية للتمرد والانقلاب والشك بجملة مسلمات ارتدت أثواب اليقين والقداسة، لهذا نجد الشخوص يعيشون جملة محاولات فاشلة تقودهم إلى شيء أشبه بالبؤس أو العجز المكتسب، فالمرأة والرجل وفق سوبارتو يرفضان كلاهما الآخر بنوع من التعالي أو الكبرياء المضطرب، وهما يمارسان الحب والجنس على نحو عنيف من حيث الفعل وردة الفعل، ويكاد يخلو من حب حقيقي أو متبادل، عدا عن ذلك الكبت والحرمان المتلازمين الذي يفتك بالشخوص، أما الألم فيبرز في كل لحظة وموقف، لا يدعو إلى العزاء والسلوان، بقدر ما يستأثر بالعواطف والأحاسيس، حيث تحيلنا الرواية إلى الانغماس في سيكولوجيا الشخوص ومعاناتهم، والبؤس الذي يتشبث بالحياة في مجتمع سوبارتو.

◆ لغة الرواية:

لا شكّ وأنّ اللغة تغوص في عمق الدلالات وسياقاتها الطافحة بالتأويل والإسقاطات الفكرية والسياسية التي تلبس لبوس وروح الفلسفة.

يمكن أن نوغل أكثر للحديث عن مستويات الخطاب الوجداني وعن النزعة الذاتية التي تقوم بمحاورة الذات وتعبئتها بحس الإنتماء لجوهر التراجيديا وهولها وآثارها على الحالة العامة للناس وكذلك سلوكياتها، كل ذلك سيشي بالتأكيد عن جوهر

الروايـة في أنها تقوم بإعادة كل حدث قائم على حـدى، عبر بتغليفه فنياً وتحويله إلى فعـل درامـي قائم مع الزمن، وليس مجرد حدث خارج دائـرة الفن، إذ يعاد تكوين كل شيء خارج الإبداع ليعود إلى تربة الفن والكلمة، وليتم صهره مجدداً وبإحكام في بوتقة الجماليات، عندها يمكن الحكم على التفاصيل اليومية داخل الكتابة وفعلها الإبداعي، بأنها تفاصـيل جميلة قابلة للخلود، لأن المبدع نفـخ روح الفن فيها وأخرجها من كونها مجرد حدث وقع وانتهى، حيث أن سوبارتو باتت المساحة الرحبة للحديث عن العصيان والنقمـة، وكذلك إبـراز البؤس بثوبه الداكن، كحالة سـوداوية بادية في ملامح النص الروائـي، وكذلك باتت هـذه النبرة القاتمة قادرة بحدتها على اسـتمالة الباحثين عن مصـادر الوجع عبر تعرية مسـببيها على الدوام، حيث أن لغة الرواية سهلة، واضحة، قريبـة من الحـس والذائقة العامـة، وثمة تنوعات في طـرح الحدث واسـتلهام الفني والملائم منها، بخاصة ركونها إلى عذابات المجتمع ونخبه الشابة على وجه الخصوص، وكذلك تجسـيده لخيبة العاشقين وانغماسـهم في أوكار الانحلال السري الذي لا يرفع قضاة المجتمع خناجرهم بغرض اجتثاثه كونه يتمّ بالسر، فطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في ظل هيمنة الرقابة على المطالبين بالدمقرطة والتحول باتجاه الحريات وبناء المؤسسات باتت تغص بالغموض والمواربة، إلى جانب ميلهم للتماشي مع حقيقة الوضع واللهث وراء عالم الغرائز لتناسـي الوجع، هذا مافعله سليمان، وكذلك فشل سلمى في اسـتماله قلبه تجاهها، ثمة نزوع للعبثية داخل الشخصـيات التي يسـتطلعها السـارد ك: دينو الذي يهذي، وإبراهيم، حيث ينشـب الحريـق ويختفي القاتل في ذهن الباكين والمعزين والمفجوعين، ابراهيم الذاهب للجبال بغية تطهيرها بالنار، لطالما كانت النار تطهيراً إزاء الفائض الكبير من الغضـب والندم، فالأوطان يعاد اغتصابها باغتصاب الحب داخل أراوح شـباب وبنات شعبها، ولا يغسـل العار إلا النار: "ويبدو أنني فقدتك فعلاً يا بلقيس، فقدتك، شـعوري هو شعور من فقد الشرف، كنت أفكر بك، أحلم بك،

وأنت تحلمين بمطبخ جيد، ورجل تتزحلقين على صلعته كل مساء، الآن أحتاج إلى ثلاثة أعمار لترتيب أجزاء روحي المبعثرة في زوايا سوبارتو الفارغة بعدك، كنت أرتاح لمجرد وجودنا معاً في بلدة واحدة، ومرورنا في شارع واحد، المطر نفسه يبللنا، السماء نفسها فوقنا، الآن اكتشفت أن في الحب ظلاً فظيعاً فيه من الشر ما يضاهي الخير آلاف المرات، لو سألتم سليمان عن أمنيته في الحياة، قبل أن يغادر، لأجاب: أريد أن أبكي."

إذاً فثمة ما هو أكثر من البكاء والعتب، أو أي شكل من أشكال التوسل والترجي، هذا المقتطف على درجة عالية من توصيف الألم، حيث الفاجعة التي تنعقد على إثرها الألسن ي=ويبقى مجرد الحديث عنها بلا قيمة، فما حدث قد حدث، إنه شكلٌ من أشكال الموت ووحدة قاتمة تطول.

الحرص على تفسير الدلالات هو اقتراب من سبر فلسفة اللغة ومدى قدرتها على رصد ما يدور في الوجود وتحويل الجوامد إلى فن يتسم بالمرونة والحركة ويهب الدهشة والتساؤل، وكذلك تجلي الأسلوب وتعدد أشكاله في السرد هو ما يقف وراء قيمة العمل الإبداعي، خصوصاً الراوية.

وحول التخييل يمكن الذهاب لأبعد ما يحاول الانفعال الوجداني حصره، فلا شك أن عماد التخييل هو أرضية الانفعال العاطفي، إذ لولا حرارة المشاعر وتوقدها لما استطاعت الكتابة أن تصل بسلاسة إلى روح المتلقي، إنهما كلاّن منسجمان، يجدر بنا التعاطي مع الانفعال الفني في سياق المتخيل، فالخيال يشارك في لعبة صناعة الحدث وتحويله إلى فن، حيث يساهم في تجميل ما يتم سرده، وكذلك فإن من مقومات السرد الفني أنه يتغذى على الخيال والانفعال الوجداني معاً، فالخيال هو ديناميت السرد، ولا يصح أن نعتبر الرواية فنية إلى حد تخلو فيه من الشطحات التخييلية المتزامنة مع شحنات العاطفة، حيث يُتمُّ الوجع طقوسه، لتغدو الرواية فنياً، مسرحاً مونودرامياً يغص بالشجن والألم، حيث يستعد ذهن المتلقي لاستقبال الخواطر الوافدة وتواردها

بصـورة مموسـقة، متناسـقة، كأنها سـيمفونية صارخة، فـ سـليمان، السـارد العام لسـوبارتو، يقف علـى مفترق طرق، ما بين اليأس والذهول، ما بين الصـرخة والأنين، حيث تتنافس اللغة الفنية التخييلية مع اللغة السـاردة الكاشـفة، تتسابقان على إظهار الفضاء الزمكاني واستيطانه، وتستحضران كل مظهر نفسي له أبعاد سياسية اجتماعية فلسـفية، تحمل في سـياقاتها الثلاث النقد اللاذع للذهنية الأبوية والعقلية الشمولية، إلى جانب اسـتنكارها للتقاليد والعادات الذكوريـة، وكذلك تمجيدها للعبثية والنزعة التشاؤمية التي اعتمدها الروائي كخيار واقعي تسجيلي للأحداث، كاشفاً برؤية نقدية نتائج إفلاس الدولة الشمولية وعجزها على تحقيق أدنى مستويات التنمية في المجتمع، وكذلك فإن غياب العقل النقدي الشـاب، هو من أفسـح المجال أمام الفوضـى القيمية وجعـل الأفـراد ينتقلون من انحطاط لآخر، فالتركيز على مظاهر الاسـتغلال والنفاق الاجتماعي هو تسـليطُ ضوءٍ في الآن ذاته على حقيقة هذا الضعف المزري الذي يعكس بطبيعة الحال غياب الشـعور بالطمأنينة والثقة بالمسـتقبل، ومما لاشك فيه فإن الثقة هو أسـاس كل عمل جماعي، وغيابها يعني غياب الفعل الصحيح والعمل المثمر وانقياد تعسـفي لمفاهيم السـلطة الأمنية الرقابيـة التي اكتفت بتأمين أسـباب بقاءها وتثبيت نفوذهـا، عبر دوام قمعها واسـتبدادها، إذاً فـ سـوبارتو تختزل تلـك الثقافة الجمعية الغائبـة، التـي يتربص بها النظام الشـمولي مـن كل جانب عبر مراحـل حكمه، وهي حصيلة تلك الذاكرة الاجتماعية والأحداث القاتمة في مسيرتها التاريخية، فمن خلال هذه الزاوية أمكن النظر للرواية وتقييمها بمهارة أكثر جودة ويسر في آن معاً، وتفادي تلك الاصطلاحات الأكاديمية الجاهزة المحشوة بتآويل مسبقة قد لا تمت بصلة للمناخ الحقيقي للرواية، فنحن أمام حقبة متعددة الملامح، ووجع متسلسل يمكن المقارنة على ضوءه.

إن الخوض في مسـاحة التجربة التأملية يعطي فعـلاً أكثر تأثيراً في البروز بالمعنى الإيجابي في سـاحة التأويل، إذ نلتمس الفضاء المكاني للرواية، لنجد ذلك الميل للأخذ

بالجوانب التي تنم عن إحباط من واقع قاسي، حيث صعوبة التكيف مع الأذهان التي اعتادت استقبال الخمول والكسل، حيث يستحيل التأقلم الجيد مع المكان بزوال من نحب. ترى ما علاقة الفرد بالمكان من ناحية شحد الهمم للاستمرار في ظل وجود متشعب مليئ بعلل التعلق تحت طائلة الوهم المستمر؟ ما تلك الخطوط الرفيعة ما بين الحب والوهم في ظل ذلك الوهن المسيطر على أعماق سليمان السارد والمواكب لكل معالم الرواية؟ فوما تستولي عليها من إيحاءات تدعو للكثير من السبر، ومع تلك الغوامض التي تتجاذبه نجد ذلك الألم المتعدد، سهل العدو من حالة إلى حالة، حيث تنتقل ما بين آلام الأفراد والجماعات في حضور الهم الوجداني والقومي على حد سواء.

بمسحة واقعية عامة يسترد سليمان وعيه شيئاً فشيئاً عبر ركونه للواقع واستسلامه لصخب شؤونها، يدخل رحلة حياته محاصراً بأعباء جمة، حيث لم يستطع إكمال الجامعة ليلتحق بعدها بالجندية الإلزامية، ومن ثم ليعمل برفقة مستو الأعرج في ورشة تطريز، حيث تتسارع الأحداث هنا، إذ تتطاول حقبة التناسي هذه التي يشغلها سليمان وينقاد لنمط الحياة كما هي، حيث في هذا الاسترسال يكمن معنى الوجود وخوض غمار الحياة بأحداثها ومفاجآتها، إذ يؤكد الروائي على صلة سليمان، بطل رواية سوبارتو، بالبشر ومقدرته على الإندماج بالظروف المقابلة بمرونة، فدوام صداقته مع مستو الأعرج تؤكد ذلك، حيث تشغل ساحة الحلم داخل مستو حينما يقوم بتعويض نقصان المال، عن طريق الحلم بالرئاسة، وكذلك بقتل السلطان وتتويجه مكانه من قبل أتباعه، حيث تكمن المقارفة هنا بين واقع يحاصره شح المال ونقصان الحيلة، ومنام لذيذ يأبى مستو الاستيقاظ منه يخوضه دون أن يصل لمبتغاه، حيث تحيط شخصية مستو رمزية تهدف إلى محاولة خائبة في الوصول لحياة أفضل خارج التي يعيشها والتي يسودها الفقر، لهذا يستغرق سليمان ومستو الأعرج في تلاوة مآسيهما وأحلامهما معاً، وكلٌّ على حدى، فالرموز لا تنفك عن الحديث والتحكم

بمسـارات الحوار ووصف الأفراد كونها مفاتيح هامة لفهم مرامي الحكاية، شيء لابد منه في السرد والتعبير عن مستويات الحوار وتصاعد الحدث، حيث يجدر فهم الحدث والمعاناة الشخصـية بطرائق أكثر مرونة وسـهولة وكذلك الإدراك العام لدراما النص الأدبي ونزعة الشـخوص العامـة للمغامرة وحب الانطلاق وسـط طبقة معدومة همها أن تعيش لأجل يومها، حيث يتغول الفقر مراراً وتتضـاءل مساحة الوعي، فالمُحاصَرين يُحاصِـرون بعضـهم البعض، وتتعاظم المأساة، يسـقط الحب نتيجة الضعف البشري أمـام مغريـات مادية حرموا منها، وكذلك يعم الاغتراب، حيث يعمل الوصـف للمكان دوره في تمثيل آلام الأفراد ويحدد أدوارهم العملية في المجتمع، فتتجسد طريقة الحياة القائمـة على الحذر والخوف من المسـتقبل، وتتشـابك خيوط العمـل الفني في خوض الدراما المؤثرة، فتجسـيد آلام سـليمان وفجيعته بفقدانه لـ بلقيس، وهماً مجانياً، بل عبرهـا أمكن لنـا قراءة الحقبة الزمنيـة وطريقة التفكير بحالتها الواقعية وشـعارها السـائد، حيث سيطرت المنظومة الانتفاعية على روح القيم الطبيعية، فتجسيد جدلية الصـراع ما بين الـذات والألم، تكمن في الرحيل إلى أوجـه الحياة الأخرى في الانفتاح على مأسـاة الغير، استجابة للمثل الشعبي: من ينظر لمأساة غيره تهون عليه مصيبته، ونكـران الـذات والألم الحاصـل، إذ يعمـل النقد على تفسـير الظواهر المتجسـدة في مسـاحة النص الروائي، على اختلاف أسـلوبه وانتقاله السلس من قضية لأخرى وفق ترابط معين ومحدد وهادف.

إن الذاتيـة تنطلق مـن نمط الخطاب السـردي إلى الانطوائيـة، أو إطلاق العنان باتجاه الاغتراب النفسـي ونكران الرغبات على حسـاب جلدها، إذ نلحظ ذلك البروز التشاؤمي والتسابق شبه المعلن لإبراز الألم على اختلاف صنوفه وماهيته، في سوبارتو يكمن الانتصار للسرد والتكثيف، حيث أن الأخير هو السائد، أما الحوار فيبدو قصيراً يسـري كومضـة مكثفة، بعد طول تتابع لسـرد الحدث ووصف المشـكلة، حيث لا يلعب

الحـوار دوراً كبيراً ورئيسـاً بقدر ما يعمل على التشـويق ولفت الأنظار بجودة، تصـل الحالـة بالسـرد أن يعبر عما يعتمل الـذات، أي مكنونها بتعمق وتشـعب أحياناً، وعلى هيئة التقارير المفصلة التي مهمتها إبداء المواقف من الحكايا، وتداولها وإبرازها على هيئة سـاخرة تارةً ومؤلمة تارةً أخرى تسـتدعي الشجون عبر الإشارات والرموز اللغوية المتعاقبة في ثناياها.

يحيلنا التأويل النقدي دائماً إلى وجوب الوقوف عند العبارات واللغة وجس مواضع التأثير فيها وما قد توحيه من دلالات تأويلية عادة، يمكنها أن تقود إلى سياقات تأملية يأخذهـا النقد في أطروحاته الذكيـة لبيان آليات جديدة لقراءة النص والكشـف عن بنيتـه دون التطـرق لظـروف الروائي النفسـية أو حقبته الزمنية، فذلـك لا يطرح في الرواية ولا يُؤخذ في الكشف عن ماهية الأسلوب وبيان جودته، على العكس، حيث وُجد التأويل والبحث تعدد الطرائق الجديدة لتجلي الفن النقدي كمنظار ذو حساسية ودقة لما يتخلل المنتج الإبداعي من رؤى وإيحاءات، حيث يشغل الروائي معالجة الأفكار بسرد الشخصية المنطوقة لخط سير حياتها وسط حياة مليئة بالمصاعب التي يضعها الآخر عن قصد أو دون قصد في وجه المرء، وتكمن الصعوبة في مدى تأقلم المرء على الخطْب الذي يعتريه، وكذلك الإشارة إلى قدرة الظروف في التأثير على السلوكيات والقناعات وعلـى علاقة الزمن بالإنسـان ومجريات حياته، حيث يعاني مسـتو مـن فظاظة والده وكذلـك نمط حياته وإعاقته وصـعوبة الحياة التي تشـرَّبها منـذ طفولته، حيث نلحظ ذلك التركيز على المراحل الأولى من حياة الإنسان، البيئة التي تلعب دورها في تحديد السـلوك وأنماط التفكير وكذلك تلعب خشـونة الحياة وكيفية التعامل المحبطة دوراً في إفشال المرء في الميدان العملي، فبقليل من الإشادة ونفخ روح الإرادة في الذات، نجدها قد تحولت لمصـدر عطاء وشـعور بالزهو والمحبة، بخلاف نتائج القسـوة التي امتهنها والد مسـتو تجاه ولده: "ما إن فتح مسـتو الباب، حتى تدافع الدائنون إلى الداخل، فلم

يستطع تهدئتهم، بعد أخذ ورد عنيفين، هجموا على مستو، عرّوه ، تقاسموا ثيابه، وكل مـا في بيته، وذهبوا بعد قذف أكياس من الشـتائم البذيئة، حمل مسـتو خرقة، علّقها فـوق ركبتيـه، وتوجَّه إلى أبيه الذي كان يلتقط أنفاسـه الأخيرة قائلاً بصـوت مبحوح متقطِّع:

وصيتي لكم يا أبنائي، ألَّا تكونوا مثلي...

كان الأب وحيداً مبتعداً عن أهله، مقطوع العلاقة بهم.ولايعرف مسـتو عن أعمامه شـيئاً، باسـتثناء عمه المتوفى، والد زوجته، رغم معرفته بكل أهالي سوبارتو، وقبل أن يشهق شهقة الموت، قال الأب والرجفة تهز لسانه:

".سامحني يا مستو، لأجلك ،كنت قاسياً معك يا ولدي-

الأحداث المؤثرة تلك هي مساحة متاحة للتأويل، فالبحث عن خيوط الكلام النقدي ملائـم للمحور الذي حدده الروائي بخصـوص علاقة الفـرد في ظل مجتمع يعاني من صـعوبات التعامل وخطأ التصرف فيما بين أفراد العائلة المفككة والمبعدة عن مسارها الصـحيح، ففشـل التربية جعل الوالد لا يبصر تبعات الأمر إلا وهو على فراش الموت، وأيضاً تباعد أبناءه، تباطؤ مجيئهم وعدم ردهم على برقيات حضورهم، يجسد نتائج التعامل العنيف مع الأبناء، فالنظم القمعية حددت نمط وآليات التربية الفاسـدة لدى المجتمع الذي تتحكم بمسـارات عيشه، حيث ينجم عن ذلك تعمد تكرار الإساءة، ونبذ الأفراد لبعضهم البعض ليعم التخويف والتسلط والاستبداد بين الأفراد.

يبدو أن الوظيفة الجوهرية في (سـوبارتو) هي العمل على إزالة القمع الأبوي والتي لا يتوانـى الكاتـب على تجلي مراحل الصـراع ضـدها، فما تجسـيد الطفولـة المعذبة والمراهقة التعيسـة، إلا مظهرين أساسـيين تستند عليهما بنية المجتمع الذكوري، حيث انعـدام المسـاواة والضـوابط التربوية التي تحدد نمط تنشـئة الإنسـان منذ طفولته، وكذلك ضـياع المرأة بين فكي كماشـة العزلة والشـعور الدائم بالعـوز، وهذا ما ينجم

عنه ذلك السبات القهري الذي تعاني منه الأمومة في مراحل تربيتها للأطفال، حيث تفوق الرجل البدني جعل منه فيلاً ثملاً، وجعل من قرينه المثقف ذئباً ساحراً، لهذا فـ سوبارتو تكشف عن أوكار العهر والسذاجة والظلم معاً، لتبيان احتمالية بروز دور الصارخ الثائر على هذه الحالة المزرية من الضعف والوهن المزمن، فالمرأة نراها دمية لا قوة لها على دفع الرذيلة باسم الشرع حين يغدو الزواج الاستهلاكي بغاءً مقدساً تجيزه الأديان وتفرضه العوامل المادية والتجهيل المركز، فنحن أمام أورام وعيوب تاريخية طالت المجتمع بمؤسساته الفاسدة، جعلت المرأة مدجنة بأشكال جديدة، اتخذت تغييراً بوضع عبوديتها في لبوس ناعم يشي بتحرر شكلي لا يتعدى كونها بشكل أو بآخر مستعبدة للذكورة الانتفاعية، إنه ذلك التفوق المكتسب بالسطوة والانتفاخ السلطوي المعزز بطبقة سميكة من المصالح السلطوية المبقية على الأمية والسطحية والاحتقان إلى إشعار آخر.

◆ البحث عن المعنى في الرواية:

البحث عن المعنى هو الأبدى والأجدى في رحلة الرواية لاكتشاف ما يحيط وراء لاعقلانية السلوكيات المتبعة وتجسيد عفويته وغموضه لتعبيره عن المعنى الكامن فيه، حيث يمر النقد على أكثر الجوانب النفسية السلوكية استعصاءاً، فيتحرى وينقب ويدخل في دلالة الحدث ليسدي عملياً جملة توجهات وإرشادات يمكنها أن تساهم في تحسين فهم المعاني والدلالات وتقديم أجوبة أكثر منطقية حولها، فهي ليست ممارسة عمومية تتسم بالشمول، إنما تمتاز بالتنقيب حول الغوامض العالقة في السلوك الباطن.

ففي مشاهد بوح مستو لسليمان عن محنة الفقر والحب، نجد أن المسافة ما بين الحب والفقر يتم سدُّها بالحديث عن الفساد وسوء التنظيم، وكذلك افتقاد الحياة لمنهجية معيارية تصون الأفراد وتمنع تفككهم، إثر تفشي العنف الذي أخذ أشكال شتى، عدا أن وصف الحدث انتصر للفن كاشفاً عن جودة تناوله وتعدد أساليب طرحه، حيث

يصعب الإجابة على كل ما ينجم عن تأويل أو تساؤل بشكل واف، ولكن الواقعية تكشف النقاب بنفسها عن ضغوطات الحاجة التي تضطر الأفراد إلى الانكماش حيناً والتوتر حيناً آخر، فعقد المقاربات يعتبر أمراً متجلياً في فهم النص واستكشافه، حيث يؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى إعطاء التأملات الفلسفية حيزاً أكبر في تناول الحدث بشقه الوجداني والواقعي، فيبرز دور المعرفة برسمها لسياقات متعددة ومناهج متباينة يمكن عبرها فهم الرواية المتلاطمة بإيحاءات ورموز وسلوكيات تتغير تبعاً لتصاعد الحدث أو هبوطه، حيث أن طبيعة الحياة القائمة، سيطرة الفقر وسوء التدبير المتأتي عن إهمال وفظاظة تربوية، كانت وراء حقيقة التنشئة أثبتت أن ضعف الروابط الأسرية ناتجة عن فشل المنظومة الأسرية، الأمر الذي جعل مستو يعيش حالة متينة من الوجع، حيث تقوم البلدية من ناحية أخرى بهدم منزله ودفع تعويض له ببناء منزل آخر، إلى جانب تشاجره مع الذين طرقوا الباب عليه طالبين الدين المترتب على مستو نتيجة خسارته في لعبة القمار، كل ذلك أحاط المشهد بسوداوية جعلت من سوبارتو مرتعاً للمضطربين البؤساء الذين يجترون البؤس باعتياد.

◆ المكان كعضوٍ جنسيّ في الرواية:

التنقيب عن القيمة المستنبطة من إرث العلاقة بين الإنسان والمكان، فحواه أنه ما من قوة يمكنها قطع تلك الصلات الخفية بين الذات وجذوره، بسبب وجود تلك الإرادة المنحازة بطبيعتها الأولية لمن يحمل عنها عبء الاغتراب، وهي بمثابة تطلع حكيم لحياة أبهى، ففي معيار الفن والعمل المبدع، تتغير كلياً النظرة نحو الزمان والمكان منها إلى الواقع، فحينما يتجسد في الفن يغدو شكلاً مغايراً عن طبيعته الأولى، حيث يشير النص إلى رسائل محددة تتوالد من شتى مقومات العمل الروائي في تفصيلاته الصغيرة، في سرديته وخطابه، وكذلك في حواراته أيضاً، إنها تجسد طرق الصراع بين البشر في إطار المنافع والمفاهيم على نحو متزامن، حيث يتردد في ذهن الفرد

تحقق إرادته التي يعتبرها انتصاراً لجزئية بسيطة من العدالة، في حين يجد المقابل، أن الإنصاف لم يتحقق بسبب لهث المقابل لتحقيق هذه الجزئية على حساب تعاسته، حيث نجد أن عبء المجتمعات أكبر في عدم قدرتها على معرفة ما يعتريها من جوع ورغبة في تذويب الهوة بين الرجل والمرأة لخلو ذهن أفرادها من ثقافة الجنس المحرَّمة من الأديان الذكورية التي استخدمت الإله الذكر لإرضاء فئة السلطة ونسف رغبات العامة من الشعب، وذلك بتكبيله على مدى قرون عبر قيود الأعراف والتقاليد التي أسبغ عليها المقدس فيما بعد، لقد تم استخدام الأخلاق بوصفها شماعة يتبجح بها أرباب السلطة والمال، الذين هرطقوا العقل المبدع بل وسخروا منه وأدانوه، بيد أن الحقيقة المعرفية تنتصر على الدوام في كل موقف ولا يعلوها أي علو، وبذلك تشكل العبارات المجسدة لاتحاد الرجل والمرأة في ظل الحب بمثابة النصر المعرفي التي تزهو عبره قامات الوجود.

إن تناول الغموض في الطبيعة البشرية، هو ما يجعل الفكر هائماً في خياراته المتشعبة لسبره بصورة جيدة، يمعن فيها الكشف عن علل الإنسان وسلوكيات الجماعة المعبرة عن حصيلة تلك الأفكار والعوائد المشتقة من المعتقدات الروحانية منها، وكذلك المقتبسة من حالة الانتفاع العامة، ولعل علاقة الرجل والمرأة تتأثر تبعاً لذلك، فالجوانب المتعلقة بذلك هي جل ما يعني السرد الروائي، استخدام الرموز الدينية، وعلاقة سليمان الموحى إليه حسب الأسطورة الدينية والذي يجيد التحدث مع الحيوانات، الهدف منها هو تقديم طرائق متعددة لإيصال الفكرة، وكذلك استخدام التأثيرات الخيالية كي تعبر عما يجيش في النفس من مشاعر متناقضة تميل إلى الغضب والانفعال وكذلك إلى الدعابة الجادة، فبيع الجسد مقابل المادة وعلى مرأى من مجتمع اعتاد العيش بجوار أوكار الرذيلة وحماية ذلك حسب تأثير السحر الطبيعي المسلَّم به، هو تجسيد لطبيعة الحركة الاجتماعية القائمة على الضعف

والبؤس، فلا أحد بوسعه انتشال الخوف من داخله خشية وقوعه ضحية قوله للحقيقة، حيث تنعقد حلقات الإلهاء عن تعرية العيوب بتلك البهرجات والخدع اللفظية التي يمتهنها الرجال في مجتمع تلبس الخوف من أعلاه لأسفله، حيث خيانة الذات والآخر هو الجدلية التي تدور في عقل سليمان وصديقه مستو، وتلك الهوة العميقة بين الرجل والمرأة تتسم بالكثير من الغرابة والمأساة في طياتها، فتلك الرذيلة المستترة باتت وجه مجتمع سوبارتو المكتظ بشاخصات البؤس والفقر والفساد، ولعل افتقاد الجنس لهويته الطبيعية المعنوية يجعل الأفراد متنقلين في كآباتهم وخيباتهم كل على حدى، حيث لم يعد ثمة وحدة إنسانية معبرة عن دواعي رقي وانفتاح، وإنما ثمة ضياع مطبق ومستقبل غامض يعم سماء سوبارتو، حيث تقع الرغبات في حبال المغريات التي يستسلم لها المبدأ النقي والتشبث بالأشياء الأكثر بقاء في الذاكرة، فتلك العلاقات القائمة خارج دائرة الانفتاح على الآخر تسودها الاضطرابات النفسية والمزاجية التي تؤثر على القيم التي يؤمن بها الفرد ويضعها وسيلة للمحافظة على الروابط الإنسانية مع أقرانه، وبضياع ذلك التعاقد الطبيعي يستفيق المجتمع على كارثة قيمية تلغي أدواره شيئاً فشيئاً،حيث يتوج الحب بالسخف والخوف والنفاق وتنقلب اللحظة الهادئة إلى فخاخ من الحيل تنشد المزيد من الزيف والتسطح، فهذا الفشل الذريع في العلاقات الإنسانية هو انعكاس لمنظومة السلطة الفاسدة في هيمنتها على عقول المجتمع، وذلك من خلال إبعادها عن عملية البناء والتحول الديمقراطي وجعلها مكبلة بأغلال المفاهيم وضغط الفقر وسيادة المفاهيم النفعية الأنانية، الأمر الذي أدى إلى ذلك التحلل وفقدان الارتباط الحقيقي بين أفراد المجتمع، ولاسيما نخبته الشابة، حيث تغدو الغرائز أقل من أن ننعتها بالحيوانية لبراءة الحيوان منها، وكذلك خالية من أي معنى يشير إلى الشفافية والصدق، حيث تمارس النشوة بطرق مبتذلة تكشف عن علل الذات وتشوهاتها، كما في تقاسيم تصرفات بلقيس مع سليمان، وإنكارها لكل الحب

الذي أبدته تجاهه، ولعل تعثر العلاقة ما بين الرجل والمرأة يقود إلى الفساد العام على كل صعيد وميدان، ولهذا كان الروائي مدفوعاً للإشارة إلى العيوب والعلل الكامنة، وكذلك جذورها وعواملها، مبيناً مدى هذا التواشج الرهيب ما بين المنظومة الحاكمة والمجتمع المغلوب على أمره، حيث ظلت المرأة محكومة في إطار التسليع واسترخاص الحب وجعله مسوغاً للعهر، حيث يبرز الكاتب طبيعة الانحطاط الذي يتصاعد في كل الميادين حيث يتجسد ذلك التردي الثقافي المشار إليه: "أخطأ بعض النقاد الفنيين بين الحديث عنها كلوحة في غاية الجمال والأنوثة والعطاء، وبين لوحة رسمتها أناملها الناعمة، فتختلط ألوان عينيها وعذوبة أنوثتها بألوان لوحاتها وعذوبة ألوان اللوحة المرسومة، فيدخل الدوار إلى رؤوس النقاد الذين لا يتوانون عن دفع حياتهم ثمناً لليلة ساخنة، وعندما تقرأ بلقيس رأياً بارداً نوعاً ما لأحد النقاد، فإنها تحصل على رقم هاتفه، مكالمة واحدة كفيلة بتسخين رأيه وجسمه معاً، حتى أن بعض النقاد المغمورين قد تقصد التهجم عليها، فأخرجتهم بلقيس من الظل، وبلقاءات قليلة قلبت آراءهم ونفوسهم وأذواقهم رأساً على عقب، خلت الصحف نهائياً من كلمة ذم واحدة تجاه فنها الذي غطى على أخبار الفن في العالم، فارتبط الفن السوباري الحديث باسمها، كل ذلك بمساندة مباشرة من العجوز فلك التي اعطتها-منذ اليوم الأول- مفتاح الدخول في بوابات الفن المعاصر:

- التفنن في رفع الساقين هو مفتاح الدخول الكاسح إلى عالم الفن."

يُشار هنا إلى ذلك الاضطراب الأسري الذي جعل من أنثى كبلقيس تهرع للتغني بالظاهر والقشور، وتتسبب في إيذاء كل شيء تقرب منه إن كان الفن أو الحب، لهذا نجد أن ثمة سطوة معلنة للفساد في مناحي الحياة، الأمر الذي جعل الحب مضطرباً ومغمساً بظواهر الإخلال به، حيث يتشارك الرجال والنساء أدوار الاتجار بالقيم وخيانة الجمال، فهذا الواقع الذي أفرز عن علل جمة قاد المجتمع إلى مطبات متعددة،

وعرقل أدوار الفئة الشابة في صنع حياة واضحة المعالم، حياة عمادها التشاركية والتطلع لمستقبل أفضل، بعيد عن التحقق بسبب سيادة روح الاغتراب، وتفشي الاستبداد الذي باعد بين الفرد والآخر، جاعلاً من كل الرغبات الإنسانية الطبيعية مغلفة بغلاف الاضطراب والرداءة والتحلل الخلقي، فلم يعد ثمة بوادر عن علاقة أفضل على صعيد الميدان العاطفي، فالشهوة رديفة السلطة، وهي بالتالي تبرر لديمومة الاستبداد، فما من ثورة ضد هذا الواقع الذي تتنازعه الأنانية بين أفراد تلبسوا الشعارات وزيفوا من خلالها كل جميل، حيث تأتي رداءة الطباع البشرية إلى طبيعة نظام الحكم المستندة على تعبئة الجماهير بالأوهام عبر تشويه الجنس والحب، والزواج عبر عريضة الوعظ الساذج يتم تلقيها كبديل عن منهجية النظام التربوي، إن انعدامه هو بمثابة انعدام الأوكسجين عن الرئتين، مما يفسر تفشي العلاقات ماوراء الكواليس، والفشل المتكرر في إقامة علاقة طبيعية مثمرة، فالرواية النقدية تعج بسبر متعدد الأوجه والصعد لعلل الفرد والمجتمع إزاء إفلاس الدولة وعجزها عن حماية أفرادها، واستبدال النظام التربوي بنظام يرتكز على تجديد الأساطير والمعتقدات الشعبية والعقائد الدينية التي تحض على طاعة الحاكم، وتبين ألوهيته، وكذلك تحويل المساواة بين الرجل والمرأة إلى حلم إبليس بالجنة، مقابل إقامة معادلة السيد والعبد: "لجأ إلى مستو الأعرج الذي أغرقه في أحاديث عامة تشمل جميع النساء دون أن يفرق بين امرأة وأخرى، فزوجته وبلقيس وغيرهن كلهن حواء، وحواء كانت متكبرة وعاهرة، وسبب دخول آدم إلى الجحيم، والرجل العاقل هو الذي يمتطي كل يوم امرأة تقع في طريقه، ويمضي إلى أخرى، وأحمق من يظن أن المرأة يمكن امتلاكها إلا من خلال اللحظات الجنسية القليلة التي تقضيها مع الرجل، وبعدها، لا يمكن ضمان وفاء أو إخلاص أية امرأة على وجه الأرض.واختتم آراءه بكلمات قليلة عن بلقيس: - اتركها في حالها، ابتعد عنها، هي كغيرها كاذبة ولا تستحق دمعة واحدة."

حيث تم المحافظة على هذا الموروث بطريقة تدعو للتساؤل، ما علاقة قيم الذكورة بمبدأ المحافظة على قيم السلطة الاستبدادية!؟ بالطبع نجد العلاقة الحميمة والمتممة بين تلك المفاهيم والقيم التي تبني السلطات الأمنية عليه أسس بقاءها، تفخيخ المجتمع بأحزمة العهر وعبواته، مبدأ فعال في حماية موروث السلطة الديكتاتورية وجعل الأساطير والمعتقدات الشعبية وسيلة لاستيطان العنف في أروقة المجتمع الذي يعاني من العنف الأسري والحزبي والتعليمي، عبر قنوات تواصله مع المساجد والمدارس والاجتماعات الحزبية والإعلام، وهكذا لم يبقى مكان إلا وتشرّب فيه المجتمع كل ما يكبل فكره وفكر نخبته الشابة على وجه الخصوص، حيث يتم تكبيل الأفراد بمفاهيم قامعة لكل مسعى من شأنه خلق بذور الاتحاد بين الرجل والمرأة، وهذا ما يفسر نمط التشويه الممارس والمعتمد في مجتمع سوبارتو، كأنموذج مثالي عن المجتمعات الشرق أوسطية، حيث يعتبر نقدنا للعلل هو بمثابة تجسيد محايد لما تم إبرازه في تلابيب الرواية على مساحاتها المتباينة، وهي بالتالي تعبير مختلف عن طبيعة الواقع القائم على الاضطراب والاغتراب، ويكشف التأويل في خضمه عن ظواهر التشويه الثقافي والقيمي، حيث تجسد الرواية ذلك البون الشاسع ما بين الانحلال والدعوة لردعه ومناهضته على الصعيد الفكري والفني، حيث لاتسير الرواية نحو إبراز التخييل كوسيلة لنقل الرسالة الفكرية، وإنما تعمد إلى كشف حقيقة الطباع البشرية المضطربة والمتوافقة مع طبيعة التفكير المفروض على مجتمعات خاوية الأذهان، محكومة بداء العقلية الأبوية وتقديس الزعماء مما سهل برمجتها بأي خطاب مؤثر، ودفعها لأي اتجاه تريده تلك القوى المتحكمة به وبخيراته وحتى طبيعة نظامه السياسي، فالنظرة إلى الذات في خضم سوبارتو، هي بمثابة مراجعة لها عبر قراءة تصرفاتها التي تحيلها للتصادم والتنازع الدائم للوصول لصيغة حياة إيجابية، لكن بالمقابل منها ثمة جور قائم يدفع بسليمان إلى الانطواء أكثر عند كل لحظة تجعله يوقن لذة الحب،

ولعل كل الأفكار المتصارعة إنما في حقيقتها معبرة عن طبيعة الواقع الاجتماعي الذي يترنح تحت ضغط اقتصادي سياسي تعيق أدوار أفراده المتطلعين للخلاص، لهذا عمد الكاتب في الحديث عن حجم الوجع والمعضلة، وعن تلك الخيبة التي جعلت البؤساء يتبخرون أمام قوى العهر التي اتحدت مع الخرافة، وبدأت باستماتة كل جميل وصافي، فبلقيس باتت في وكر العجوز بمثابة الغاوية القاتلة، والبشر لا يتجرأون على الحديث عما يجول داخل الكوخ، كل من ينبس ببنت شفة، فإنه يموت بأبشع الصور، في إشارة إلى درجة الخوف القصوى التي يعايشها المجتمع إزاء الفساد الذي ينهشه على كل الصعد والميادين، إذ ينهي الكاتب حليم يوسف روايته بقفلة مؤلمة مبعثة على الدهشة واليأس في آن، لكنها تحرض على التساؤل أيضاً: "باب مغلق على نيران تلتهم بلاداً من تراب أعمى ومن حجارة حزينة، بلاد نعرف عنها الكثير ولم نقل عنها إلا القليل، ولا خيار فيها إلا الفرار أو الموت.ثمة أبواب أخرى كثيرة يمكن فتحها إذا رغبتم في ذلك، وإن لم تجدوا المفاتيح، فبإمكانكم خلعها بلطف أو كسرها إن شئتم، أما أنا فألتمس العفو لأنني سأترككم أمام الباب السابع، أدعوكم للدخول بأنفسكم.. فتفضلوا!"

إن محاولة الروائي السباحة خارج الذات متماهياً مع سحنات المزيج المتعدد وتماشيه معها، جعل الفضاء السردي متخماً بآلام وأمزجة الآخرين وبالتالي مدعاة تساؤل وسبر أكثر، الخروج عن الذات يمثل المهمة الأصعب على مستوى الكتابة الروائية، إذ تجعل الكاتب في منأى عن أن يفرض فكره بشكل مباشر على شخوص روايته، وكأن هؤلاء الشخوص هم سماسرة ومقاولين يعملون في خدمة كاتب مستبد ومتفرد، بل على العكس، يلزم الروائي نفسه منذ بداية العمل الإبداعي على اتباع دور الحكم الذي يدير المباراة التي تتناطح فيه العقول والقلوب والأجساد، وأحياناً تتناغم وتنسجم بقدر تنافرها لإيجاد ذلك الفضاء القائم على الصراع، وهو بمثابة محاكاة لعالم لا روح له، وكذلك تجميع لكل الظواهر والتصرفات السلوكية التي تشكل ردة

فعل على الضـغط الاقتصادي والسـلطوي على الأفراد وبشكل ممنهج، إذن نحن أمام ثنائية الحرية والخوف ضـمن دراما تخلط التخييل بشجون الواقع والأحلام المنتهكة، فالحب على مسـرح سـوبارتو يعتلي منصة الصـليب، ويتعرض لغبن وقهر متلازمين، ففائض الحلم والاسـتغراق بالتأمل يبان في لغة السرد حسب درجة صعودها وهبوطها ببطء، مسـتويات السـرد هنا كانت تواكب الحدث المتخيل المعبر عن قسـوة المواجهة، يبقى البحث عن الكينونة وانتصـار الذات هو ما يشـغل شخوص الرواية على اختلاف معضلاتهم وسحناتهم، حيث تبقى الأشياء الجميلة المتناولة في دائرة الفن هي الأشياء المعتمدة، التي يجدر درسها والتنقيب عن جمالياتها بمعزل عما يطرح في دائرة العقل والتحليل المنطقي.

◆ الخلاصة:

إن محاولـة فهم ما يجول في الطبيعة الإنسـانية على ضـوء رواية سـوبارتو، تكمن في تتبـع تلك التصـرفات ومعرفة دلالاتها ومـا تحويه من إشـارات الغاية منها معرفة وعي المجتمع و أطواره وكذلك الظروف التي حددت طبيعته وأدواره في مسـرح الحياة، لهذا وجدنا الدخول للمعنى والتأويل على ضـوءه مجدياً في سـياق بحثنا عما يجول في دواخـل الأفراد كمحاولة ما لعقد قرائن ومقاربات فلسـفية نفسـية، يمكن من خلالها جعل النقد أكثر فنية، منعاً من تجرده عن مضامين السرد وكذلك للأخذ به إلى مساره المجدي والأنسـب، فمن خلال ذلك يمكن معرفة التاريخ المرتكز على حماقات البشـر عالم السـلطة والاقتصاد وإدارة المنافع وما يطرأ على ذلك من تحول في مسيرة القيم والتعايش بين البشر، الأمر الذي يسهم في زلزلة الأخلاق واتخاذ الغايات المادية مطلباً رحبـاً في الولـوج لحياة المجتمعات البسـيطة التـي تحاول رفع عهود الغبن عن نفسـها عبثاً، وكذلك نجد العنف مكتظاً في ملامح الشـخوص وتنقلاتهم من الريف للمدينة، وكذلـك طريقـة التذمر الواضـحة التي ألزمت الشـخوص على التماهي مع القسـوة،

شـظف العيش، وسوء إدارة الحياة، جعل من الضـياع هاجساً وشللاً مستداماً يصعب الوقـوف بوجهه أو مواجهته، فبداية الرواية بدأت بذلك الجنون والحريق الذي دب في رأس سليمان، ودفع الناس لاستذكار حريق سينما عامودا، ليتحقق ذلك الربط ما بين حريق الذهن وحريق هب ليشوي الأجساد، وكذلك نقد الأساليب التي تعمدت في إيذاء الأحاسيس التي تكاد تنمو.

لقد برز الخداع كمذهب فردي وتنظيمي وشـاع ليغطي علـى أكثر الأعمال مثالية، إلا أن الهدف منه هو تحقيق أكبر قدر ممكن من المنفعة والوصـول إلى السـلطة، لهذا وجد الروائي في وصـف الفرد الحزبي على نحو سلوكي مجسداً فقره الذهني وارتكازه في العمـل علـى جملة من الشـعارات البراقة، لهـذا فلن يتم التخلص مـن طور الأمية السياسية والدهاء الذي يهدف للتلاعب بالعقول إلا عبر سلوك الوصف وإبعاث النفور والإزدراء مـن تلك الطبائع السـلبية، لهذا يـبرز الانتقاد هنا بمظهر الوصـف الفني، ليخاطب الوجدان والذائقة معاً، للتعامل مع الواقع السياسي على نحو أكثر عملية وفهم لمقتضـياته، حيـث يمارس التحايل على حسـاب القيم المزمع الدفـاع عنها، لهذا نجد في تلافيف سـوبارتو وصـفات مفيدة لداء الوهن الروحي والقيمي، ونشدان تلك الثقة المنتهكـة في ميادين العمـل التنظيمي، وعلى نحو عملي وأكثر جلاء، فآفة الفسـاد من عمـل الرواية الواقعية الفنية المتسـمة بالغرابة إلى جانب التأثـير في الأفكار والطبائع للحيلولة دون الوقوع في شرك الفساد السلطوي الذي أخذ يشرعن للخداع بطريقة ما، والذي قاد المجتمع إلى أنفاق الخرافة والجهل والوهم.

إذن يمكن القول أنَّ سـوبارتو تمثيل لإرادة المجتمع ومأساته في ظل القمع المفروض تاريخياً، والذي أربك معالم الحياة النهضوية النقية وجعلها ميداناً للتصارع السلطوي

وقمع الحريات والصمت إزاء النيران التي نهشت جسد المظلومين والبراعم التي لو عاشت بمعزل عن النار المستعرة لاستطاعت ربما أن تغير من قدر سوبارتو، إلا أن الأطفال التهمتهم ألسنة النار التي امتدت لتستوطن قلوب العاشقين وتذيبهم قهراً وذلاً ومعاناة، وقد نجح الروائي في تمثيل الوجع القديم الجديد، ليمهد في سوبارتو لفصل جديد من بروز معالم رواية حقة تضع الإنسان وحريته في سلم أولوياتها وتطلعاتها لحياة أفضل.

خـوف بلا أسنـان، تأملات استقصائية

خوف بلا أسنان، تأملات استقصائية

المرض، الدال على الضعف الذي هو طبيعة البشر مذ سلكوا طرقاً مختلفة لعيش الحيز الزمني من حياتهم لحين معانقة الموت، ليس إلَّا بمثابة قناعة متصلبة عن سلسلة عادات وتقاليد مجتمعية تقود المرء لاستعمال لاشعوره بغية امتصاص الموروث الاجتماعي منذ الطفولة، لأن الطفل يمص ثدي أمه، وفيما بعد إصبعه ولا يكتفي، بل يمص بحدسه وإحساسه مع تقادم نمو فكره ومعتقدات البيئة وسلوكيات المحيطين به، هكذا بدء حليم يوسف بالحديث عن ذلك الخلل النفسي والعضوي وما يقاربهما من صفات وخصائص تخص العقل وطريقة التفكير والقناعات التي تحيط بأهل البلد على نحو مسلم به، كذلك فإن حديثه عن معتقدات بعض الناس في أن طرق التداوي الطبية أحياناً قد لا تجدي، مقارنة مع القناعة السائدة حول طريقة الشيوخ في معالجة الأمرض المستعصية، ومن ثم نظرة المجتمع لذلك تبعاً لأطوار عيشه وتطوره، إذ نجد الرواية مرآة لآلام الفكر والحب، وكذلك متنفساً لطرح الغبار القاتل الناتج عن ذلك التصارع العنيف بين قوى المعرفة والعطالة، إنه بناء منطقي لحياة مكتظة بالفناء وشخوصه وانصهار كلي للعالم الصاخب في بوتقة خيال مدرك لما يحدث، يواكبه في ذلك لسان حال عارف بالعلة، وعامل على إجلاءها بجلاءها وتبيان أسبابها ومسبباتها، لهذا تعمد الرواية الواقعية الحاملة في لبوسها المزدان بالتساؤلات، كل تلك الحياة المختزلة لنمط العيش، وكذلك طبيعة النظام الذي أربك لدى العقل المعرفي ملكاته ومواهبه، لهذا نجد الجهد الإبداعي مواكباً لخلجات المرء ومدركاته على حد سواء، لإسباغ القيمة المثلى للمجابهة، وبيان حقيقته المتطلعة لحياة أكثر عدلاً ورفاهية، تأكيداً للطاقة التي تسعى دون تمييز أو هدف والتي تذهب لخدمة السلطة ومآربها،

حيث نجد المعنى في رحلة الإنسان المعرفية في رحاب الوجود انطلاقاً من جغرافيته التي يحملها في سيماءه وسلوكه ومواقفه وثقافته، تجعلنا نقف أمام حقيقة التطلعات الحثيثة لإيجاد حياة أفضل خالية من العبودية والتسلط الناجمين عن امتصاص الجهل والخوف، وكذلك جملة التقاليد السلطوية في عبادة الجماهير للرعب القائم في حياتها ومؤسساتها، فبخوضنا في رمزية الخوف ما نلبث أن نقع في فخ التساؤلات المفتوحة على احتمالات عدّة تؤرخها الأحداث على طاولتي الزمان والمكان المتلاصقتين، ولعل الخوف يمثل أصل التنازع بين البشر، وذلك التسلط القائم الذي يؤثر سلباً على الحياة بما يحمله المجتمع من معايير وقيم، فما أن يطغى الخوف على الذهن، حتى يتم تحوير القيم عبر تأثير الرعب المفروض على الذائقة العامة، إذ يمثل الخوف بداية التعلق بالوهم، حيث تشعر المجتمعات المسلوبة من حريتها وعقلها بأن الخوف شيء لابد من وجوده، وإنه مرتبط بوجود إله يجب أن يُعبد ويتم تقديم القرابين البشرية كرمى له، وكذلك فإن طاعة الحاكم من طاعته، وإن كل ما يحدث من بلاء وفساد، هو إرادة ذلك الإله السادي، لهذا نجد الخوف قد بات منظومة ناتجة عن تلاقح رغبات السلطوي مع ما يفند أسباب بقاءه حاكماً بنصٍّ مقدس، يتلقفه البسطاء ببراءة ساذجة وعنف ممنهج، لقد امتزج الخوف بالمكان والزمان والتربية والمعرفة التي يتلقاها التلاميذ في المدارس، وقد جعلت الحلوق مكتظة بالأنين والكآبة جراء تقمصها الخوف باحترافية، حتى صارت الثقافة الشعبية والمكتسبة من حقول التربية والتعليم وجهاً لطبيعة المجتمع الذي يتحدث عنه الروائي في هذه الرواية، خوف بلا أسنان، لهذا ظلت الشجاعة في الخطاب الشرق أوسطي مجرد وسيلة لتقمص ماضي متخم بالأكاذيب والاعتزاز الوهمي الذي لا يمكن الاستنجاد به لبناء شجاعة مستمدة من الواقع الشاحب، أي من هذا الحاضر المحاصر بأغلال السلطة وممارساتها التعسفية تجاه المجتمع والأفراد، فأمام هذا الضغط التاريخي والإرث السلطوي، تجد المجتمعات نفسها في حالة من

الاغتراب عن ذواتها، فتمارس عيشها بضرب من الجمود والاتكال والخوف من الغد، ولا يتم ردع الخوف بالسبل الفكرية لغياب الفكر والاكتفاء بالتسليم لحقيقة ما يحدث، فهو قضاء وقدر حسب المفهوم الديني الجاهز لاستقبال الخوف، فالعين التي تبكي من خشية الله وفق التعبير الديني المرمز، هي ذاتها تلك العين التي تبكي لبطش الحاكم ورب العائلة وأستاذ المدرسة، فلا يمكن في الحقيقة فصل التراث الديني عن السلطوي كونهما أداتين عميقتين في سحق التنوير الاجتماعي، لهذا تكتظ جموع الخوف في المسيرات التي تهتف بحياة الرئيس الخالد، ابن الله على الأرض، ذلك الذي أعطاه الإله الملك بقضاءه وقدره وإرادته، لهذا على الناس أبداً المسير هاتفين بحياته، وهم يحملون خوفهم كجينات تدخل أعماقهم وأذهانهم، وهكذا لن يتم بيسر خلع أقفال الخوف، حيث تتحول الشوارع إلى متاهات وسراديب تتنقل عبرها الكتل الآدمية، ولا تبدو الأخلاق الجمعية إلا معايير مقتبسة عن ثنائية الحاكم والمحكوم، على غرار الخالق والمخلوق، لهذا تبدو العقول خاوية سوى من ترهات وأقاويل يتناقلها البسطاء جيلاً تلو الآخر، لتزيين نمط حياتهم الأشبه بتلك الفكاهة السوداء، التي تعتبر عنوان حياتهم وسر فظاظتها وتشاؤميتها، لتغدو أحلام الديمقراطية والانفتاح عن المجتمع مجرد قصص لا تكاد تملأ الأرواح الخاوية سوى من أحلام لا تقيها هاجس الضياع والاغتراب المزمن.

إن تشرب الفرد للخوف هو بمثابة ابتعاده عن الذات واختفاء مظاهر التصالح مع عموم الأشياء التي تخص مزايا الإبداع الفردي في الوجود، لذا يعمل السلطويون على تشبع المجتمع بالخوف منهم، بغية حصر الحياة الاجتماعية في مظاهر الإمتثال لولي النعمة والهتاف له وفداءه بروحه وما شابهه من شعارات.

لقد جعلت النظم الشمولية من الفرد منافقاً ذليلاً، لا يجب أن يتحول لناقد، بل مسلِّم لحقيقة واقعه، مرتهناً لكل لحظة خوف، جاعلاً من نفسه مريداً رديئاً بأبسط

الأحوال، يقبل على ما وضع على طاولته إثر خوف وقمع وتهويم ممنهج، ليكون بذلك مجرد مقاول أو عامل في مصنع الخضوع للأوامر والإلتزامات الباهتة المستمدة من عوائد ثيوقراطية دينية تم تحويرها بما يلائم ذهنية الحزب الإيديولوجية، لتتحول إلى دين شامل مكتظ بالخوف والطاعة القسرية والخوف من الأمن بدل الإطمئنان لوجوده، إذ أن جهاز الأمن هو سلاح مسلط على الجماهير بغية إرهابها، والحد من تطلعها لعالم أفضل تسوده ثقافة الاختلاف وحرية التعبير، فحقيقة النزوع للعصيان والتمرد تدفع بالمرء للتساؤل عن سر ارتياده لجغرافيا الخوف المشتقة عن عوالم تعج بالعصاب والسادية، إذ أنهما يوهنان الذات، يضعفانها على الدوام، حيث لا إرادة حرة في ظل الرهبة، ولا يكاد المرء يدخر شيئاً من سعة الفهم إزاء الإقصاء للحياة الطبيعية، حيث يسهم الموت في الخمول على الصعيدين الروحي والذهني، فينعدم الإدراك باختفاء الحرية والتعبير عن الرأي، تتعطل مدركات ومواهب المعرفي، إذ يجد نفسه في بوتقة حصار مطبق، لتتجسد الأوهام والتقاليد المحبطة في ذوات الأفراد، ينتج الخوف ذلك العنف وجلد الذات إزاء خيبات وأوجاع متراكمة، يفرز الخوف أيضاً الحرب الأهلية، فالأفراد ينفسون عن خوفهم من السلطة عبر شجارهم واحتقانهم ضد بعضهم البعض، يجوعون ولا يجدون غير العنف وسيلة لإفراغ طاقة الخوف الكامنة في دواخلهم، لنجد أن ذلك كله مدعاة تفكر بحقيقة السلطة التي تعمل ليل نهار لتكبيل مجتمعاتها بأشكال التهويم والإخصاء المعرفي.

ثمة علاقة بين الأب العنيف ورجل الأمن العنيف في أنهما يعملان تحت ظل القائد الإله، الذي يلهث خلفه قطيع آدمي خائف، يزيف طبائعه تبعاً لمشيئة منظومة القمع، تلك المنظومة التي بنت امبراطوريتها الإرهابية من النصوص الدينية المقدسة، والتي شرعنت مكوثها ووصايتها على شعوب لا تنفك عن ممارسة خضوعها بضرب من الاتكال والجمود وبصك مقدس لا مجال للشك فيه، نعم حيث للخوف رمزية كبيرة

عظيمة التأثير على الحياة الدقيقة للمجتمع وأطوار أفرادها، إنها أساس كل انحلال روحي أو فكري، ولعله أيضاً نافذة مفتوحة لاستكشاف كل من هب ودب من مآسي ونكبات، حيث يولد من بطن الخوف ذلك التملق الذي بات من شعائر أمم القضاء والقدر، إنها مجتمعات استساغت الخضوع وثقافة القطيع ولعق أحذية القادة والأولياء والمتصوفين أصحاب البركات، وتشربت أدبيات القائد الملهم الذي يفكر بالنيابة عن الغالبية المطأطئة، لهذا بات من الشائك استئصال هذا الورم النفسي الذي تأصل وساعدت النصوص المقدسة على رسوخه وتوطيده عميقاً، إذ للمقدس دوراً نفسياً بالغ الأثر في ذائقة الفرد، والتي عليها يبنى الأساس الحقيقي لقيام السلطة القمعية الفاسدة، إذ حينما تتشغل المعدة مع العقل في البحث عن لقمة العيش كل يوم، لا يتراءى في ذهن اللاهث نحو الشبع إلا إرضاء من بيده مفاتيح كل شيء وهو على كل شيء قدير، هذا من ناحية، ويرادفها على الطرف الآخر سلطة تحتكر الجهد والعمل، وعلى اللاهث إبداء كل مظاهر التملق والصمت حتى يتيسر له الحد الأدنى من الحياة الجيدة، ومن هنا تتشكل أولى لبنات الخوف، ولعل ميلنا إلى التحليل وإرجاع الأسباب لمسبباتها هو ميلنا لتحسين طرائق توجيه التلقي نحو الأفضل، بغية الكشف عن كل ما يتم إخفاءه تحت مسميات مثالية باطلة، والمقصد من ذلك إسباغ دلالات إيجابية على الخوف والسلطة، أو محاولة الدفاع عن الإله الواحد المرادف للقائد الواحد والذي تنتشر صوره في كل مكان، ويخرج الناس حاملين صوره ليعبروا عن حبهم الشعاراتي له، إن كل من يحاول تحصين هذه التقاليد الشمولية الميثولوجية في أصلها، يعمل على تبرير الخوف والقداسة وتجميله على نحو مكشوف وباهت، فلا يمكن إنشاء فلسفة فوق أنقاض نسق مقدس يعتمد على الخضوع والتسليم بفكر القائد الفيلسوف، إذ يستحيل أن يكون السلطوي فيلسوفاً ناجحاً، أو أن يكون الفيلسوف سلطوياً حقيقياً، مازال ثمة شرخ عميق بين رؤى الفلاسفة وأصحاب السلطة والمنظرين بخصوصها، حيث لم

ترقى تنظيراتهم سوى عن كونها مسوغات تحايلية هدفها تجديد ثقافة القطيع والحد مـن بروز الإنسـان المعرفي المتفوق، حيث نشـأ الخوف في كنف الجهـل، واعتبر مقوماً حقيقياً من مقومات نشـر العنف والقداسة المتشـبعة بالدم، ليسطر بسحنته الرمادية البؤس الموغل في الوجود.

لا تخلو الرواية من إشـارات مهمة لمواكبة القلق وملابسـاته في النفوس التي تقتات الحياة على نحو تأملي، لماذا يخاف الإنسان في ظل الوجود المتشعب والذاهب به للترهل والفناء؟ ولماذا يضـع البشـر العراقيل الجمة في طريق بعضـهم البعض للحيلولة دون التمتع المنصـف بمتع ولذائذ الحياة؟ فإلى جانب العدم الذي هو مصـير كل الأحياء، يقف الإنسان في وجه المقابل منه دون وازع معرفي، وإنما قائم على إلغاء الآخر لتقديم الذات، سفك الدم بمثابة تعجيل قدوم العدم، ليقبض على كل متحرك، ولعل الفوضى الناجمـة عـن العنف هو ما يخيف أكثر، وسـط عالم أباح المـوت في كل مناحي حياته، فالقمـع وقتل الحب وهـدم العلاقات الطبيعية وتلويث الطبيعـة عبر الحرب، كل ذلك جعـل الخوف الأكثر قرباً من الإنسـان وبقيـة الكائنات، حيث يتحلل الجمال المجسـد في الإنسـان إلى وهم ودخان ناجم عن الخروقات الكبيرة للإنسـان الجشـع والأناني، وإضفاء مسوغات مقدسة واهية على طبيعة حربه ضد الآخرين.

لقد برزت المحن العديدة بوجه المجتمعات الساعية لحريتها، وسط تابوهات كثيرة شـلت حركتها مما تعاظم قلقها تجاه مستقبلها، هو ذا المستقبل قد أفصح عن وجهه، وما لبث أن مر المجتمع بفوضى كبيرة جراء ذلك العسف والجور المتراكم، والذي أنشأ داخل المقموع ثورة هائلة ضد ما يشبه العدم والموت، انها بلاد تعيش في دوامة الأحلام والآمال التي لا تنضب، كونها محط مواجهة وإصرار ضد تلك المظلومية التاريخية التي يعيشـها الشعب الكردي في أجزاء وطنه المحتلة، لهذا كان هذا الصمود والعناد بمثابة انتصـار على مسـتوى الأفكار والآمـال، وبذلك يمثل تجاوزاً على الحياة التي يعيشـها

الإنسان الكردي على الهامش، حيث الوطن في رواية خوف بلا أسنان هو معنى الحياة المنتصرة على مفاهيم الموت والتلاشي، دعت حاجة المرء للتمسك بجذوره كنتيجة طبيعية عن شعوره بالغبن والظلم، وكذلك فهذه الحاجة تعد بمثابة البنية القويمة التي ينشدها الإنسان الطبيعي في زمن الحروب والإقصاء المفروض، إن استمرار النظم القمعية في سلوكها إزاء شعوبها، هو بمثابة الموت متعدد الأشكال، والذي يتم ممارسته لمزيد من الاحتقان والتحلل والفوضى المتراكمة، فحينما تتحول الحياة ميداناً لممارسة الموت، تتعطل المدارك والمواهب الساعية لتمتين العلائق الطبيعية، تتحول المؤسسات والنظم إلى سلاح ضد الشعوب، حيث يكتظ الحدث الزماني والمكاني بأصناف الإبادات الثقافية والاجتماعية، وتصبح الحياة أشبه بموت طبيعي، هاجس لا ينفك عن تفاصيل عيشنا وتوترنا، يرافقه الإعلام الذي يسوق الوجع والعنف والدم، لتتحول الحياة هكذا لمشاهد عن الموت، تتموضع في كل ركن من أركان الحياة لتعبر عن نفسها بمظاهر الديكتاتورية والإقصاء وقمع الأقليات والحروب الدينية والتشرذم المجتمعي، فمن المفيد في هذا الصدد معرفة أوجه الموت المقدسة في مفهوم النظم الاستبدادية القمعية، إنهم يفرضون العنف على نحو ممنهج، عدا عن شبح الخوف الوجودي لدى الإنسان، ثمة خوف سياسي اجتماعي نفسي يستوطن تفاصيل الحياة، لا يمكن القفز فوقه أو تجاهله.

إن تطرّق الروائي إلى الخوف عبر بوابة الشرق الأوسط وبالتحديد كردستان، تعتبر نقطة جوهرية في صميم هذا العمل الروائي الذي يمكن وصفه بالعمل الوجودي الذي يعكس القلق الحقيقي التاريخي المتمخض عن صراعات وويلات جمَّة مرَّت بها هذه الرقعة الجغرافية على خشبة مسرح التاريخ، فالنظم المستبدة تقنعت بإرث نشر الخوف والموت، حتى باتت على ماهي عليه الآن كامتداد لعصور وحقب، وما كردستان المحتلة من قبل هذه النظم إلا رمزاً تنويرياً لاسترداد ثقافة أمة وذاكرة شعب من

مخالـب الانصـهار والإبـادة، ورمـز مقاومة تعبر عن وجـود أمم تحاول نيـل حريتها بالدم والحديد، لهذا تعاين رواية خوف بلا أسـنان هذه المسـألة الإشـكالية على نحو إنسـاني فكري لا يخلو من ملامسـة الشـجون والإفصـاح عن مرارة الظلم والمعاناة، حيث يبدو الخوف في أحد صوره مقروناً بالإجحاف والظلم جراء سلب ونهب الأراضي الكردسـتانية في سـوريا باسم الإصـلاح الزراعي، والذي اعتبر بمثابة بؤس تم فرضه من دولة قمعية شـوفينية اعتمدت على صـهر وإذابة كل المكونـات العرقية في بوتقتها، فهـذا العبث بالحق ووضـع اليد علـى الملكية والحياة الاجتماعية، مثَّـل أكبر حالة قهر في غربي كردسـتان: (كانوا يتجولون في الشـوارع بزعيقهم وشـعاراتهم يطلبون الموت للكـرد وقادتهم، هل جاؤوا للعب مباراة أم لخوض حرب؟! تعلو قامة الأسـئلة، جداول الحقـد خلفـت وراءها من دير الزور وحتى قامشـلو أنهاراً من العـداء، كانوا يتجولون داخـل المدينة، ويطلبـون من أهالي قامشـلو تحرير فلوجـة العراقية مـن الأمريكان، تتدحرج الأسـئلة مع هذه الصـرخات، هل يحملون كرة أم قنابل؟.. هل هذا فريق كرة قـدم أم فريق قتل؟ كان الزمن في ذلك اليوم يسـيل من تحت أرجل هذه المنطقة كماء عكر، امتلأ إسـتاد الجهاد بالجمهور منذ ما بعد الظهيرة. في أحد جانبي الملعب آلاف الضـيوف الذين ملـؤوا جيوبهم بالحجارة، يالهؤلاء الضـيوف، بـدل أن يحملوا وروداً وأعلام فريقهم، حملوا العصـي والأسلحة وصور ديكتاتور مهزوم، يهددون مضيفيهم في عقـر دارهم، يشـتمونهم ويحتقرونهم، بينما كنت أفكر في هذا الحقد والبغضـاء، ارتسـم مرة أخرى أمام عيني سـايكس الإنكليزي وبيكو الفرنسـي، وكيف قسموا هذه الأوطان ببضعة خطوط، وكيف تحولت بعد رحيلهم إلى حدود مقدسة لدى سكان هذه البلدان! يبنون دساتيرهم وشرفهم وكرامتهم ومبادئهم على حماية هذه الحدود.).

تنقلنـا هـذه العبـارات إلى تلك الأحداث الداميـة التي وقعـت في 12 مارس آذار 2004، في مدينة قامشـلو، إثر هذه الانتفاضـة تم قتل العشـرات من الكرد،حيث

تراءى للإنسان الكردي تلك المواطنة المزيفة وذلك الحقد الدفين الذي تتعامل به المنظومة الشوفينة العنصرية ضدهم، وكذلك تيقن حجم ما يحاك من احتقان بين تلك المكونات، والتي كانت من ثمرات الآلة القمعية للنظام الحاكم والتي كان لها الدور الأبرز في تفكك المجتمع وعدم تجانسه، فمئات الجرحى وآلاف المعتقلين يمثلون حجم الخوف المعاش في زنازين هذا الوطن الذي رسمه سايكس الإنكليزي وبيكو الفرنسي، لهذا أمست هذه الرواية بمثابة رسول لمناهضة الخوف، ذلك الذي غطى بالكراهية أديم الأرض والسماء، فالسلطة القامعة رسخت سلوكياتها في أذهان شعوبها، كي لا تتحرك الأخيرة ضدها، فكان الشعب في غالبه أدوات بيد هذه السلطة تؤلبها على بعضها كيفما تشاء ومتى تشاء، وقد حدث أن هبت الخراف من حظائرها ظناً منها أنها ستتغلب على هذا القمع، فإذ برصاصها ينقلب عليها، وإذ بها تهيئ الأرضية لسلطة أكثر حلكة وظلام. وقد أدرك حليم يوسف مخاطر الخوف من تدميره لملكات العقل الذهنية لدى الناس، إذ تجعلها أشبه بألواح رخام متكسرة، وتهب أبداً الأرضية الخصبة لبروز الديكتاتوريات، إذ يجعل الخوف من الثائر ديكتاتوراً، ومن الأديب مريداً أحمقاً، ومن المجتمع تماثيلاً محطمة، لهذا فرواية خوف بلا أسنان تحمل في طياتها العديد من التساؤلات والتجسيدات الرمزية لماهية الخوف وجذوره وأثره على الفكر والجمال ومناحي الحياة كافة، إنه بيان لعداء الحياة الجديدة، أو التحرر من سطوة الخرافة الجالبة للعنف من أوكار البدائية، فما جعل المجتمع يعيش الفوضى هو تعسف السلطة وجورها إزاءه، فالألم والمعاناة والفقد هي مبادئ المجتمعات المنكوبة في ظل نظام قمعي ألغى الإنصاف والعدل، حيث بات المستقبل على ضوء ذلك مجهولاً، إنه الجحيم السماوي المطبق في الواقع والموت بأسوأ صوره.

◆ منظور الرواية للخوف والإبادة الثقافيَّة:

ومن منظور آخر، وزاويةِ نظرٍ أخرى، شدّد حليم يوسف في نظرته للإبادة الثقافية، حيث بدأ ينبش في جذور الإشكال والتساؤل حوله لأجل بث روح الخصائص والمقومات التي قد تنهض من خلالها أمم الاضطهاد السياسي والثقافي، فما الاعتقال والتعذيب والتنكيل بالجماهير إلا شكل متمم للإبادة الثقافية، فالقمع السياسي يعمل جنباً إلى جنب مع آليات الصهر والتذويب والتي رسخت فيما بعد لمعارك الصراع الأهلي، لقد جعل الاستبداد من الخوف الإله الحاكم على الأرض والمتجسد في شخص القادة والتماثيل التي تنصب لهم في كل ركن، وقد أوجد الشعب لروحه الساعية للخلاص تلك القوة لدحر هذا الخوف والقهر الذي جسده العمل الروائي: „ هذا التمثال المبعث للخوف في النفوس قبل الاقتراب منه، اليوم التمَّ الناس عليه بالعشرات، فرَّ الحارس وتركه تحت رحمة رهط البشر الذين قسى الغضب أكبادهم، لم يسقط التمثال أمام ضربات الحجارة والأيدي والأحذية، في الأسفل ثمة أساسُ مربَّع الهيئة من الأسمنت المسلَّح، يعلوه تمثال الرئيس الخالد ملوِّحاً بيده في هيئة تحيَّة نازيَّة، وقف الناس، الصغار، الكبار، النساء، الرجال، الشيوخ والعجائز مندهشين بانتظار سقوط التمثال، بانتظار بعض الأشخاص الواثقين من أنفسهم لتحطيم هذا الخوف الكامن في دواخلهم، لم تنفع محاولاتهم في إسقاط التمثال، هرع بعضهم باتجاه أحد أعمدة الكهرباء، والذي يزيد طوله عن ثلاثة أمتار، اقتلعوا العمود وضربوا به من الخلف مؤخرة التمثال الإسمنتي، حركوه قليلاً لكنه أبى أن يسقط، امتطى رجل في مقتبل العمر دراجته القديمة متجهاً إلى البيت وأحضر معولاً كبيراً حفر به تحت أقدام التمثال، وبدأ آخر بضربه بمطرقة، وآخر بفأس، جرحوا الإسمنت، ما بين عشرين وثلاثين شخصاً حملوا العمود وهزوه معاً، واحد اثنان ثلاثة، يالله! يجب أن يسقط

هـذه المـرة! باجتماع قوة العمـود والمعول والمطرقـة والفأس وقوة الزنـود الكثيرة التي صبت جام غضـبها على هذا الاسمنت الشبيه بإله ميت، تهاوى تمثال الرئيس الخالد الميت منذ أربع سنوات."

إنَّ تجسـيد إرادة الثقافة الخامة التي تأبى العيش على الهامش وترفض الانصهار والانطماس جلية في ردع الخوف المتمثل بالتمثال ومقاومة الإبادة المنهجة التي تشـمل الحيـاة الاجتماعية والسياسـية، حيث ينظر لتلك الشـعوب المتمكسـة بهويتها كخطر محدّق يعيق توسعها وهيمنتها على مفاصل الدولة بمؤسساتها على نحو شامل، فتدمير التمثال دالٌّ على كسر رهبة الخوف والقمع السلطوي ومتابعة هذا الصراع لما تتضمنه مـن قيم تتلخص في تشـبث الأحرار بالحياة ضـد قوى تعتاش على تدمـير كل بناء أو مكتسـب، حيث تركزت وظيفتها على الهدم ونشـر الرهبة بـين النفوس، لتأتي النقطة الأبرز وهي التقسـيم المرعب لشـعوب الشـرق الأوسـط عرقياً ودينياً وطائفياً والذي كشف الستار عن مجموعة حروب متوالية تخدم قوى النفوذ والربح، حيث ضياع الهوية ومحاربة الإنسـان في انتمـاءه أو لغته واعتقاده، مثّل ذلك الخـوف، الإله على الأرض، وكذلك نجد موسـى وليلى في تقاربها وتنافرهما الوجداني يشخصـان لنا بطريقة ما أبعـاد هذا الاغـتراب والخوف في اقترابهما من الحلم كمبعث تحفيزي على الصـمود بوجه التلاشـي وبؤس الحياة، فالخيبات والآلام تبدو واقعاً متربِّصاً في أذهان العامة، وموسى يسبح في حلم مكتظ بالألم، تقابلها إرادة تتجاسر على الخوف، وتحاول التغلب عليـه عنوة، حيث نجده يفكـر بليلى التي تزوجت من ابن عمها كسـائر الخائفات من النسـاء، واللواتي يشـغلن ذاكرة الإنسـان الذي لا يملك سـوى التأمل والشرود تعبيراً عـن بؤس لا يمكن دفعه أو فعل شـيء إزاءه: "في بلد كهـذا البلد الذي يغمض الأطفال أعينهم على الكذب ويستيقظون على الكذب، فإن تدريس التاريخ يعتبر بحد ذاته نوعاً من التعذيب الشـديد. في تلك الأثناء، سُـمع صـوت غريب ناحية الباب، خاف موسى،

خطر على بالـه المخابرات. كثرت الإعتقالات في تلك الأيام، حالة الطوارئ قائمة منذ أكثر من أربعين سـنة، بإمكانهم مداهمتك في أي وقت، وفي أي مكان، وأخذك ورميك في الحجرات المظلمة، سمع صوت من ثقب المفتاح

ارتبك موسى:

الباب ليس مقفلاً، لم يحاولون فتح الباب للدخول؟

انتشرت في جسده رعشة خوف"

يشـير الروائـي إلى دور السـلطة في تغييب عقل الإنسـان منذ طفولتـه عبر تلفيق التاريـخ والأمجـاد الوهميـة الواهنة، التي جعلت عقـول الأطفال أشـبه بذاكرة جوال فارغـة يتم ملئها بصـنوف الصـور والأفـلام الإباحية، وهنـا نعني أن العقـول تتلقى منذ بداية دخولها المدرسـة تعاليم السـلطة الشـمولية الأبوية المتمثلة بتمجيد الرئيس والهتاف لحياته والاسـتعداد للتضحية في سبيل بقاءه رمزاً لتقاليد العذاب والاستبداد والفسـاد، فالخوف من الاعتقـال والاغتيال وانتهاك رجال الأمن، مثل جل ما يخشـاه الإنسـان الشرق أوسـطي في الدولة أو الجغرافيا التي ينتمي إليها، هكذا يخرج الجيل من قاعة المدارس إلى الحياة مخصي الذهن، لا يجد سوى الخوف من المستقبل رابطة تصـله بالحياة، فحقيقـة التمثال السـاقط في "عامودا" هي تعبير عن قسـوة الكفاح ومشقته ضـد الخوف، وتحديه استناداً لمفهوم الحق، ورغبة في استثماره كقوة مضادة ضـد محاولات الطمس والإنكار، لهذا جسـد الكاتب آلية الدفاع التي تبنتها الجماهير الغاضبة في إجلاء رهبتها أولاً، دون التفكير في نتائج ما بعد هدم التمثال، وهكذا تمكن الناس من كسـر الخوف بل والسـخرية منه، تجد الجميع قد تقاسم أدوار المشاركة في هدم الخوف ورسـم معالم حياة قائمة على الانتفاضـة على السـلطة القومو إسلامية، حيـث تحولت القناعات المتكلسـة إلى وثن يرمـز للرهبة، وكسـر إرادة الجماهير من خلال محاربة الأفكار النهضـوية، ولعل تحويل حياة الشـباب إلى نمط خاوٍ يرتكز على

الفراغ، جعلت السـلطة تتغـول أكثر من نافـذة البطالة واستشـراء التقاليد والعادات التي تحكمت بليلى وجعلت علاقتها مع موسـى موءودة، حيث موسـى يمثل ذلك الشاب المقبل على حياة متشبعة بالرداءة والإحباط، ولحظة استدعاءه إلى فرع فلسطين سيء الصـيت، مثّل بداية المأساة وحدوث الصراع بينه والعالم الخارجي، هذا العالم المشبع بتقاليد العنف والاسـتجواب، لذا وظف الروائي هنا تجسـيد طريقة استجواب موسى من قبل الفرع ليبين أشـكال الخوف والرهبة في تلك الدائرة، وكذلك مشـهد احتباس البول في متانة سـليمان وذهابه للمرحاض بعد طـول انتظار وإلحاح ، يمثل ذلك الألم الطاغي في جوانب الحياة الدقيقة بتفاصيلها، حيث الامتثال المطلق للسلطة والارتهان الأعمـى لهـا، ذلك فقـط يجعلك في حالة من الهـدوء في ظل التكالـب على الجماهير وجعلها ككتل رخامية، حيث تخولت رؤوس المناوبين في ذلك الفرع المشـؤوم إلى رؤوس جرذان دلالة على افتقادهم للطبيعة الإنسانية، فهم أدوات لبناء ذهنية القطيع، حيث يتجسـدون على هيئة مرض مزمن ينتقل إلى المجتمع عبر زرع الخوف والرهبة، فرجل الأمن يرمز للرعب والخطر، حيث يعتبر الخوف بوصـفه منظومة ذهنية متجسـدة في الذهن والفكر، ناهيك من كونه يد تبطش بأدوات تعذيب وما شابه، لهذا كان خوفاً بلا أسنان، ومع ذلك فقط استطاع ابتلاع الإنسان، نمى لهذا الخوف أيدي ومخالب حادة، وكذلك تولدت عنه منظومة التقنع بالقدر، وبأن الملك لله يؤتيه من يشاء.

إن غياب التسـامح بين الشعوب هو نتيجة غياب العدالة والانصاف، وكذلك غياب الثقـة بين الـذات والآخر في ظل منظومة الخـوف التي تجـذرت في النفوس أكثر مما هي عليه في أعمال وممارسـات السـلطة الشمولية، لهذا نجد القلق المستقبلي، وهنا لا بد لنا من أن نتسـاءل ما أثر الأزمات العالمية والسياسـية على طبيعة المجتمع، أفكاره، قناعاته، تحولاته، وكذلك أثر هذا النزاع على منظومته الفكرية والعقائدية، إننا أمام

هكذا تساؤلات عصية ما نلبث أن نمعن التأمل في هذه الظواهر الاجتماعية والحالات النفسية التي تجيد الرواية تناولها لكونها متعلقة بالنفس الإنسانية.

◆ الأنساق الدرامية في العمل:

تتميَّز الرواية بأنساقها الدرامية المتعدّدة من عرض الحالات وإبراز المشاهد القاتمة للطبائع الوجدانيَّة المتخمة بالوجع والاغتراب، الأخير الذي بات لسان حال شخصية (موسى) الباحث عن الأمان وعن طريقة ما للتخلص من هذا التشنج النفسي الذي يحاصره، لقد تمت القطيعة بينه وبين تلك الأرض التي احتوته بكل ما فيها إثر رغبته المتوالية في أن يجد قواسم مشتركة بينه وبين تلك الأرض بلا جدوى، فالألم كبير، وهو مجبر على ترك هذا الوطن الذي بات أشبه بسجنٍ مفتوح، لهذا نجده يجسد بانوراما أحاسيسه وبضع فواجع تلاصق حياته ولا تبرح مخيلته، لهذا نجد الكاتب قد لامس الحقيقة الدرامية التي منبعها الألم والتأثير على المتلقي بنبرة عاطفية لا تخلو من محاكاة الإدراك الموضوعي، لهذا بات الخروج من هذا الوطن بمثابة المفتاح للحياة الجديدة، أو ربما قدرة أكيدة وجديدة للحياة الأفضل والتي ينشدها كل مواطن يعيش غربته وألمه، وهو يجد أن كل من حوله من بشر وحجر غرباء عنه، لهذا يجد موسى أمام رمزية البول وهو بمثابة ذلك الاحتباس الذي ينشد الراحة بعد إدرار البول خارج المثانة، والتي ينتج عنها أمان مفتقد، ولعل ذلك هو بمثابة التشنج واحتباس المشاعر والرغبات في ظل منظومة تعمل على إقصاء الأحلام والتطلعات ومحاولة انتشالها من ذاكرة وذائقة الإنسان، هذا البلد الذي يحتوي على مختلف أشكال الخسارة والوجع.

إن التغيير الرومانسي الذي تتطلع إليه الرواية من منظور المجتمع يتوجه لمحاكاة الألم بطرائق نقدية تعتمد إثارة اللواعج والمكامن النفسية والفكرية لدى المتلقي، وهذا اللون يثبت جدواه في هذه الرواية الحاملة في طياتها شكلاً دراميّاً نقديَّاً ينطوي على ثورة روحية اعتمد الروائي على بثها لتحقيق المضامين التالية:

* تجسيد المأساة وجعلها وسيلة ضروية لإنعاش الرواية وإخراجها من قيود الرتابة والمباشرة لإشراك المتلقي في التفكير، وكذلك بالحدث واستخلاص معان منها، ولا سيما فيما يتعلق بقضية الانتماء والاغتراب لما لها من مدلولات فلسفية تلامس العقل الباطن.

*البحث في إشكالية الحرية المقرونة برغبة الشخصية الرئيسية في الرواية في تصدر المشهد والبحث الدؤوب عن الخلاص على الرغم من الصعوبات والعوائق الجمة التي تعترضه وجدانياً بسبب التقاليد الأبوية، وسياسياً بسبب سياسة الإبادة الثقافية والإقصاء الممارس من لدُن السلطة.

* كشف الغموض حول بعض الحقائق التي تتصل بالنفسية الاجتماعية ومدى محاولات السلطة في التحكم فيها عبر الخوف وزرع الرهبة في النفوس من خلال إدخالها في حالة فوضى شاملة تتركز أهدافها في الإبقاء على إرث القمع والعسف وكبح جماح الأفراد الساعين إلى التغيير بكل قواهم المتاحة.

*التحكم في آليات ووسائل التواصل بين المجتمع عبر جعل الإعلام الرسمي والمحلي بالتواطؤ مع المناهج المدرسية لجعلها أرضية سهلة لقمع جدة الأفكار، بغية استنزاف طاقات الأجيال وتعليبها على نحو مركز، وحصرها في نطاق خوفها من الغد.

حالة العجز التي يرافقها شعور الانتفاضة من واقع هابط بكل المقاييس ناهيك عن توسع الاغتراب وحالات الهروب من ذلك الوطن المتجسِّد في تمثال القائد الرمز الذي يضفي على الحياة طابعاً معتماً ضيق الأفق، لهذا نجد ذلك التوجه باتجاه الانتفاضة الجماهيرية كحالة اضطرارية أو بين فعل التفكير بالهجرة والابتعاد عن ذلك الوطن، تفادياً للإعتقال أو الاغتيال المنهج بحق النخب التنويرية العاملة في ميدان التغيير، حيث بقاء المجتمع في حالة خوف ورهبة مثّل ذلك الوجه المبشر باندثار قيمها ومن ثم زوالها، الأمر الذي يسهل تفككها وانحلالها، ويسهم أيضاً في نزوحها عبر موجات الحروب التي تنهال عليها فيما بعد، نتيجة عجز منظومتها الحاكمة

عن استيعاب حركتها واحتياجاتها، فالعمل الروائي يبين إحباط وتذمر أهم أبطال روايته من حالة الوطن المكتظ بالخوف والحرمان والقلق، ليشير إلى ذلك العجز العام، وكذلك عن خطر تفجره وانحراف بوصلة الحياة نحو الفوضى والمزيد من التوتر والعنف، لهذا فإن أهم غايات السلطات هو استنزاف مجتمعاتها، ما يسهل التحكم بها، مما ينتج عن ذلك زوالها بطريقة ما، وهو أيضاً هدف الثقافة الوافدة أو الدخيلة في امتصاص قيم المجتمع واستبدالها بقيم أخرى تساعد في إزالتها مع مرور الزمن، نجد توتنو، موسى في رواية خوف بلا أسنان، يعملان جاهدين على المقاومة والتمسك بالجذور وحقيقة صلابتها أمام واقع التقسيم والتجزئة والإبادة الثقافية المفروضة، يبين الروائي ردة الفعل تلك، قياساً إلى القمع الجاري، وبذهنية الاستبداد القائمة على إخافة الناس وتحويلها مع الوقت لقوالب جامدة لا حياة وروح فيها، حيث تعمل المنظومة الشمولية على خلق حالة مجتمع نمطي متكلس قامع لبعضه الآخر، في حين ينبثق من صلب السلطة والمجتمع معاً قوة مضادة تعمل لدحض هذه الموارية السلطوية القائمة على استنساخ الخوف بأشكاله الوهمية في مؤسسات المجتمع المتعددة، لنكشف تيارين متصارعين ومتمايزين بنوعية تحركهما، والحال هذه فإنّ السلطة بكل قواها وأحابيلها لن تستطيع تماماً أن تسد كافة الثغرات التي تؤدي إلى مطلب التغيير والانفتاح على الحاضر بتغيراته المستمرة والفجائية، فالمجتمع معروف على أنّه الحاضنة الرحبة لكافة الأفكار والمتناقضات، والتي بدورها ألوان تتآلف نحو مطلب الرفاهية وتغيير السلطة، وتتنافر عندما تتدخل الأخيرة في سبل حياتها، وذلك حينما تدس أفكار الإقصاء وطمس الهويات القومية للأقليات.

◆ مواجهة الرواية لوهم المجتمع:

هل نحن أمام وهم المجتمع حينما يتجسد الفرد في رواية خوف بلا أسنان ويتجلى وحيداً خائراً من شدة الوجع والألم والعزلة والروح التي تختنق؟ هل بإمكاننا القول

أن المجتمع هو وهم يتربع في عقولنا؟ هل له وجودية في الرواية؟ لاسيما وكون الفرد هنا يستمد قوته من أنانية البعض أحياناً وسخف الإنقياد لمفهوم الرابطة الجمعية أحياناً أخرى، لهذا نجد المعالم الفردية تطفح بالكثير من الأشياء التي يقف المرء على النقيض معها، وإن رأينا المجتمع كقوة سنجده من خلال الإنسان الفرد، حيث يستحيل أن نجده مجسماً على هيئة أفراد مختلفي الأعمار أو الإتجاهات في خضم صراعات تتوالد ولا تتوقف، لهذا نجد أن الخيوط المتشابكة والمتنافرة في الحياة هي التي لا يمكن قولبتها في إطار إيديولوجية محددة، كونها تدخل في إطار بث المزاعم وإخفاء النوايا، لأن غاية الصراعات ومبدأ المجتمع مؤسس على فكرة الاستحواذ والهيمنة التي تقوم بها السلطة المتنفذة لإبعاد خصومها، فالمجتمع ليس سوى إفراز لما نسميه بالسلطة، وما تذمر المنبوذين إلا مسعى غير مباشر لسلطة مضادة، حيث يتجسد المجتمع كونه مضخة انتاج للأزمات والسلطات حسب مدى وعيه وتجاربه وقدرته على الاندماج بالجوار، عوضاً عن أن يظل وقوداً تاريخياً لحروب وجشع المتنفذين، فقيم المجتمع وثقافته تضمحل بفعل عوامل الإبادة وممارسة إلغاء أدوار أفراده المعرفيين القادرين على إخراج المجتمع من طور الأزمات إلى طور الإنعاش والاندماج النهضوي بثقافات الجوار، وكذلك من خلال الإعلام والتبادل المعرفي يمكن القضاء على الاحتكار الربحي الذي يحاول دوماً جعل المجتمع مضخة تجند الأفراد لصالح نوايا المتحكمين فوقياً بكل شيء، هل يمكننا أن نقول أن ثمة مجتمعين يتصارعان ضد بعضهما على الدوام وهما مجتمع السلطة والذي يمثل الخلية الصغرى المتحكمة بالمجتمع الأكبر وهو الأفراد والفئات التي تعيش وتتعايش، كما أنها تتنافر وتتنابذ وفق تأثيرات المجتمع الفوقي السلطوي على تقاليد وسير الفئات الإجتماعية بشكل ممنهج؟ هل يصح تسمية الفئة الحاكمة بالمجتمع الصغير والذي يتصف بتأثيراته المتجلية في سطوته ويده الطولى المتحكمة اليوم بالإعلام والجيش والاستخبارات؟ فلنفترض صحَّة الأمر، إذن هذا

يعني أن التصـارع يمثل حقيقة الوجود، ولا جمال في حقيقة هذا الصـراع سـوى كونه استنزافاً لطاقات الإنسان والوجود معاً.

◆ ثنائية الخوف والموت في الرواية:

بتسـليطنا الضـوء على ثنائية الخوف والمـوت عبر نقدنا للسـلطة القامعة، يمكننا معرفة مسوغات أدلجته بغية تجنيد الجماهير وتحويلها لأدوات تمجيد السلطة وتمويه نواياها، كذلك فإن لتهويمها من خلال إثارة أحلامها ودغدغة مشاعرها أثر في ترسيخ الخـوف والموت، فتحـول الجماهير عن مهمتها الطبيعية، وهي نقد السـلطة إلى مهمة تمجيد السلطة، هي أولى المهام التي نجحت السلطات الوليدة عما سبقتها في تحقيقه، حيث سـقط الموت عن كونه حدث ينتهي بموت شـخص، وإنما لهذا الموت الذي نتحدث عنه ظاهرة تتعلق بسـبات الناس، وسرقة أحلامهم وتطلعاتهم للرفاهية وتحقيق عالم أفضل ومجتمع معرفي، هنا يتبادر إلى الذهن الكردي اتفاقية سايكس-بيكو التي أثَّرت سـلباً على تلك الذهنيَّة، إذ سـاهمت في إيجاد الأرضـية المناسبة لسلطات لا تملك في قاموسـها سـوى الحرب وطمس الجذور وفعل الإبادات والهويات وتأليب بعضـها على بعض، وكذلك اسـتخدام الموت والخوف كوسـيلتين لتأصـيل بقاءها على حساب دمار المجتمع وتشتيت أفراده وتصفيتهم، إن أثر الاتفاقيات الدولية التي تمخضت عن فترة الحربـين العالميتـين سـاهمتا إلى حد كبير في إشـعال نار حروب الأهلية التي تعيشـها مجتمعات الشرق الأوسط، لهذا فإن إعادة تهيئة المجتمعات لأجواء أكثر وعياً واستنارة، تحتاج لوقت وزمن غير منظور لإعادة ترتيب العلاقات وتنميتها بسـبل صحيحة، ولكن ذلك بات ضرباً من المحال، إثر تأصل إرث وتقاليد السلطة في ذائقة الجماهير ووعيها الجمعي، لأن توالد الخوف والموت في تلك الذهنية يعتبر الأمر الأسوأ على صعيد الحياة المشـتركة المرتكزة على ثقافة التسـامح والاختلاف وقبول الآخـر، حيث يرمز الخوف

لأخطار محدقة قادمة ويستحيل تفاديها إن تأخر وقت تداركها والتصدي المبكر لها قبل اندلاعها الفجائي والمدمر، حيث تقوم إرادة الإنسان أمام سيل الفوضى القادمة لتجعل حالة الصراع أكثر استدلالاً بماهية تلك الحرب التي تشن لتدمير جماليات الوجود ومنجزات الإنسان المعرفي الذي يبدع وينتج أمام محاولات من يقوضون مناحي الحياة عبر حروبهم العبثية، ويقف جوع الإنسان وحرمانه حائلاً دون بلوغ الكماليات، جوع الشرقي إلى الأمان وإلى الجسد، وكذلك جوعه للحب وللأمان، كل ذلك جعله بموضع الإنسان الهائج الباحث عن أشياء تداري وجعه وحرمانه، لذا نجد موسى ضائعاً بين البكاء والرغبة، بين ماضٍ جميل ومؤلم عاشه ولا يفارقه، وبين لحظة تستعبده من خلال الرغبة الجنسية، إلى مناجاة بينه وبين سايكس البريطاني، حيث نجد أن الرغبة هنا تخفي في داخلها مقداراً بالغاً من الألم، وهي الأصل للمعتقدات البدائية الأولى التي راحت تسمو للروحية وهي بقمة جوعها الباطني، حيث يمثل القذف الجنسي بمثابة السكون الأبدي بعد رغبة حادة تمثل نشدان الحياة بأرقى مظاهرها، وهذا ما يفسر رغبة الجماهير في لحظة النهوض والانتفاضة بتمسكها بالبقاء والحياة الأفضل، لأنها تدرك أن الفساد هو ضد الحياة وهو بمعنى آخر يمثل الفناء وحقيقة الموت، لهذا وجدت البشرية نفسها لغاية عصرنا هذا أنها في صراع كبير بين صناع الموت وصناع الحياة.

لهذا نوقن أن سعي موسى لم يكن سعياً جنسياً محضاً، وإنما محاولة بائسة منه لاستطباب ألمه الجوَّاني، فهو يحمل ألمين متمايزين في تعلقه بامرأة لم يصل إليها لتقاليد متطرفة حالت دون الوصول إليها، وكذلك لوطن يحلم أبداً بأن يرى النور وسط جحافل الظلام التي كادت أن تبتلع أجمل الأحلام، لهذا يحمل موسى في داخله ذلك الصراخ العنيف المحتد، والذي من خلاله يفهم أبعاد هذا الكون المترامي من خلال سجاله العنيف مع سايكس، الطيف الذي سرعان ما يظهر ويختفي في لحظة

إحباط وبكاء، البحث عن ذلك السلام الداخلي والطمأنينة المفقودة حيال الذات والآخرين، وهذا السلام لا يتحقق إلا ببلوغ عدالة المحاسبة، التي يسعى إليها وهو يتألم، حيث يطفح الحلم بواقعية على السطح دون التشبث بأوهام العدالة الإلهية وما شابه، الاستبداد الذي انتشل موسى من جذوره ليجبره على العيش في الخارج دون العثور على إجابة أو وسيلة لتهدئة داخله الذي يعاني مع الوقت.

لقد نجحت الرواية في توظيف هذه الشخصية على نحو فلسفي ذاهب نحو الخوض في إشكاليات فلسفية تتصل أكثر بالواقع السياسي والاجتماعي، تردي النظام المحتكر للموارد الاقتصادية وكذلك التعسف الجائر والبادي في طريقة ممارسة القانون وإقفال الأبواب على الحريات وقولبة الفنون والعلوم الإنسانية، كل ذلك أدى لإرهاق الإنسان وجعله محاصراً بكل السبل، فسلوك السلطة لمبدأ ترسيخ الخوف جعل دوافع الابتكار والاكتشاف معدومة، وتم إخصاء الهبات الشعبية وقتلت حلم الحرية المزعومة، وأيضاً بروز عالمين متناقضين فعلياً وهما الشرق والغرب، إذ تم تبني المصطلح وتنفيذه، لهذا نجد هذا الشرخ قد تم إحياءه، فما نراه من خلال هجرة الشرقيين إلى الغرب هو بروز خوف غربي ناتج عن هذه الهجرة، خوف مشروع على الثقافة والتربية الأوروبية، من ثقافة متردية مضطربة جعلت التطرف خبزها ومادتها الخام، ينقل موسى خوفه معه ولا يندمج مع حياته الحالية، مع ذلك الثلج القارس والبرودة الدائمة، حيث ثمة واقع عصي على التجاوز يتجلى بطبيعة النظم الشرقية الاستبدادية، والتي جعلت الخوف عماد كل تربية يتلقاها الإنسان المقهور، فلا يبدو الإنسان الشرق أوسطي سوى كائناً خائفاً، يعيش في برجه العالي الخانق، فلا إرث ملموس يفخر به، سوى ماض لم يتعرف إليه وفق رؤية واقعية، يمكن معرفة الخوف من خلال التقديس الذي يحيط الفرد منذ طفولته، إذ يتلقى تربية قائمة على الولاء التبعي للماضي وقيمه، دون أن تتمحور الذات باتجاه رفض حقيقة قائمة قد تحمل معها أوبئة،

فيكون المقدس مدنساً وغير قابل للحب أو الحياة، مع ذلك فإن نمط الفكر القطيعي وتلك البرمجة الميكانيكية للجماهير، جعلت من عقولها أكثر قابلية للامتصاص منها إلى التفكير والتدبر، فهي تتقبل كل خطاب مهما كان، طالما أنه نابع من الجهة التي يتم تقديسها وفرعنتها، لهذا نجد ذلك الشرخ حقيقياً وليس مجرد ورم يتم استئصاله، فطبيعة الموروث الثقافي لدى الإنسان الشرق أوسطي قائم على الخوف والتطرف، فلا يمكن إزاءه أن يفعل التمرد فعله في الانتصار على إرث سلبي قائم على تلقف المواعظ والتعاليم والأفكار وحمايتها دون النظر إلى محتواها ونتائجها على الحياة المعاصرة، إنها العزلة الاجتماعية بأقسى مظاهرها، ولعلها تتنقل بالفرد إلى كل مكان، فالإنسان النازح إلى مجتمعات الأمم الحرة، ما يبدأ في بدايات مكوثه أن يعيش ذلك الصراع البغيض بين نفسه التي تعيش في معاناة الأمس ومرارة اليوم، فلا يجيد الاستمتاع بحاله الراهنة، هكذا يحمل المهاجر الشرق أوسطي روح بيئته معه أينما حل، ومرد تلك العزلة إلى تلك الذات التي عانت الكثير وعاشت الخيبات المتوالية، ولم تتداركه بعد في البلاد الجديدة التي يلتجأ إليها، مما لا شك فيه أن ظاهرة الهجرة هو بمثابة هروب من الخوف والموت في آن ، لهذا فإن له نتائج على البلد المستقبل، إذ أنه يحمل في داخله تساؤلات هو تلك الفئات الهاربة، هل ستندمج وتكون سبباً من أسباب الانتعاش الاقتصادي والتنوع، أم ستكون عبئاً عليها، ولاشك أن ظاهرة النزوح قديمة قدم الحروب والإبادات التاريخية، ومن خلاله تنشأ المجتمعات وتتحول، إذ مع الوقت يتحول الوافدون إلى سكان أصليين، ويشكلون جزء من هذه الهوية المتحولة من مكان لآخر، لقد غطى الموروث الديني الذائقة الشرق أوسطية وجعلت حياة الفرد مهددة بطرائق شتى، وسيطر الخطاب القوموي الإستعلائي إلى جانب الخطاب الطائفي على نمط أنظمة الحكم فيها والتي قادت البلاد برمتها إلى نفق مظلم.

لقد سعى الروائي في العمل إلى بيان حقيقة سوداء، والتي ما تلبث أن تظل إثر غياب المسؤولية الأخلاقية، حيث أن العلاقة ما بين العنف والسلطة، هو ما مهد لقيام كيان الخوف على طول رقعة الشرق الأوسط، والذي أعطى دليلاً واضحاً عن طبيعة الحياة القائمة على الضياع والانحلال والفوضى.

فمشكلة الموت في هذه الرقعة لا تنحصر على كون سمائها وأرضها حقل تجارب لمختلف أنواع الأسلحة فحسب، بل لكون الموت قد فاق حجمه الطبيعي وبدأ يستوطن الوجدان الجمعي، فهاهم المريدون ومتصوفو الأحزاب يؤلهون القادة والزعامات جنباً إلى جنب مع مريدي الطرق الدينية وشيوخ التكفير، وهنا تكمن وحشية الموت وقدرته الفتاكة على نشر الخوف بطرق معاصرة تجعل العقل في حالة تنويم دائمة فلا تتماشى الفلسفة مع رغبات السلطوي في التحكم بعقول الجماهير، ولا تتماشى المعرفة المتمردة مع التعاليم المحنطة، ولا تستقيم مع القناعات المؤدلجة التي هدفها الهيمنة على النخب الشابة واستعداء الطفولة واستثمارها بشكل فظيع في حالات الحروب، بالرغم من تلك المحاولات الحمقاء للتلاعب بالمصطلحات وإلباسها مبررات تتعلق بالفضيلة، فمعرفة المشكلة تكمن في السعي لقراءة بداياتها، ولعل توظيف العلل البشرية واستثمار التهويم هو ما يجعل التوحش آفة الإنسان الحالي، فلا خيار سوى الحروب من جهة والنزوح من جهة أخرى بمباركة الفساد والاستبداد، وما ذلك سوى تجسيد أبله للضعف البشري وعجزه عن المسير بخطى ثابتة لحياة أفضل لا تسودها النزاعات المدمرة، ففي بلاد المهجر يعاني موسى من صعوبة النسيان، يتذكر الكلاب التي كان يقطع أذيالها مع أطفال الحارة، حينما يبصر كلب آنيت الألمانية، والتي تقضي وقتها بمرافقة الأجانب، وهي على نقيض والدتها التي تكره الغرباء، لهذا وجد موسى فيها عزاءاً.

يتمتع موسى بحزن لطيف يكسبه لباقة زائدة ولطف عميق، استشعرته آنيت، لهذا تبدو علاقتهما طبيعية وإنسانية، حيث يبصر موسى هنا الفارق ما بين حياة أودعها

في الذاكرة وأخرى يسودها الانتظار والبرود، حيث اعتماد الهروب من مسببات الألم المتمثلة بالمكان والأشخاص هو بمثابة إحدى المحاولات الوقائية لاتقاء الموت الوجداني، لذا كانت الهجرة خياراً متعباً بالنسبة إلى موسى، وكذلك كل من اختار الأمر لأسباب تتعلق بطبيعة الواقع القاس الذي يختبأ وراء الحزن الكامن فيه، لعل الهروب هو بمثابة آلية دفاعية ضد الموت وقسوة الحياة، اعتماده يعد بمثابة اللعبة المتداولة ضد تلك الوقائع البائسة التي تعد بمثابة حقائق عن الوجود، الممتلئ بالعثرات والنقائض، حيث أننا نفقد مع الوقت قيمة اللحظة التي نعيشها بمجرد مرورها، الماضي لا يبرح ذاكرة النازح الذي اختار المنفى كتعبير عن هول الهموم لديه، وعليه فإن الخوض في إشكالية الهجرة والتنقل، لابد وأن يقودنا لمسارات فلسفية تعيدنا لموضوعنا الذي نركّز عليه وهو الخوف والموت، اللذان يعتبران حدثاً واحداً يقودان المرء إلى المزيد من التأمل في أوجاع النفس ومآلاتها مع الزمن.

تتمتع الشخوص بواقعية حادة وميل إلى قبول الواقع كما هو متجسد، دون الذهاب نحو التخييل والتحذلق الوجداني، وهذا يسهل عملية البحث عن الإنسان الكردي في متاهة القمع والخوف إلى قدرة على اختراقه، وكذلك فإن المنفى يعتبر الجانب الآخر من حياته، إذ يعيش في دوامة مختلفة عن التي داخل البلد، هنا لا تفارق الذكريات والمواقف الماضية نفسية من هاجر ويعيش بقايا ما علق في ذاكرته، ولطالما كان الخوف من الموت أو الانصهار أو التلاشي ببروز هيمنة الثقافة الواحدة على مجموع ثقافات، وكذلك محاولة قوة سياسية معينة على إبادة مجموعة بشرية هاجساً كبيراً لدى الأفراد ولا سيما النخبة المدركة منها، لهذا بات خطراً قائماً يجب التفكير به أينما حل المرء، سواء في الوطن أو خارجه، ولعل ذلك مثّل نوعاً من التحدي المخالف لتقاليد الهجوميين في طمس الآخرين بغية اجتثاثهم، فنجد أن الفرد في ظل منظومة الإقصاء ينقاد إلى ما يجعله يتهرب من حقيقة حياته القائمة على القلق والخوف، ولعله لا

ينفك عن ذلك حتى في لحظات عيشه في المنفى، فلا يمكنه أن يتنصل سريعاً من كل ما عاناه، لربما يعيش هناك على أنقاض حلمه المنتهك في شرقه البائس، فالخوف في الجانب الآخر يتعلق بآنيت التي تسرد الآن ما يجعلها تشعر بالخوف: "-أسأل نفسي كثيراً: لماذا أعيش؟ حياتي وموتي سواء. الحياة لا شيء، لا طعم لها ولا معنى، إنها بالنسبة لي خداع للنفس، أشعر أن الموت وحده يستطيع منح الإنسان الراحة، فالموت أحياناً هو الحل الوحيد.

كانت تتحدث مطولاً عن أبيها -عديم القلب—هكذا تسميه

ربما يحاول أن ينساني، أو أنه لا يصدق أنني ابنته، أو قد يكون مشغولاً بزوجته-

ومن ناحية أخرى كانت تتحدث بغضب عن أمها

أمي عنصرية-

سدت أمها كل الطرق أمامها، ووضعت لها هذا الشرط

... لست أمك إن لم تقطعي علاقتك بهؤلاء الأجانب ذوي الشعر الأسود، إما أنا أو هم-

كل هذا في كفة، ورعب تلك الليلة في الكفة الأخرى، علي أن أعترف أن هذه الحادثة قد رفعت جدران الخوف بيني وبين آنيت."

هنا جانب آخر من الخوف يتعلق بآنيت، حيث ينتقل الكاتب للجانب الآخر من ضفة العالم، عالم لا يخلو من الخوف أيضاً جراء تفكك الحياة الأسرية والترابط الحميمي، ونظراً لطبيعة الصراع بين الأفراد واتساع مفهوم الفردية، ليغدو طريقاً إلى الإنعزال وممارسة الحياة على نحو منعزل، تماهياً مع الذات دون الآخر، ولأن الآخر بات المعضلة التي يجب دفعها عن طريق المرء وجعله بعيداً عن ميادين التأقلم الذاتية. ثمة خوفان على النقيض هنا، أحدهما يميل للاغتراب في أتون المجتمع، وهو خوف شرقي ناتج عن معاناة متضخمة إزاء تقاليد العذاب، وآخر أوروبي من وحدة قاتلة تدعو للضجر والموت صمتاً، يعاين الروائي الخوفين بطريقة تدعو للدهشة والتساؤل،

نـراه هنا يتحدث عن نتائج الخوفين المرتبطين بالموت والفناء، حيث لطالما ثمة تناقض بين الفردية والاسـتبداد، فإنه يدعونا لأخذ موقف من اسـتبداد الحدث على النفسية والسلوك، وهذا الصراع العنيف بين الأفكار، يدعو المرء للإنسلاخ والتمرد عن واقعه، وذلك باستبداله بواقع عيش آخر، تقوم آنيت بمساعدة اللاجئين والعناية بهم كردة فعل على عنصـرية والدتها وكرهها للأجانب، إضـافة لغصة وجدانية تنتابها ببعد والدها القاسـي عنها، وبقائها وحيدة مع ذاتها تعاني الكوابيس ولا تتمالك أعصابها، قدرتها على الانسلاخ من همومها وأحزانها رغم رغبتها أبداً في زرع البسمة خلال العطاء، إلا أن الفردية تبدو وكأنها عبء على الذات، حينما تسـتقل عن فلك الجماعة وانتماءها، فرغم حيز الحرية والتعبير والتفرد، نجد تلك الرتابة والحيرة التي تستوطن الأعماق، وكذلك التفكك الأسـري الذي تعاني منه آنيت، ويجعل الموت والخوف بمثابة شـبحين يتناوبان عليها بين الحين والآخر، فلا يسـهم هذا الارتباط الحر بالآخرين بما تتطلبه الحيـاة الوجدانيـة والروحية أحياناً، فهـذا التكامل في الذات نجده متشـظياً لا يقوم باسـتيعاب كل شـيء واحتواء أي شـيء، فالامتثـال للرابطة الاجتماعيـة أكثر تنظيماً ومنهجيـة مقارنـة بواقعها الصـدأ في بلادنا، حيـث يعيش المرء في حالـة من مواجهة الفوضـى والتـي ترتكز في نشـوءها على معـاداة قيم النهضـة الجوهريـة والانتعاش الحقيقي لمجتمعات تتعرض للسحق والإبادة بمختلف الأشكال، هنا لا وجود أصلاً لتلك الفردانية التي تمجدها دول العالم المتمدن، فلا يسـلم مجتمع من مآزقه وأزماته على صـعيد العلاقـة بين الرجل والمرأة، حيث تشـبث المرء بفرديته وأنانيتـه، أولى بالطفل الـذي يعيش دون والديه، في حين يتم تطبيق القانون الذي أعطى دوراً لقيم الفردانية، فكانت الرعاية واجباً حكوميًّاً، لتغدو قيم الفرد المركز بالنسبة لطبيعة الحياة برمتها، تلـك الطبيعـة القائمة على أفعـال المجتمع وتصـرفات أفراده، في حين يغـدو القانون بمثابة العصـا الناعمة والتي تردع هذا وذاك وتبيح لهذا وذاك ممارسـة سلطة معينة

ترتبط أكثر بأشياءه وعلاقاته مع المحيط والمؤسسات، حيث نجد أن موسى بات بمثابة المتلقي لحزن آنيت وكذلك حالها الذي آلت إليه، تلك العزلة التي خلقت في ذاتها نوعاً من التأنيب القاسي، حيث لا تفارقها الكوابيس، فعلى رغم أن الفردية كانت بمثابة ثورة في أوروبا ينعم من خلالها الكل بثمرات الحريات والحقوق والواجبات وحق الاعتقاد، إلا أنها لا تخلو من إفراط بها لدرجة الأنانية والتعاسة الجوهرية، رغم تحررها من خليط الأفكار الشمولية التي تمادت هي الأخرى في التشبث بالضمير الجمعي للمجتمع لدرجة التطرف، فالخروج عن الجماعة والتمرد عليها سيفتح الباب على التغيير الجوهري، وذلك استناداً على جدة الأفكار وحيويتها، وعدم استسغاتها للتصوف والتقديس والتمجيد وما على شاكلة ذلك من مظاهر الولاء، هذا التمجيد للأنا دافعه تلك الرغبة العميقة في خرق الرتابة التي تجعل المرء آلة خارجة عن وعيها الإنساني بالأشياء، موسى وآنيت يشكلان نمطين من الاغتراب ناتجين عن طبيعة المجتمع الذي عاشا في كنفه على حدى، مجتمع الشرق الأوسط والذي يعاني أفراده من تبعية فكرية، دينية، اجتماعية، اقتصادية، للجماعة وعلى نحو يعد فيه حضور الفرد هامشياً رديئاً، وآنيت التي تتمتع باستقلالية كبيرة، وحياة تحققت فيها كل مقومات الحرية والسمو بالذات، غير أنها تفتقد لحضور الوالدين، اللذين يمثل اجتماعهما وتآلفهما مصدر سعادة للفرد وشعور بالثقة، هذا الشيء معدوم في حياتها، لانصراف الوالدين كأي فردين نحو ذاتيهما أكثر، إذ ليس الابن أو الابنة بالنسبة إليهما موضوعاً وهاجساً كبيراً، فهي بالتالي فرد، ولها ما عليهم من حقوق وواجبات وحريات تتمتع بها، ولا يقف الخلاف أو الاختلاف عائقاً أمام الجميع، إذ أن الأفراد في ظل القوة الفردية يعيشون على خطى نيتشه في سبر الوجود بنزعة ذاتية مطلقة تنطلق من إرادة الفرد في الحياة، حيث لا يمكن للمجتمع الشرق أوسطي أن يحذو حذو الأوروبيين في السير نحو الفردانية على نحو تقليدي، حيث يلزم ذلك، هذا الرفد الثقافي والذهني

لأجل اكتمال المسعى، فالتحولات تستلزم جوهراً فذاً قابلاً للتغيير ومسلماً بأهميته، وذلك سيتحقق بصعوبة أقله في تلك الرقعة المنكوبة والتي هي هدف استراتيجي قديم للطامعين بموارده ، فتلك المواهب والمدركات إن بقيت حبيسة أقفاص الطاعة والولاء، فإنها تتحول لشر مطلق، لهذا كان من الضرورة أن تتجه هذه المجتمعات لعقيدة المساواة، والتي يلزمها الشعور بأهمية المعرفة والحياة الحرة المتكافئة.

يقدم حليم يوسف الخوف الأوروبي عبر نظرة آنيت العبثية لحياة خالية من أي معنى، حيث غياب حنان الأبوين، يعني ذلك التشتت في دلالاته الرحبة، والمسير باتجاه مستقبل أكثر غموضاً، ثمة سير للكوابيس لا يتوقف، وذلك الألم المتجسد في غلالة الوحدة، حالة الاضطراب التي يفرزها الحرمان من هذا الدفق الإنساني المتآلف النابع عن الحب، يعيش الأب في دوامة التخمين هل آنيت ابنته التي من صلبه أم أنَّها من عشيق آخر؟، الوالدة أميل لذاتها ونفسها من أن تكون أسيرة أمومتها، لهذا لا نجد ذلك التعلق سائداً في أنماط المجتمع الأوروبي بالمعنى العاطفي السائد في الشرق، وما قدوم موسى إلى ألمانيا، إلا نوعاً من هذا التداخل بين الثقافات، وما تعارفه على آنيت أو لينا إلا شكلاً من أشكال هذا الاندماج الطبيعي بين عوالم البلدان وأمزجة أناسها حيث ينشأ عبر هذا التمازج مفاهيم جديدة، تؤسس لطبيعة هذه العلاقة بين تلك الأمزجة والثقافات، رغم أنها دخيلة، سوى أنّه أمرٌ واقع ينتج عنه نوع من الخوف والقلق، فنظرة والدة آنيت إلى الأجانب ليس إلَّا تعبيراً عن اتجاه يجد في هذا الاندماج مؤشراً خطيراً على طغيان الثقافة التي يحملها الدخلاء إلى البلد على الثقافة الأصلية السائدة قبل هذا التوافد والنزوح، ولعله يحمل في طياته حقائق مشروعة، تشي بهذا التهديد اللاحق، فلا نجد أن ثمة رابطاً بين تلك الثقافة الشرقية المتوطدة مع الوثاق الأبوي، وما بين ثقافة فردية لا تهتم بطبيعة العلاقة وتتعايش كيفما اتفق، حيث نستغرق في الحديث المطول عن آفة الدين والقومية، وهذا الارتباط الأعمى مع الأولياء

والشيوخ والزعامات السياسية، في حين لا نجد هذا قائماً في أوروبا، والحديث عنه يعد ضرباً من استذكار التاريخ القديم، فتلك الروحانية تقف أمامها الاستقلالية، وهذا التطرف والخوف من الحديث عما يسمى بثالوث الدين والجنس والسياسة، متداول بيسر في المجتمع المتمدن، فهنا نجد موسى يسترسل بعد أخذه قرار مغادرة هذا البلد، لنجده غارقاً بالخوف المتصل بخوف آنيت ولكن على حدى: "لم أستطع رغم محاولاتي العديدة أن أفهم آنيت بعض الأشياء، العتمة، الإعتقال، القتل، الدمُ والصرخات العالية كانت تخرجها من جلدها، مقابل استعمال هذه الألوان، كان هناك من يذكِّر المرء بهؤلاء الذين يجلبون الخراب والظلام، كانت دائماً تقول: -ألا يوجد عندكم غير التراجيديا؟ إن ألوانك هذه تذكر المرء بموت مأساوي، إضافة إلى أنها مبعثة على التقيؤ والاشمئزاز، لقد غطيتم عيناً بيدكم، وبالأخرى وحسب تنظرون إلى هذا العالم.

قد يكون ما قالته كلّه يصبّ في خانة الصحيح، أو قد أكون أنا المريض ولا يمكنني التخلّص من المأساةِ هذه، وآنيت أيضاً تطلب مني رسم الورود واستعمال الألوان المتفائلة من ناحية، ومن أخرى لا يمكن لها أن تتحرَّر من الكوابيس والصراخ في منتصف الليل، شيءٌ وحيد كان مشتركاً بيننا، الخوف..!".

هذا يحيلنا لفهم الخوف من أبعاده الفلسفية التأملية التي تختزل في طياتها رحلة الإنسان في الحياة وخفاياها وما غمض منها، فالخوف وعاء الذاكرة المترامية الغائرة في الوجع القديم، وهو بالتالي مسيرة حياة متحولة تنتقل للأطوار المتعددة من حياة الإنسانية ورحلتها العسيرة عبر مسالك المرارة وانسداد آفاق الحل حيناً، أو عبر ابتكار أمل ما واتخاذه هدفاً بحد ذاته.

إن مشكلة الخوف قديمة قدم علاقة الإنسان بالسلطة، والقلق الوجودي من الموت، وكذلك صلة الإنسان بذاته وأهدافه وذاكرته وكوابيسه، إذ يلِجُ الروائي إلى لعبة الجدل الجامع بين عالمين متناقضين وموحدين تحت ظلال الخوف والشعور بالقلق من الغد،

لسـنا أمام رواية تبسـط ذراعيها للقارئ ليتابع بعين الفضـول ما سيدور من أحداث، بقدر ما إننا أمام طلاسـم تدخلنا للتبحر في ميادين الفلسـفة التي تتصـدر الإدراك وتسوسـه، وتجعل أدوات السـرد برمتها مفاتيح لاسـتخلاص الكنه والجدوى من طرح عدة أفكار من سياقات متعددة عبر نصوص تبدو لنا رواية تتحدث وفق مقومات بنائية لا تخرج أو تحيد عنها، لهذا فإن النقد يدخل في غمار لعبة التأويلات وهي لعبة تحدث في الذهـن زخماً، وكذلك انشـداهاً نحـو أكثر الغوامض ألفة مـع النفس، لإدراك تلك السـعادة التي هي تحصـيل حاصـل عن الجهد البالغ والتفكير العميق، وليست عبارة عن ضـحكة بليدة نطلقها في الجو، كذلك نجد في امتطاءنا لصـهوة البحث والتنقيب مثار نشـوة وقدرة على اقتناص الأفكار عبر جودة اللغة وجدة الإسـلوب، فهنا التفكير في الخوف أعطى مفاهيماً سـلبية دخلت لثقافتنا وفننا، وحتى مواهبنا، في إشـارة إلى لوحات موسى، ومشهد الحيوانات مقطوعة الأذيال الذي هو تجسيد لسادية الألم التي يمتهنها الإنسان الشرق أوسطي في بيئة باتت مسرحاً للآلام والأحلام المقطوعة، حيث يسهم الخوف في تغيير المفاهيم الحية في الإنسان لمفاهيم جامدة تستدعي منه التفكير المحبط بالغد، فلا يمكن تجاوز تلك المخاوف بسهولة لأنها باتت بالنسبة للأرواح سكناً ومـلاذاً إزاء عـالم مـن المتغيرات والتي تفرز في أتونها صـراعات فجائيـة ما تلبث أن تستعر بمجرد أن تهدأ لبرهة.

إن أكثر أشـكال الموت ذماً وسـوءاً، هو بلوغ حد أعلى مـن الخوف بمواجهة الحياة والمستقبل، وقد آل حال شعوب الربيع الدموي إلى نزوح وتخبط، نتيجة فترات العبودية التي طبقت بحذافيرها على شـعوب امتصـت موروث السـلطة القامعة بيسر، فإذ هي قامعة لبعضـها بعضـاً، لهذا فإن الموت في منظور الرواية هو زوال الجرأة، واسـتتباب الخوف في كافة جوانب الحياة، الأمر الذي جعل الفئات تتجه نحو التنجيد لتكون وقوداً لمعارك وحروب عبثية تأخذ صفة المقدس وهي ليست من القداسة في شيء سوى تقديس

العته والحمق وما نحو ذلك من نعوت باتت حال المجتمع الأمي، فهو يسمي الفيدرالية تقسيماً، والشراكة تآمراً، والديمقراطية مؤامرة أوروبية، والاستبداد فرضاً سماوياً دينياً، هذا التمويه نجح في جعل المجتمعات المحقونة بأمجاد القومية الدينية تنظر للأقليات نظرة عبيد مسخّرين.

◆ الطفولة في التغيير:

العودة إلى الطفولة لدى حليم يوسف من الدلالات الهامَّة، حيث في حينها تنمو العوائق والصعوبات التي تتبع عملية النمو والارتقاء، وكذلك العلاقات التي تتحكم بمنظومة المجتمع الفكرية وفهمه للحياة، فهذا التعايش يضمر نقيضه بين شعوب متفرقة لا يجمع بينها سوى التمذهب والشوفينية، لهذا نجد الانغلاق أكثر يسراً في دخوله نفوس المجتمع ويتلاعب بمفاهيمها، فالمظلومية ليست شعوراً فحسب، وإنما ممارسة وحياة تتخللها مواقف تشبه الأسر والقطيعة عن الحاضر والمستقبل معاً وتوفرها عوامل ممارسة الاضطهاد من قبل النظم المركزية الشمولية، فهذه النظم وجدت في إعاقة وصول المجتمع لوعي مطلوب، سبيلاً لبث الخوف والقمع وزرع الرهبة، وقد وجدت أنه من مصلحتها التحكم بالإنسان وزرع الرهبة في داخله منذ طفولته، لذا فمن الضرورة عقد ذلك الترابط والإشارة إليه بين طقوس المجتمع وعوائده وبين السلطة، كونهما معطيان متكاملان وليدان ثقافة تاريخية عمادها العنف والجهل، لهذا تلعب التقاليد دوراً في تأهيل الفرد على امتصاص الخوف بطرق غريبة، وتسهم في تهيئته لاستقبال المزيد من الصدمات التي تفرزها طبيعة المجتمع، فمع غياب المؤسسات الحقيقية التي تنظم حياة المجتمعات وتقف على احتياجاتها، فإن الأفراد يتصرَّفون على نحو ساذج ليبدأوا في النبش عن كل ما هو غير صالح فكرياً وتقديمه للمجتمع على أنّه دواءٌ ربَّاني، وهذا ما أدى لتضخم العلل النفسية لدى الفرد منذ

طفولتـه، ومعالجة بعض الوعكات بأسـاليب تثير الغرابة، لعلهـا بمثابة واقع مفروض بطريقة ما.

لقـد تم تهـويم الجماهير وخداعهـا عبر إلزامهـا بالجهل، لهذا نجد أن أسـاليب المجتمع في استئصـالهم للمشكلة الصـحية تعكس طبيعة المنظومة السياسية المتخلفة، فهـذه الأبويـة الحاكمة رسـخت الجهل جاهـدةً في إخصـابه والعناية بـه، إلى جانب وجـود الفئـة المرتهنة والتي وظيفتهـا تجميل الخطاب الأبوي السياسـي بقدر تجميلها للمعتقـدات الدونية الزائفة التي هي وراء تخلف المجتمـع وعنف الأفراد، وهذا يحيلنا لتأويـل رمز الذبح الذي هو تعبير عن الأضـحية وعن معاقبة الخارج عن الملة والدين، وقد تجسـد في طبيعة النظام الشـمولي في تصـفية كل الخارجين عن أوامر السـلطة ومنهجها، حيث أراد الروائي من خلال إشـارته للذبح في الرواية كرمز، الإشـارة إلى توأمية العلاقة ما بين الدين والخوف، بوصفه مصدراً أساسياً للخوف من الإله ومنها إلى الحاكم وأعوانه،إذ لابد من معاينة جذور الخوف المرتبطة بالمعتقد بشكل مباشر، وهكذا يتم سبر الإشكال الفكري الذي قاد إلى الإستبداد عبر مراحل تطورية عسيرة، رافقتهـا حالات مخاض متعـددة باعدت بين الإنسـان وقيم العقلانيـة بمجاورة المرء المتدين للخرافة وجعلها مقدسـة، هكذا اسـتمد الباطش من تعنت الجهل لدى الفئات الخاضـعة لعنف المقدس قوته، وبذلك يمكننا معرفة أولى بدايات تواطؤ السـلطوي مع رجال الدين في التآمر على مجتمعات الشـرق الأوسـط، وجعل المطالبة بالحرية تآمراً علـى وحدة البلاد، وهكذا فإن هذا الصـراع بات يكشـف عـورات التجهيل التي عاثت فسـاداً في كامل هذه الجغرافيا المحكومة بلعنة تاريخية، فالصـراع بين أنصار الحرية والمسـيطرين بات حقيقة في ظل واقع مثقل بالصـدامات التي قادت إلى تفجر الوضـع كما هو في مرحلة الربيع العربي تلك، والتي باتت ربيعاً كردياً.

كشـف لنا الروائي عبر خوف بلا أسنان بوادره وبداياته من انفجار عقدة الخوف لدى الشـعوب المغلوبة على أمرها والتي بات لزاماً عليها أن تسـتمر بتمردها وعنادها لتجاوز منظومة الخوف بأسـرها، والنيل من تلك التقاليد العنفية التي حكمتها، والتي أودت بالمجتمـع إلى الهاوية، حيث نجد طقوس العنف التـي لها امتدادات قديمة تعود لحقب الخرافة التي اسـتحوذت على الفئات المعزولة عن منجزات المعرفيين في البلاد الاسـتراتيجية والتي من مزاياها التواصـل بين المجتمعات عن طريـق التجارة والمناخ الذي يسهم في التحول الإيجابي للأفضل، فلا يمكن أن نتجاهل الغزو الهمجي للأقوام الصحراوية والسهوب الباردة التي وفدت إلى الأماكن الخصبة وأقامت ممالكها بالدم والحديد، وقد استقدمت جهلها وسـذاجتها معها ،وجعلت الحياة تتصدع أكثر فأكثر، هذه الهجمات جعلت المجتمعات تتفكك روابطها فيما بينها، لتعود وتتحد بغية مواجهة الخطر المشترك، فما نعنيه إذاً بأن العنف تم استيراده من مفاهيم وافدة على الثقافة الحرة، والتي اسـتقت من بيئتها الهدوء والصـفاء والاتسـام بالابتـكار والتجرد، فما سبب عودة المجتمعات إلى التشبث بالعرف والخرافة، دون التطلع للعلم والمعرفة، إذن فثمة تجييش سياسي يقف وراء ذلك، لمح به الكتاب في رصده لطفولة موسى واستقباله للرهبة المتجلية في سـذاجة الناس وبدائية تفكيرهم، وأيضـاً يرصـد الكاتب لنا البيئة التي يتشـبث أهلها بلغتهم، ولا تسـتطيع المؤسسـة التربوية بسـطوتها أن تطهرهم من لكنتهم ولغتهم، فهم ممتزجون بسـماتهم وروحهم القروية، ورغبتهم في أن يعبروا من خلالها عما يختلج صـدورهم من فرح أو حزن، فما بين لغة متسـلطة ولغة مسـتعبدة، يحدث ذلك التصارع غير المتكافئ.

لا يمكن في هذا السـياق تجاهـل المنظومة الأبوية المتوطنـة في العقول والتي رعتها الأديان واسـتحدثها مشـرعوا السـلطة وقاموا برعايتها لتبقى مترسـخة في الأذهان، عصـية على الزوال، إذ تشرّبها الأفراد عبر التربية والتعليم، إذ لهذه المنظومة علاقة

بالدولة المركزية، والتي تتخذ من سيادة العنصر العرقي على بقية الأعراق، والعنصر الطائفي على بقية الطوائف أساساً لوجودها وحكمها، وكذلك نجد أن الثورات المضادة سرعان ما تبدو وليدة عنها، مالم تتخذ في برامجها الأولى تغليب المنهج الديمقراطي على الخطاب الأبوي الاستعلائي، وتصبح الأزمة في حقيقتها فكرية مستوطنة ذهنية التعامل وأسلوب التعاطي مع النظم التقليدية، على نحو تقليدي، لا يستوعب المعرفة التي تعني محاربة التجهيل، والوقوف بوجه مصدريه ومستورديه، وعلى هذا النحو يحتج الكاتب حليم يوسف على التعاطي القاسي من قبل الأب على الأبناء، وجعلهم في حالة قلق وتهميش، الأمر الذي يدفع بهم إلى الاغتراب والانطواء، وكلك يعطي صورة عن واقع الأزمة التي تعيشها النظم المركزية في تجفيف مصادر الحوار ومنابعه بين الجماهير بمؤسساته وشرائحة المختلفة، حيث تربية الأطفال على طاعة الحاكم هو شرط رئيس للبقاء على قيد الحياة في ظل سيطرة الرعب والقمع في مناحي الحياة المختلفة.

استطاع حليم يوسف بشكل أو بآخر تزويدنا بمناخات التلقي منذ الطفولة عن طريق الأهل وحكايا الجدة في الليل، كون الليل يوقظ في داخل الصبيان رهبة الواقع المرير، وبالتالي فإن ما يلقونه في حياتهم من تعدد مناخات الخوف، هو ما شكل بالنتيجة تلك الذائقة المتلاقحة مع الموروث والنشأة والواقع السياسي ككل، فالحصار المصنوع من لدن السلطات الشمولية ثيوقراطية الجذور، مهد لبروز تلك الفوضى كنتيجة عن هذا القمع والكبح المتواصل والممارس ضد عقول وقوى عقدت العزم على وضع الحد لهذه الخروقات الكارثية التي تهز وجدان وحياة الجماهير وتستنزفها، فالتلميذ الذي أخذ يعاني منذ طفولته مآلات الرهبة في ذاته، وكذلك ذلك العنف الذي يتلقاه في المدرسة صباح مساء والمقرون بحفظ الدروس غيباً وحفظ الأناشيد السلطوية عن ظهر قلب لترديدها كل صباح، هو ما جعل حياته أشبه بمعتقل، فاللطمات والصفعات التي يتلقاها من الكادر التدريسي في المدرسة من جهة ومن الأب في البيت من جهة

أخرى، جعلت منه مصـدّراً للعنف بعد أن كان مسـتقبلاً له وهكذا، فمن أن للجماهير مشـاعر الانتقام، أو ليس الانتقام غريزة جمعية يمكن أن تكون محط اسـتغلال دائمة مـن قبل المنظومة الحاكمة؟! فهو يصـب في خانة التمسـك باليقين مهما كانت درجته وذريعته، إلى حد أن تكون مطمحاً لذوي الأجندات في اسـتثمارهم للتحريض كخطاب نوعـي يجعـل الجماهـير في حالة انفعـال يتم توجيهها، بأسـاليب لا ينقصـها الخبث والتفـنن بإثـارة الرأي العـام، وتوجيهه وفق ما تسـتلزمه المرحلة، فتأثـير الكبار على سـلوك الأطفال يتم اتخاذه بوصفه توجيهاً نحو صناعة فرد بمواصفات تراها السلطة مناسـبة لتوجهاتها ، وكذلك يلعب ذلك التوجه أثراً داخل ذهنية الفرد وجعله يتخبط في أتـون خيبـات لا تكاد تنتهي ، جراء تخلـف كل بنية اجتماعيـة أو تربوية تعيق أداءه وتقوم بكبح فعاليته في المجتمع، فالمجتمع السـاذج بطبيعته مجتمع قطيع تبعوي منحاز لكل ما يدغدغ مشاعره ويعمل على إثارتها، هذا الإخصاء المعرفي هو مصدر كل فساد أو تقهقر روحي أو سياسـي، وإلَّا فما تفسـير تعلق هذه الجماهير بالأضرحة والمزارات والقادة الرموز والأقطاب الدينية والشخصيات الحزبية؟

فنهاية موسـى وتوتنو في الرواية ليس إلا دليلاً على الضعف أو الممارسات الخاطئة تجاه المجتمع وأفراده الهاربين من حياة بائسة، حيث نعلم مدى تأثير الخطب البلاغية علـى عاطفة ووجدانيـات الناس في كونهم يهرعون وراء العاطفـة إثر أي خطاب فعال التأثير دون النظر إلى خلفيات ذلك، وهذا بحد ذاته يعكس مدى اغترابها عن صناعة الفعل المضـاد، بمعنى آخر الفعل الذي يسـاعدها على التمييز ومحاسبة الجالسين في الأعلى، حيث تجسيد تأثير الحكايا الشعبية على نفسية الأطفال، هو تسليط ضوء على الخـوف منذ بداية إيغاله في النفوس، وجعل المرء المتلقي يوغل في ماهية الخوف وأثره على شخصـية الإنسـان والتحكم في مراحل تطوره ونشـأته وتأثير البيئة عليه ومن ثم

علاقته بالآخر ومدى قدرته على تجاوز شعوره بالفزع أو الإحباط، حيث يبين الروائي أثر الخرافة على الذائقة الشعبية وكيفية إدخالها الخوف كعنصر رئيس في خامة نشأة الوعي لدى الفرد، حيث جعل التخيلات والأوهام بمثابة عقاقير فاسدة يتم تعاطيها لتثبيت أركان الخوف، لتتسيَّد الخرافة المشهد الحي للجماهير التي تتقبل خطابات السلطة وتوابعها الدينية والشعبية، لتكون الحقنة الأساسية لدوام ذهنية القطيع والتحلق حول السيد الواحد.

◆ اللغة الشعريَّة في الرواية:

تذهب اللغة الشعرية نحو متاهات السرد أبعد مما قد تصل إليه الأفكار المجردة، إذ أنها تحاكي روح المتلقي وتستدعي له الحدث بصورة أكثر تجسيداً، فيعمد الروائي إلى تحريك الأحاسيس المدركة بتتبعه لحقيقة ما يعتمل النفس والإرادة البشرية، من هنا تكمن قوة النص عبر إضفاء التجسيد الوجداني بطريقة شعرية عليه، مما يحقق جودة النص، ويسهم نضجه في تحريك ذائقة القارىء وخياله بالتزامن مع إدراكه، وكذلك يسهم بطريقة ما في التأثير على القناعة أو الإيمان، حيث يتم توجيهها بمعزل عن حقيقة الدوافع والغايات التي يمكن أن تختبئ من ورائها، فتوظيف الشاعرية في الرواية لغرض نفسي، هو التأثير الذي يعمق الصلات بين القارىء وعوالم الكاتب، وكذلك يبين له الأسلوب القادر على اختراق الأجواء الأكثر برودة وانزواء، إذ لا بد من معالجة الحدث بطرائق وجدانية باستخدام اللغة الشعرية للوصول إلى الداخل ومن ثم الإدراك، ولا يتحقق ذلك إلا باتحاد الخيال مع العقل المجرد في سياق رواية قادرة على أن تبعث على التساؤل وتخلق الأسباب الكافية لبروز ذلك التأثير في استخدام حاذق وبارع للحدث وسياقاته المؤداة للغاية التي تقف من وراءها عملية خلق الصور والأفكار على نحو مترابط، لهذا نجد أن نزوع الكاتب إلى الذاتية في معالجة الفكرة التي يتطرق إليها هو بمثابة استنهاض وتحريض لمعاناة الأفراد وزجهم في صدامات أكثر قدرة على أن تحقق ثمراتها في الانتفاضة على قوى الجشع والقمع، وعبر تجسيد الألم الفردي، يمكن الحديث عن بوادر انتفاضة جماهيرية تعي أسباب صراخها، ولأجل ذلك فإن التأثير الوجداني على العاطفة المتلقية أمرٌ محبذ وجمالي، لأنه يضاعف شرارة الوعي بالمأساة ومسبباتها عن كثب.

◆ **الخلاصة :**

رواية تستنطق أشياءَ تتصل بالمجتمع، السلطة، العائلة، ومحاولات الانعتاق الفردية التي تلقى إحباطاً نفسياً في كثير من الأحيان نظراً لرداءة المراحل المعيشة التي مرت على شخوص هذه الرواية وأحالتهم إلى مجانين، أو خائفين بالمعنى الوجداني، رغم تمردهم ومحاولتهم التخلص من تلك الكوابيس التي تؤرقهم وتجعلهم بمنأى عن التفكير المتوازن، فيلوذون بالعشق رغم آلامه الكبيرة لنجده مترعاً بالأمنيات الدافئة، (قادو، سمكو، كالو) يعيشون في متن عالم يحمل في جعبته التساؤلات، إضافة إلى الحسرات التي تستنطق مكامنهم بين لحظة وأخرى، ثمة مفاجآت وسيل من الأحداث يدور في فلك تلك العلاقة التي ربطت موسى بسارة ومن ثم بشيرين وعن غراميات الشباب فيما يتعلق بالحياة الوجدانية، فتدور تلك الحكايا التي يقطعها حديث كالو وسرده لقصة حمزة المنغوري، لنجد أن الهم الوجداني والقومي متقاسمين ذاكرة الشباب الحالم، الغارق بالخيبة والشعور بالخوف، إلا أن ذلك لم يمنع من الدخول في أجواء الحب التي تساعد بدورها على مواجهة المحنة الواقعية الكامنة في الوجع الكردي إزاء واقع التقسيم الذي رسخ الخوف عميقاً في النفوس. تحاكي الرواية ثالوث الخوف، الحب، الحرية، وهم يشكلون عماد الرواية وأساسها، وهذا الثالوث يكاد يهيمن على الحدث والشخوص من بداية السرد لنهايته، وكذلك فإن استجابة الجماهير الوارثة لعقلية السلطة الشمولية لنداء التخريب والفوضى الكامنة في غرائزها ولا وعيها جعل الخوف بمثابة الهاجس الماثل في الأذهان والأعين، حيث أن طباع الجماهير وضحالة وعيها بمفاهيم التعايش السلمي ، جعلها تسير منحى ما تريد السلطة تصديره من أوهام وأحلام واهنة يمكن من خلاله أن تتحول تلك الجماهير إلى وقود ملتهبة لمعارك الداخل والخارج على حد سواء، حيث نجح رجال الدين باستثمار المذاهب والطوائف

كمـا نجح السـلطويون والذين يتزعمـون النظريـة الثورية بوضـع الجماهير بخنادق متقابلـة راحت تزجهم في صـراعات لا تكاد تنتهي، فما أشـد انقيـاد القطيع لتحقيق غايـات ومآرب القـادة إثر خطاباتهم الرنانـة ، وقد نجحوا في إيجـاد جماهير تتقبل أفعالهم وتسـلطهم وتمارس ذات تصـرفاتهم وتحمل ذات أفكارهـم وإيديولوجياتهم ، فإن تم فرضـاً إسـقاط أي نظام ديكتاتـوري أو طاغية فهل يتم إسـقاط الفكر الذي تشربته هذه الجماهير؟! وتقنعت به ، حيث باتت مسلكاً يعد بأجيال رئاسية تحمل ذات العلة، حيث باتت دعوات إسـقاط الأنظمة البراقة بمثابة تبديل للملابس الداخلية، إذ أن إسقاط الفكر الشمولي ومحو سذاجة العوام وإزالة روح القطيع هو ما يجب إسقاطه عبر بعث ثورة ذهنية شاملة لا تحتمل أدنى مواربة.

بالإمكان تلخيصاً واقتضاباً القول أن تجربة حليم يوسف في هذه الرواية مصقولة بحدة الوصـف والتجسـيد ونقل الأفكار الناتجـة عن ذلك وفق إطار لم يسـتطرد فيه بعيداً عن مناخ الرواية الواقعية، ولم يغرد خارج سـربها، بقي التزامه بمعاناة الإنسان الكـردي واضـحاً، وهذه المعانـاة تتمايز عن معاناة بقية شـرائح المجتمـع لكون الكرد كمكون، هو فاقد لحقه في ممارسة كينونته انطلاقاً من حقيقته القومية ووطنه المقسم بين الدول الأربع، لذا يمكننا النظر إلى خوف بلا أسنان من منظورٍ نفسي استطاع أن يوغل ملياً في علل الإنسان الكردي بما يتصل بشكل مترابط وحقيقي مع معاناة الإنسان الشرق أوسطي برمته في ظل أنظمة شمولية تتربع على جماجم الجماهير وكدحها.

حين تعطش الأسماك..... رحلة سبر المكنونات

حين تعطش الأسماك"..... رحلة سبر المكنونات"

يعتبر توظيف الرموز في الرواية التي تأخذ منحى السياسي الاجتماعي الهادف، دلالةً على محاولة استنطاق الغامض ومعرفته وفسح المجال أمام سيل الاحتمالات المتمخّضة عن العملية النقدية، تلك التي تختص بالتأويل والاتّكاء على المنهج التحليلي كوسيلة لعقد رؤى ومقاربات توغل فيما وراء سياق المعاني والدلالات، ومن ثم تقتحم الحدث استناداً إلى أسس فهمه عن قرب، فبدء الرواية بداء "الخُرس" الذي أصيب البشر ليس إلَّا وسيلة لجذب المتلقي بغية فهم الحدث عبر تجسيده الرمزي وهالته الدراميَّة، بالإضافة إلى أنَّه باعث أولي ومفصل حساس في عملية صياغة الحدث ومن ثم قراءته وفق منظورٍ تحليليّ والتعامل مع الرمز كونه دالاً على كنه المكنونات، وهنا تكمن أهمية الرحلة النقدية في التعاطي مع رواية تدفعنا للمزيد من البحث، وتوظيف الخيال على نحو إدراكي، يُخرج المرء من مساحة التأمل الخارجي إلى فسحة أكبر وأوسع، فالرمزية تعد بمثابة المعنى المتضمن في جوهره معانٍ عدَّة، وغاية التحليل هو توليد الإبداع من خلال فهم دلالات الرمز، ثمة شخص يعيش مع كلبه ويكثر لغط الناس حوله، هذا الشخص يدعى ماسي ومعنى اسمه سمكة، واسم كلبه بوزو، حينما تأمر البلدية باجتثاث الكلاب وقتلها، لأنها عاثت خراباً في أرزاق الناس، لم يتجرأ ذلك المدعى معصومو الاقتراب من كلب ماسي، بعد أن أطلق الأخير تهديده بقتله إن تجرأ وهمَّ بقتله.

لعل مسار الرواية الأول يبتدئ بالحديث عن حُسن (جميلة) الآسر، ومن ثم اضمحلال ذلك الحُسن والجمال بعد تزويجها من عجوز، ومن ثم حين تنجب، تزعم بجنون أن كفلها من حبيبٍ سابقٍ هجرها، وتشير إلى الحبيب في صورته، تغادر حيناً

للقاء حبيبها سرًّا، فيكتشف الناس المقرّبون منها الأمر، ليبدأ الهجوم عليها، متوعدين إياهـا بالقتل إن فعلت ذلك مجدَّداً، فيما نلحظ ماسـي وكلبـه في عزلةٍ يُنظَر إليها من الآخرين وفق منظورٍ غرائبيّ، تلك العزلة تحيلنا إلى جفاء العلاقات الانسانية والعزلة النفسية التي يمكن ردُّها إلى بيعة العرف والتقليد المسيطرَين على ألباب الأفراد بشكلٍ عام، مما يدفع بالأفراد إلى العيش ضمن متاهةٍ لا تنتهي،

لنجـد الروائيفي عرضـه لحديث الكلب بوزو مع نفسـه، أنسـنةً تتجـه نحو انتقاد العيوب والعلل وجشع البشري في استماتته لإرضاء أنانيته وكراهيته للآخر: " أنا ذاك الكلب الأسـودُ نفسـه، الذي روي عنه آلاف الحكايات والقصص، لعلّ بعضها حقيقة، لكن قاطنو هذا البلد يحبّون تضخيم الأمور!، حين يرونني أبيضَ يقولون:

- "بوزو" غيَّر جِلدَه..

أحياناً أُخطأُ في عقول هؤلاء البشـر، أتعجَّبُ من رضـاهم المُبالغ به عن أنفسـهم، يتحدّثون عن انتصـاراتهم وذكائهم ومعرفتهم دون أن يعوا مطلقاً توحّشهم وغبائهم، أحدهم يولد، ولمجرّد أن يعيَ العالم ويشـبَّ قليلاً ينسـى أنّ نهايته هي الموت، لا يرضى عـن عمره ولا عن الحيـاة ولا يعجبه الموتُ كذلـك، يتحدّثونَ عن العمر القصـير فيما يتسـابقون ليلاً نهاراً في صناعة الأسلحة ومَن يقتل أكثر من الآخر، يصنعون لأنفسهم أفكاراً ويفتحون الطرقَ كلَّها أمام القتل، لكننا نحن الكلاب المسـاكين، مكفوفينَ وصمَّاً نأتي إلى هذا العالم، لا نسـتطيع أن نعيش نصف عمرِ رجلٍ، بعد عشرة أو خمسة عشر يومـاً، وبعـد أن تنفتح أعيننـا وآذاننا، يرمينا الله إلى الإنسـان، وكلّ منّـا وحظُّه. أنا بالذات أرى نفسي محظوظاً بشدَّة لأنّني التقيت بشخصٍ مثل "ماسي"".

إن أنانية الإنسـان وجشـعه هما مصـدر صناعة المأسـاة في كل زمن، إذ أنه يعيش أضـعاف عمر الحيوان، ولا يسـلك منطق الوداعة والبراءة في حياته، إذ يقحم الأفكار والقيم والشـعارات في أفعاله وتصـرفاته التي تصـب في خانة التحكم والسيطرة على

مقدرات الآخرين، إن أنسنة الكلب وإسباغ الفكرة المناقضة للسلوك العنفي ليس إلَّا تحويراً للحوار وتوظيفاً له في سياق المناجاة الداخلية الهادفة إلى التأثير على الإدراك والخيال معاً وتحريضهما، وهذا من عمل الرواية على وجه الخصوص، يمكن عبره فهم داخل الإنسان الحالم وقدرته على توظيف اللغة للتأثير على المتلقي من منظور العاطفة والإدراك معاً، ولا ضير من توجيه الخيال واستخدامه في أطر وزوايا تسهم في تعريف آليات الفن الروائي، لما له من قدرة على محاكاة الداخل ونزع فتيل الغموض عنها، في سياق وحدة الإبداع والتلقي مقابله والإفصاح عن قيم الإنسان الطبيعي بمواجهة القوى الساعية للخراب ونبذ التعايش، حيث وصف الحياة البسيطة تعبير عن دماثة الفئات التي لا تملك ما يؤهلها لتجنح للغرور وشهوة التملك، وإنما تجد في سهولة الحياة والتنعم بالمثل، ضرورة لتنفس الحياة دون تصنع وتلوث بمفاهيم التزلف والتملق، نجد حقيقة الصراع بين الطبيعية والقمع كامناً، وكذلك نجد الشخوص على قدر بساطتهم فإن لهم قدرة على النظر بدقة.

يضجّ العمل بالأحداث المأساوية، ليس بدايةً من غياب الأمن الداخلي لدى الأفراد، بل مروراً بعزلتهم وقلقهم من المستقبل، في ظل استعباد الأنظمة القمعية التي تترك المجتمعات تتخبط في ظل هذا الصراع العنيف على إبراز لغة لصالح طمس لغة أخرى، وتفجير كوامن هذا التباين الطبقي الحاصل بين الفئات الاجتماعية وزرع الخوف في نفوسها على الدوام، ولاشك أن الحب هو نظام ثورة يسعى إليها المدرك لحجم الكارثة لتبيان حقيقة الصمود بوجه الجور والتخبط في الحياة في زمن الخوف والعوز الكبير، والذي يمكن أن يكون لصيقاً بالمجتمعات المحاصرة بأغلال الفقر والإهمال.

إن مباشرة ماسي بقراءة الكتب، جعله يبصر برفين وكلماتها المدوية في قلبه، وأمام لعنة الحدود، يجد للحب نكهة الألم وفهم مآسي مجتمعه المقسم بين من هم تحت الخط الحديدي ومن هم فوقه، إلا أن الحب لا يعترف بالألغام والأسلاك ولا يقيم وزناً لكل

الصعوبات القائمة، ونجد التأمل هنا طافحاً في ذروته يسبر الأغوار في النفس ويحاكي أعماقها، ويستنبط منها الدلالات والرؤى، ومنها نجد العلاقة بين السلوك والبيئة، في دوام عزلتها وأثر ذلك على سلوك الأفراد، فالتبصر في حياة الناس المقيمين في تلك الرقعة وحالة الإصرار على دوام الاتصال رغم تلك الأسلاك، هو ما راح يرسم المفاهيم المتصلة بالانتماء للأرض، ولقاء ذلك نجد الألم قد أخذ مناح وسياقات عدة تبعث على التفكير في مآسي من يعيشون في الرقعة التي تم تجزأتها وتحويل حياتها إلى ما يشبه مأساة ماثلة لا تتغير وتتشابك عقدها باستمرار، هنا تدور على الحدود الفاصلة ما بين كردستان الشمالية التابعة لتركيا والغربية التابعة لسوريا، قصة حب مؤلمة لم تكتمل بين ماسي وبرفين، الأخيرة التي زُفت لعريس غريب، فتنمو المأساة وتأخذ أشكالها المتعددة والتي تدور في فلك أبناء اللغة الواحدة، حيث الأسلاك لم تمنع من سريان الحب الذي يدفع ماسي إلى الاستغراق ملياً في تأمل هذا الوجع التاريخي.

إن الحديث عن هذه المأساة تدعونا إلى السفر في حقل الوجدان المدرك، لنتعرف على تأثيره العام في صناعة المخيلة التي تعي أن جوهر الحياة يكمن في الإيغال ملياً في الألم ومعرفة حكمته البعيدة، حيث الحب المنتهك في جغرافيا وادعة ومنسية، لهذا نجد هنا الجغرافيا المنسية تتحدث عن وجع المحبين للتوحد، هو ذاته أمنية الكردي في إزالة تلك الحدود التي تحارب إرادة عشاقها، ولكنها لا تستسلم لهذا الأنين الصادر عن قلوب أنقياءها ومعذبيها، فنجد بياناً لهذا الصراع القديم الأزلي بين أنصار الحب وأنصار الإقصاء والقمع، وقد استند هذا الصراع إلى حقيقة القيود الموزعة في كل مكان، ليقف المدرك بينها عاشقاً لأهمية الصفاء والبحث عنه، ومعرفياً يبحث عن سبل الخلاص من التبعية والانطواء في فلك العزلة والاغتراب.

تمضي الرواية في مسارها التأملي للبحث عن أسباب ودواعي هذا الاستنزاف النفسي الذي يعانيه الشخوص في ظل قلقهم من المستقبل الآتي، وفي ظل بروز التجهيل

السائد لحياة هذا المجتمع الريفي المحاط بعوائد دينية يميل أفرادها للخرافات والأقاويل دون فهم الحياة من منظور مختلف، فما المختلف على ضوء المعالجة النقدية للظواهر الاجتماعية كونها عاكس لمراحل تعسف السلطات القامعة ونيلها من تآلف المجتمعات في محاولتها لمناهضة الجور، إن بيان حقيقة المواجهة لهذه الأغلال التي جاءت نتيجة تلاقح بغيض بين السلطة ورجال الدين في إنشاء المنظومة الذكورية وإفشال الحب الذي سعى ماسي وبرفين إليها كتأكيد على حقيقة الترابط الاجتماعي وزيف الحدود ووهم الأسلاك، جاء الحب هنا للتعبير عن حالة الاتحاد الطبيعي بين الرجل والمرأة عبر الحقب الطويلة من الصراعات القهرية، فالصراع الفكري مشتق من قوة الإيمان بالعاطفة ومدى تحديها لقسوة الاغتراب والتوحش السائد، والذي يعكس بطبيعة الحال تجلياته على الأفراد ونزوعهم إلى التحرر والاستقلالية. إن اعتكاف ماسي على القراءة واستبدال مكتبته المملوءة بالكتب الدينية إلى كتب فلسفية تعكس في ذاته أسئلة البحث عن التغيير في ظل واقع قائم على النكوص والسبات، فهنا المرء المعرفي بعد اكتشاف نزيفه ومعرفة أن العالم يعج بالنقص، ذهب ليتقصى الحياة من خلال القراءة في الكتب التي تعكس مساعي عددة لفهم إرادة الإنسان في مواجهة العوائق والصعوبات الواقفة في طريقه، تلك الإرادة المفعمة بالطاقة والتي تنافس سعي أولئك المهيمنين على العقول بواسطة الخرافة.

يمككنا القول في هذا السياق أنَّ سعي الفرد المدرك في ظل المجتمع المنقسم بين فئة قليلة تتحكم في عقول فئة تعيش لتقتات الفتات في كل يوم، وتعيش على رقعة حدودية مفعمة بحكايا الانتماء المؤلم لوطن مقسم وقضية مبعثرة في أجزائها الأربع، هو تجلي حقيقي لمسيرة الحياة باتجاه الحرية والخلاص، وتسلك الرواية قضية المواجهة تلك لما تتخللها من صعوبات وعثرات وعلل تدك مفاصل الحياة الاجتماعية والمعيشية، وتحاول النيل من حقيقة هذه المواجهة، إلا أنها تفتح حتماً المجال لتساؤلات المتلقي وشجونه

في آن، وتعرفه على عالم الروح الجمعية لهذا المجتمع المهمّش والمنعزل، وخليط الأفكار والعادات والمعتقدات التي لها أثر في ترسيخ التخلف الاجتماعي والسياسي، حيث التباعد بين الرجل والمرأة، وخنق الحريات، وقتل الحب، وذلك الاغتراب الهائل بين الإنسان الفرد والمجموع يقتفي ذلك الألم الذي يعتصره: " أنا كلب الله الأصمّ والأبكم، كان يجب منذ تلك اللحظة وبين الناس الذين ينفرون منّا أن أحصل على قوُتي بنفسي إن كان ذلك بيسرٍ أو بالقوَّة ،أن أعثر على ركنٍ كي لا أتجمَّد من البردِ شتاءً في شوارعهم وأحمي نفسي من حجارة وطلقات وغدر هؤلاء البشر، وددت لو أستطيع فعلَ شيءٍ لأجله كي لا يدعني ويدع نفسه وحيداً، لكن عرفتُ أنّ الوقت قد تأخَّر وما من شيءٍ سيفيد، كنتُ سأملأ عيني برؤية "ماسي" وصباحاً أمضي في دربي لأعودَ بينَ الحين والآخر إلى بيته، أقاومُ لأجل أن أحيا.

أعمارُنا نحن الكلابِ قصيرةٌ، لكن إن أطالَ الله في عمري سأعود إلى "ماسي" مرَّةً أخرى، وإذا ضاقَت السُّبُل في وجهي فالحدودُ قريبةٌ، وككلبٍ ضجرٍ من نفسه بمقدوري أيضاً أن أتوجَّه نحو الحدود الملغَّمة وأنهي هذه الحياة الكلبة!" .

في هذا التعبير الصارخ يمكن استشعار المأساة على نحو أكثر درامية، فهنا يعبّر الكلب عن حياة الشرائح المعدومة التي تعيش حياة أشبه بحياتها، ولو أن التعبير جاء هنا على لسان حيوان يبصر وجع الذين يعايشون رهبة التأمل من على الحدود والأسلاك، إلا أن ذلك يواكب نفسياتهم، كونهم يعيشون حياة أشبه بحياة تلك الكلاب الخائفة من رصاص حماة الحدود، فأنسنة الكلب وسرده لأحزان ماسي مقصودة والغرض منها إحداث نوع من المقاربة على نحو ما، حيث الحاجة إلى التعاطف والحماية تجسد تلك المصالح الضرورية بين الإنسان والآخر، كما بين أفراد المجتمع ككل، وتلك القيم والمعايير الأخلاقية هي من الأشياء التي يمكن أن تقيم تعاقدات طبيعية أكثر ترسخاً مع الزمن، وهي ما تخلق مبدأ الالتزام المتبادل لمواجهة الأخطار الناتجة عن ضياع

الروابط القيمية إثر تفشـي الترهيب والعنف على نحو متصاعد، فالحياة الاجتماعية هنا تنحو منحى الانقسام والتصدع، نتيجة تفشي الجهل والفقر على حد سواء، إلا أن هذا الانقسام لم يقف حائلاً أمام نظرة الشعب الكردي إلى الحدود والأسلاك.

لا يخفـى أن الروائـي جعل من شخصـيَّة ماسـي بمثابـة المنقب عن ثـورةٍ ما تعيد الحياة إلى مجتمع يحتضـر، فماسـي يقرأ ليبحث عن أسـباب الويلات والضعف ومن ثم ليبدأ بالانتفاضـة عبر الحدود، التي سـتنجلي عن طور الصراع الضاري بين إعادة المجتمع لنهضـته وبين من يحولون ذلك وعبر زرع الألغام والأسلاك وإقامة الحدود، فـ بوزو يقرأ تداعيات ما يتجسـد في ملامح ماسـي ونواياه في تغيير قدر التاريخ وصناعة تاريخ جديد، وحاضر أفضل، فتلقي الوجع بشدة يليه فعل لمواجهته والاستعداد لخوض المشقة في سبيل دفعه، وهنا يحاول ماسي إبراز قوة الفرد في إبراز مكنون المجتمع وروح التغيـير الكامن فيـه وتحويله إلى واقع قائم، رغم أن هـذا التغيير محفوف بالمخاطر، ويتجلى في حالات الصـراع التي يخوضها الأفراد إلى جانب محاربتهم لتركة التقاليد والعادات البائدة المقتبسـة من تأثيرات الدين السياسي التي أصلت الذكورية في أعلى مسـتوياتها، مما سـيعاني الكثير في خضـم هـذه المواجهة، بمعنى آخـر، فإن الحرب الدائرة بين المجتمع وصناع الحدود والمآسي لن تكون مباشرة وإنما سيخوضون تجربة تلك الأغلال التي تكبل حركتهم والمتجسـدة بتقاليد الذكورة المتفشـية في مجتمع يقمع شبابه وشاباته عبر زجهم في عقود حياة تالفة وقمعهم للحب، وهكذا لا يغدو المجتمع، مجتمـع مواجهة، لكونه مقيـد بأغلال متشـابكة، إنها ترعى تركة السـلطة وعقيدتها البائسـة، يحاول ماسي هنا خوض غمار تجربة الانضمام للذين حملوا السلاح للدفاع عن قضـية تأبى التهميش وشـعب يأبى الانصـهار، وكذلك فإن جوهر بحث ماسي عن الحقيقة يكمن في رغبته في اكتشاف الحياة الأخرى التي تحمل في طياتها معاني تعزيز الإرادة وإزالة الحدود وكذلك إيجاد الحب الطبيعي بين الجبال وحياة الحرب والسعي

لأحلام تأبى التلاشي. إنها أحلام الوصال والرغبة في إيجاد حياة ذات معنى بعيد عن مجتمع مكبل بأغلال الذكورة وواقع صنعه الكبار وراسمي الخرائط والحدود، ممن أوجدوا أطراً للكراهية تتجسد في تقسيم كردستان، وبث الكراهية لأمد أطول بين شعوب الشرق الأوسط عبر حكوماتها المصطنعة، ممن أوجدت التباين وعززت من ترسيخ التخلف السياسي على نحو أكثر شناعة، فبانضمام ماسي لصفوف المقاتلين واعتزامه على خوض حياة يراها المثال لتحقيق أهدافه وأحلامه المنتهكة، تكمن تلك الجذوة في ترسيخ التحرر عبر الانقياد لنداء الفكر والوجدان معاً، حيث باتت الحدود محفزة على النفور من واقع يقض المضاجع، وكذلك البدء في البحث عن الحرية جليٌّ في فكر من تعرضت روحه للانتهاك ضد المفاهيم الذكورية والتسلط السلطوي الذي دأبت السلطات الشمولية في سلوكه لقهر كل تطلع لدى الفرد، فالمجتمع يبدي عجزاً كبيراً حينما يتم خنقه عبر إزاحة الحريات في حياته، وجعله هامشياً يعيش على فتات ما يقتاته كل يوم، وهذه العزلة الخانقة هي التي سببت مع الوقت احتقاناً عميقاً وكراهية لحياة البؤس ومسبيها على الدوام، لذا فإن الحروب تتضخم شيئاً فشيئاً لتغدو لزاماً على الأفراد لاستعادة دفة الحياة المنتهكة عبر ردح من الزمن، هكذا تغدو الحالة رهينة هذا الضغط المتصاعد شيئاً فشيئاً، حيث إرث المنظومة الأبوية يتقوض مع الوقت، ليحيل الجماهير إلى جمرات ملتهبة تحت الرماد، لقد تم نعت الإنسان البائس بالكلب وفق هذه الانزياح والإسلوب المؤنسن الذي ارتأى الروائي من وراءه التعبير عن قمة اليأس والألم التي وصل إليها الإنسان الكردي في ظل واقع أفرز عللاً جمة في مختلف الميادين والصعد. ودون شك أن ما يذكر المرء بالقيد هو ما جعل الحب يعج بالمآسي في واقع المجتمعات الشرق أوسطية والمتشبثة عن عمى بالمفاهيم الأبوية والتي نجحت السلطات المستبدة على المدى البعيد في ترسيخها عبر الدين والعادات والتقاليد، الأمر الذي أصّل من رسوخ الكراهية والنقمة الاجتماعية وهدد

بنحو ما بالانفجار الاجتماعي، لا سيَّما حينما يحدث الصراع المحتوم ما بين الجماهير الناقمة والسلطة الحديدية، ولا تتجلي سوى الفوضى الدموية كنتيجة عن هذا الصراع الطبقي المتوحش، بين جمهور الحاكم وجمهور المعارضة، فلا بد من سبر هذا الإشكال ملياً والإشارة إليه، لأنَّ قضية المواجهة تستلزم تذكراً لجل الخيبات والمصاعب الكامنة في علاقة الأفراد وتعاطيهم مع الحب، الزواج، السلطة، مفهومي الرذيلة والفضيلة، وذلك يستلزم بحثاً اجتماعياً متكاملاً، أما تعاطي الرواية لهذه القضايا فلا يتعدى أكثر من قدرته على المرور الدرامي متناولاً ذلك على نحو يبعث التأثير في الوجدان عبر دلالات اللغة وإيحاءاتها، وهنا يمكن للنقد أن يهب الإسقاطات المتعلقة بالرموز ومراميها،ويؤكد على توأمية العلاقة بين مختلف الفنون الإنسانية والأدبية كونها تعمد في مدلولاتها المتنوعة على وضع التجارب الإنسانية والإجتماعية موضع بحث وتنقيب، فالأفراد الحذقون يديرون دفة المتغيرات الاجتماعية على الدوام، رغم قلتهم، إلا أن قوة تأثيرهم على المجموع العام، تجعلهم أكثر رسوخاً في الذاكرة الجمعية، لهذا يتجلى نزوع الأفراد إلى التحرر بكونه شكل من أشكال التغيير الاجتماعي بفعل توالي الأزمات والنكبات بصورة تجعل من الحراك حتمياً وقائماً، ومتجلياً بتعريف العالم، مغزى تبدل الواقع وضرورته في تشكيل العقل الجديد، فالحديث عن العطش عند المسير بين الجبال يجعلنا نوغل ملياً في دلالة العطش، ووصف المقاتلين بالأسماك العطشى، ولهذا الظمأ انزياحه الذي يسير إلى مدى قدرة التحدي والإيمان بالقضية والتي تجعل المرء يحتمل أي شيء في سبيل الخروج من الصعوبات برباطة جأش أقوى، وكذلك فإن الإرادة الحالمة لا تتحول لحقيقة دون جماهير تقف وراءها، فكيف للأسماك أن تعيش دون ماء؟! وهكذا فالمعرفيون بحاجة إلى جماهير تتيقظ من خلال أفعالهم ومدركاتهم ونضالاتهم ضد قوى الجور والسلطوية القامعة، والتي تعتاش على فقر الشعوب وتقسيمها وتحويلها لفئات تغدو وقوداً للكراهية والعنف ونجد في الجبال

عدويــن مغايريــن يتحدان مقابــل المقاتلين الملتحقــين بالثورة وهما الطبيعة القاســية التي تضــعهم في محك مواجهة ضــارية معها، ناهيك عن كمائن العــدو واجتياحاتهم المتكررة، حيث نجد في ذلك التحام الإنسان بأرضه واعتقاده اليقين بأن طريق الحرية لا يمر إلا من فوهة البنادق، حيث أمام بطش وإرهاب المتسلطين يجدر أن تكون مقابلها القوة التي تدافع وتصمد حتى النهاية.

إن التشــبث بالجذور هو نتيجة فهم علاقة الإنسان بالوجود والوطن، وسعي ماسي في الذهــاب باتجاه الجبال هو في ســبيل التمســك بعهــد الحب المنتهك الذي ســيقوم بتدشــينه في الجبال، حيث الرغبة في صــنع الحرية ضمن عالم يتوحد فيه مع الطبيعة الأم ليغدو جزءاً منها، ومقابل ذلك الكم من التوحد بالهدف والغاية من حمل السلاح، تــبرز لعنات العدو في صــب جام غضــبه على القرويين من قصــف منازلهم بوحشــية وتجريدهم من كل مســتلزمات العيش وتحويل قسم منهم إلى عملاء وتابعين له، وهنا تضــطرب الصــورة ويتراءى له المشــهد المؤلم من مشاهد أشــلاء مبعثرة هنا وهناك، ومــا خلفه العــدوان التركي من دمار وتخريب في قرى كرديــة متاخمة للجبال، فببروز القمع على ضــراوته تشــتد المحن، ويصبح المقاتلون كالأســماك التي يتم إخراجها من المياه كي تغرق بهدوء، فحينما يســود الترهيب والضــغط على الشعب نجد أن خيارات الحياة تصبح أكثر صعوبة ويسود الخوف مناخات الذات ويجعلها تتشرذم بين أن تثور أو أن تنوء بنفسها وهكذا تصبح الشخصية الخائفة في مصيدة السلطوي الذي يزداد غروراً وغطرســة بازديــاد الخائفين أو اللاهثين لتقديم الولاء الأحادي لها، متناســين هول الجرائم التي تقترفها تلك الســلطة وهكذا يســتمر هذا الاحتقان الصامت ليظل عنوان المرحلة.

وعبر تشخيصــنا لحقيقة حمل الســلاح للدفاع عــن الأرض والمكتســبات، إنما في حقيقتــه هو تعبير عــن روح المعرفيين متماســكة الجذور من خطر الاقتــلاع أو الإبادة

بشـقيها الجسدي والثقافي، فكم صـارعت أمم في سبيل بقاءها وحضارتها ولم يك في بالها السـيطرة والهيمنة على مقدرات الغير، وكم من حروب كان هدفها طمس معالم الأمم المتحضـرة، حيث الصـراع على الجغرافيا في طبيعته صراع سلطوي اقتصادي تديـره مافيـات متحكمة بالمال والسـلاح، وإزاء ذلك تتغير الجماهـير في ظل التهديد الممارَس ضـدَّها لتنتقل لوضـع حلول طبيعيـة تتمثل في بعث الإنسـان الجديد، المؤمن بالجذور والحفاظ على البناء، فالحلول تضـعها الجماعات المسالمة في تشبثها بالحياة المشـتركة، والتي بدورها تسهم في التأثير بشكل مباشر في بنية العقل الشرق أوسطي، فلا بد إذاً من التأكيد على حقيقة هذا الصـراع، والذي بغلبة الجماهير يمكن تحقيق منطق جديد للفكر باتجاه العيش المشـترك، ولا شـك أن هذا الانتقال أيضاً ينطوي في داخلـه على كثير من التحديات والمصـاعب، فليسـت الحلول عبارة عـن بنود وتعاليم توضع على لوائح الإعلانات وبرامج الأحزاب بقدر ما هي تعبير عن إرادة الحياة لدى شـعوب تحاول أن تنتصر في صـمودها على النظم المتربعة كالكابوس في حياتها وفكر أفرادها الجدد.

في رحلة سـبرنا لـ حين تعطش الأسـماك من باب الإلمام بماهية الرموز التي تشـير إليها المشاهد المعبرة عن وجدانية الحدث، كالدماء التي على ماسي، ومشاهد الخراب إبـان سـقوط القذائف ومآلات الطفولـة الغارقة في الويل ومن ثم جعل المآسـي ميداناً للتفكـر بحقيقـة السـلطة الباحثة عـن الهيمنة والمزيد مـن البطش وإذلال الضـعاف وزجهـم في آلام وأعبـاء كبـيرة لا تنتهـي، فصـناعة الألم والموت هما عـدوى نقلتهما السـلطات الشـمولية لجماهيرها وأحزابها، وباتت نوعاً من الإذلال الروحي والفكري، لتقـديم المزيد من القرابين والأضـحيات لصـالح وجود الاسـتبداد الـذي بات الورم السرطاني الكبير والذي يمكن أن نقول أنه المنافس القديم لأي علة مجتمعية أو ثقافية أو اقتصـادية يشـهدها العالم، ولاشـك أن مقولة العالم المتمدن أو الحر مشكوك بها،

إذ كثيراً ما تمتثل إجمالاً للإبقاء على النظم المستبدة، لأجل الإبقاء على مصالحها، ليصبح التستر على القاتل والقتيل عملها الإضطراري المفضل، وهذا ما حاول الروائي نقله وتصويره استناداً لتجارب المجتمع الكردي مع تلك الأنظمة الفاشية في كل من سوريا والعراق وإيران وتركيا.

لا يمكن للمعرفيين أن يقفوا على الحياد في رؤيتهم للنفاق الدولي والجشع الوحشي الذي يقتلع الأخضر واليابس، إنهم يسعون عبر العلوم والآداب الإنسانية والفنون إلى تعرية المصطفين إلى جانب التدمير لأجل الربح، وينشدون الخير والحق والجمال في بيئات تسحق فيها الطفولة تحت وطأة القصف، ويسحق الحب تحت وطأة العادات أو التشويه الإعلامي له، إنما عظمة الصراع من جودة المنجز، فما الحضارات والآثار إلا شاهداً على مواهب المعرفيين في الوجود.

لطالما كان الصراع حول فكرة فصل المعرفيين عن رجالات السلطة شاقاً وعصيباً، فإنه من الممكن أن يكون ثمة محافل مستقلة تستطيع إلزام السلطويين على ضرورة عدم استنزاف المعرفيين أو تدجينهم، في زمن استطاع المفكر المبدع أن يقوم بإيصال صوته وفكره ومواهبه للناس، إلا أن هذا الرهان مازال محفوفاً بالضبابية، فالسلطة تستطيع مع مرور الحقب أن تنتج أدواتها القمعية في لجم الإبداع في تخطي أو تجاوز حرم السلطة، ولاسيما أن الإعلام يؤدي هذه الوظيفة بمهارة فائقة، وهو قادر على تجزئة الإنسانية في البكاء على مجزرة حدثت هناك في حين يستطيع غض الطرف عن مجزرة حدثت بجواره، فالإنسان بات قيد التصدير والاستيراد، وظل لزاماً على السلطات أن تبدل أقنعتها وتستعير أوجهاً مغايرة تماماً لحقيقتها متى شاءت، ولعل الرواية هي أحد الحقول الإنسانية المعنية في مواجهة الإيديولوجية الهادفة للاحتقان والعداء، كونها تنقل المأساة للمتلقي، ليضعها باعتباره، كون مسببها هو ذلك الاقتران الخبيث بين نخبة السلطة والجماهير الحانقة، والمتلقي بقدر ما ينظر للرواية كونها

ميـدان معالجـة نزوات الطيش والانفعال الجماهـيري، بقدر ما تسـهم في ردع ذلك القطيـع الهائـج واللاهـث لقبول الخطـاب العدائـي والذي يلحـق بالمجتمع أضـراراً بليغة، فهل تعد الرواية على ضـوء ذلك بمثابة الرادع لهفوات وانفعالات الذات القابلة للتدجين تحت وطأة التجييش الإيديولوجي؟! مما لا ريب فيه فإن هذا التسـاؤل يجعلنا نتأمل ملياً مسـارات تجربة الروائي حليم يوسـف في الإلمام بمعاناة الجماهير المنكوبة والواقعة ضحية الهجوم السلطوي المغلف بهيجان جماهيرها ضدها، فغايات الاستبداد السياسي كامنة في بعث الخوف والتقسيم الاجتماعي بين جمهور يعتد بخطاب السلطة التي تسـوق مثالاً الأمجاد القومية وبضـرورة الحذر من المكونات الخارجة عن الحالة القوميـة تلك بوصـفها خطراً علـى الوطن، هذا ما سـوقه الخطـاب القومي العربي في وصـف المكونات غير العربية بالعميلة والسـاعية أبداً للنيل مـن الأحلام الوحدوية وكذلك الاتصـال بأعداء البلاد، بغية تقسيمها، كما الخطاب التركي العنصري الذي اعتبر كل الشعوب التي تعيش في تركيا، باعتبارها شعباً تركياً واحداً، عدا تلك النظرة الدونية لها باعتبار تلك الشعوب عبارة عن مستتركين ولا يتمتعون بنقاوة العرق خلاف التركـي النقي عرقياً، وكذلك الخطاب الفارسـي الذي يعتبر كل الشـعوب التي تعيش في إيران على أنها شـعب فارسـي واحـد، فأمام هذا الـتراث الإيديولوجي القائم على الكراهية والتقسـيم الروحي بين الشـعوب، نجد أن الحروب والتناقضات قائمة وتنمو باسـتمرار، وأمام هياجها تحاول العلوم الإنسـانية أن تشـغل وظيفة المصلح الخجول، أما الرواية فلها مسارها المتمايز والمختلف، حين تذهب مذهب إبراز المأساة الإنسانية على نحو يبعث على التأمل والاعتبار، بغية المحاولات المستترة لبلورة خطاب فعال قادر على اختراق بنية الخطاب الإيديولوجي التسـعيري والهادف إلى الحرب والشقاق على أمـد بعيد، هذا الخطـاب الذي يتحدث بصـفة المقدس بل ويدخل الديـن في متاهاته ليبرر القتل والكراهية مضـفية عليها المقدس كتبرير مشرعن، لقي الرواج الكبير لدى

الفئات العاجزة عن تحريك أدمغتها والتفكير بالحاضر ومتطلباته فراحت تسير في منحى عبادة القومية كوثن، واتخاذ الحرب الجماهيرية وسيلة للوصول إلى نعيم ما بعد الموت.

إن عزوف ماسي عن قراءة الكتب التقليدية والاعتكاف على قراءة الفلسفة لهو دعوة لفهم مغاير للحياة على نحو يسهم بالخلاص، وكذلك فإن رحلة بحثه عن حبيبته برفين في رقعة الأرض المقابلة والتي تتوسطها الألغام والأسلاك الشائكة هو بمثابة البحث عن مخارج من هذه الأزمة الخانقة العاصفة دواخل الشعب الكردي والذهاب باتجاه برفين الوطن، لتخليصها من حماة التقسيم والظلم وقتل الحب والأحلام البريئة، إن سعيه باتجاه إيجاد برفين في تلك الجبال هو سعي في جوهره للحرية المشتهاة والخلاص المنشود والذي لا يتحقق إلا بالقتال والمواجهة، حيث ممارسة القمع والتهويم هو من عمل السلطات الفاشية ممن وجدت من تقسيم المجتمعات وزرع الكراهية والشقاق في أوساطها وسيلة تضمن بقاءها عبر التاريخ.

نجد أيضاً أن غريزة الانقسام جلية في أوساط المجتمعات الشرق أوسطية عموماً والكردية خصوصاً، كون ذلك يجعل المنطقة المستعرة وبالاً على بعضها البعض، دون التوصل لحياة أكثر تنظيماً ووصولاً للجلوس لأجل تأييد القواسم المشتركة التي قد توحد أبناء القضية الواحدة أو اللغة الواحدة، إلَّا أن الحل المعرفي يكمن في تجاوز العقلية القومية بتركيبتها السلطوية للإنفتاح المشترك بين هذه الشعوب المجاورة والمتداخلة ببعضها البعض بحكم التاريخ والجغرافيا.

لا شك في أنَّ تسجيل الإخفاقات والمحاولات هو من عمل الرواية الإنسانية، وكذلك فإن التأويل فيه من عمل الناقد، ولعل إيصال الرسائل المرموزة وفك شيفراتها يعتمد على المنهج المحدد لإعادة فهمه، ومن هنا كانت الرواية الحقة حليفة العمل النقدي الهادف والجيد، ولعلنا على ضوء ذلك يمكننا فهم الحدث انطلاقاً من دوره في قيادة

الإنسان والمجتمع في ظل الحرب والتحديات التي تفرضها السلطة، وهي بدورها تعمل على تعميق الهوة بأشكال عديدة للحد من انتقال الأفراد بشرائحهم المختلفة ونخص المستنيرة إلى طور البناء والرفاهية، فمهمة السلطات المركزية الحفاظ على تقاليدها ولو على جبال من جماجم الأبرياء والناس الآمنين، وأمام ذلك لا نجد الفن إلا بمثابة من ينحت على الصخر رغم هول الصعوبات وشحوب المشهد الدامي، إذ نجد حليم يوسف يسبر أغوار المناخ العام المكتظ بالشجون والآلام التي يلاقيها ماسي في رحلته باتجاه معرفة وفهم الذات في إطار عالم لا متسامح يسوده الموت والاحتقان، حيث لا تعنى الحروب بعلم الإنسان والفنون المتداخلة بالمأساة الإنسانية، لأنَّ إبعاد الفنون عن المجتمعات هو تعبير عن رغبة في تحويلها إلى وقود لأزمات لا ينتصر فيها أحد، يمكن فهم الصراعات الشرق أوسطية بأنها في قسم كبير منها استماتة شعبية غير مدروسة في إسقاط النظم الاستبدادية على نحو خائب تعمه الانكسارات والمآسي، والقسم الآخر يتمثل في انفجار التناقضات الداخلية لطبيعة المنظومة السياسية وعلاقتها مع الخارج الإقليمي والدولي، لكل ذلك انعكاس رديء على المجتمعات المتشرذمة والتي يتحتم عليها العيش بقلق وبؤس وتشرد، فالرواية لسان حال الفئات الأكثر خسراناً في معادلة الصراعات الواقعة تحت ضغط الصفقات والأزمات الاقتصادية التي تديرها شركات السلاح، وهم على تواطئهم الجلي مع أرباب النظم الاستبدادية عاثوا فساداً في كل مكان على رقعة الشرق الأوسط.

لقد تحدث حليم يوسف في معرض روايته عن تركيبة النظم التي تتقاسم كردستان وذهنيتها البوليسية، في نجاحها الكبير في تأصيل الخوف عبر شبكتها الأمنية والتي مهدت لصمت مطبق عمَّ شرائح المجتمع، فإذا هي قامعة بعضها البعض، وغير قادرة على سحب أنفاسها في ظل هذا الحصار المطبق،حيث يمكن أن نلحظ أن كل ثائر جيء به للجبال وراءه قصة بائسة، أو أحداث جعلته يحس أن ما من طريق للخلاص

مــن نفاق المجتمع وتخلفــه إلا عبر بوابة الطبيعة حيث الصــفاء المفقود، إذ لطالما كان لجوء الإنســان إلى البراري وســيلة لنسيان مأســاة الآخر وجوره، وأمام ذلك الضغط الســلطوي عبر فروعه المتطاولة ونعني به سدنة التقاليد والأعراف، لا نجد إلا الفارين والمنكوبين ممن يتحسســون جذر المعضلة والتي هي تلك السلطة القمعية، فهي نجحت في إغواء المجتمع بالمال والدين والانحلال، وتهديدهم تارة أخرى بوسائل العنف والقمع والاجتثاث، أمام هذا الضــغط المتزامن مع تغييرات الحاضر ووصول المجتمعات لوعي بأهميــة الحراك والتطلع للنهضــة والتغيير، نجد أنَّ الآمال ترتقي وتمضــي نحو الموج المتحرك والخلاص المنشود.

لامس حليم يوســف في الرواية معاناة المقاتلين الكرد في الجبال وحجم الصعوبات التي يلاقونها في طريقهم مقابل وحشــية الجنرالات وســاديتهم وخوفهم المســتمر، إن لحظة الغضــب الجماهيرية تــزداد مع ازدياد شــعورها بفداحة الظلــم والمعاناة التي ترتكب بحقها مع الزمن، فالاجتثاث والصــهر الدائــم هو ما جعل الخوف خبز الدولة التركيــة التــي تهبــه لتلك المجتمعات غــير التركية، بصــفتها مجتمعات يجــدر بها أن تقتنــع بحقيقة أن تكــون تركية، وإلا فلا مكان لها في تلك الرقعة، إنه اســتبداد محاط بإيديولوجية الكراهية والاحتقار العنصــري، يتم غرســها في أذهان الأجيال، وتســهم في نقل تركة المظالم من عصــر لآخر، تلك العقلية ما لم تتغير ستدفع بالكثيرين وقوداً لتلك الحرب الإيديولوجية التي هدفها طمس معالم تعايش مشترك، حيث يمكن شراء الجماهــير عــن طريق المال ودفعهم ليكونــوا مأجورين يقومون بقتل بعضــهم البعض، وزج الذين يرفضــون ذلك في الســجون والأقبية، حيث المال يعني الانصهار في البوتقة التركية، والخوف يعني الموت أو الاعتقال، فتلك المظالم جعلت الشعوب تسير إلى طريق مظلمــة، حيــث بتنا ندرك أن وحشــية هذه المنظومات الشــمولية تفــوق قوة الجماهير المغلوبة عن أمرها في قدرتها على دفعها وإسقاطها.

إن وحـدة الوجـدان المعـرفي لـدى أصـحاب المواهب والمـدركات الذيـن يواجهون الإرهاب الدولي أو التنظيمي ، ضـرورة ملحة لمواجهة الانصـهار والإقصاء والجبروت الذي تفرضـه السلطات الوحشـية في الشرق الأوسـط، ونجد اليوم العالم وكأنه قرية تنـوء بأعباء العاطلين عن عمل الخير إزاء فئـة تنبت ببطء من بين الركام، لهذا نجد أن الصـراع نحو الأفضـل، هو ما يعم أذهان المدركين بضـرورة توجيه الثقل نحو فهم الحياة والانتصار للحق والخير والجمال.

"ابتلعت العتمةُ الأرضَ ووصلوا إلى رفاقهم، خَفُتَ صوت السلاح مع حلول الليل ليتوقّـف نهائيًـاً، حان الوقـت ليسـعفوا جرحاهم، ثمانيةُ أشـخاص برفقة "ماسـي" ورفيقهـم المعـروفُ بالـ دكتور تسـبقهم بغلتان سـاروا في الطريق، أربعـةٌ منهم لجلب الجرحى وأربعةٌ آخرون لدفن أجساد رفاقهم، كان الجريحان قد زحفا قليلاً نحو النبع دون أن يصـلا إليه، وُضِـعَا على ظهر البغلتين وقد فقدا وعييهما ومضى الجميع، انتبه "ماسي" ورفاقه إلى مخلّفات المعركة الغادرة، لم يصدِّق ما رآه، كانوا قد أحرقوا أربعة أجسـاد. رمـادُ اللحم، عظامٌ وأرواح رفاقـه الذين كانوا معه ذلك اليوم حيثُ جلسـوا معاً ونهضـوا كذلك، ضـحكوا وبكوا وتحدّثوا عن أحلامهم، ملأت هذه المشاهدُ عينيه رمـاداً، كادَ أن يفقُدَ بصـره، لم يعد يبصـرُ أمامـه، وحين تذكّر أنّ غاية العسـكرِ من الحرق هي زرع الخوف في قلوبهم، استقامَ عائداً إلى قوّته كي لا يحقّقَ مُرادهم. نافراً فكّر بمن بمقدوره أن يعذِّبَ جسدَ ميِّت:

- ما هؤلاء البشر الذين لا يتحمَّلون حتى رؤيتنا أمواتاً..."

إن التحريض على الكراهية وإبداءه كسلوك ينم عن تطبع غريزي ممنهج به، عمل يعد ثقافة متأصلة تنفث زعاف سمها تلك السلطة الإقصائية لتكون مثار حروب أهلية قادمـة تفتك بالأبرياء، حيث أن ترويجها يمثل في صـميمه أزمة السـلطة التي تعممها في مفاصـل وروح المؤسسـات التعليمية والإعلامية ، وتغرسـها على الصـعيد التربوي

والثقافي، مما يجعل ذلك المجتمع على شفير هاوية، إذ أن الانفجار فيه محتوم ودوماً يبلغ أوجه لو ببطء، فمع مرور الوقت يتحول الخوف في ماهيته لنفور داخل الفرد الخائف، وشجاعة تنمو لتجاوزه مع الوقت، إن تجاوز منتوج الخوف لا يأتي إلا بعد احتقان متراكم، ولاشك أن الجماهير تتأثر بفعل الخوف كما تتأثر عن طريق خطاب الكراهية، فغالباً تحيط السلطة الفئوية حول نفسها بطبقة جماهيرية مسلحة تشرى بالمال ، هدفها قمع الفئات المسحوقة ممن تعاني صنوف الجور والاستعباد، إن طريق الدم يبدأ من تأليب السلطة المجتمع بعضه بعضاً، هذا من شأنه تدمير البنى وتفكيك المؤسسات، وتجزئة البلاد وتفتيتها، وذلك يصب في النهاية لصالح القوى المسؤولة عن انهيار الدول وصناعة الأزمات.

الحرب هي نتيجة ضغوطات متراكمة وتجلي لكمية الأحقاد البشرية التي تنمو باطراد بالتزامن مع شدة القمع وتكميم الأفواه، حيث تظهر الرواية هنا بوصفها توثيقاً لهالة الحدث، وتجسيداً لسلوكيات البشر، وهذا العقد المشوه بين الحاكم والمحكوم، ورداءة التعاقد الاجتماعي وفساده، لربما تكون في مضمونها مروراً أكثر حساسية لمراحل القهر البشري وأطوار جشع السلطة وتوحشها، ورصداً دقيقاً لمعاناة الإنسان الكردي على جغرافية وطنه المغتصبة، فعلى الرغم من المظالم الاجتماعية المتعددة وهذا الجور المنهج، نجد الأمل عاقداً عزمه في بث الحياة في نفوس المحاربين الذين يؤدون وظيفتهم في بيان الصمود والمواجهة إزاء ذلك التوحش الممارس، وبذلك نجد أنه ثمة صراعين ممتازين يشتعلان بأزلية عهد التنازع بين البشر من ناحية وبينهم والفئة المهيمنة من ناحية أخرى، ذلك يحتم على الأدب مواكبة ذلك بشفافية ودرامية عالية التأثير، منتصرة في ذلك لقيم النهوض إزاء مفاهيم الخوف والكراهية، حيث لا يتحتم لا على الروائي أو الناقد أن يصبح رهين الاصطفافات السياسية، بقدر ما عليه أن يعالج ويبرز ويدع المجال للمتلقي لفهم الحدث وتداعياته استناداً لرؤيته الذاتية،

ذلك ليس بالأمر اليسير ولا سيما أن الذات لها ما يبرر عزمها في إيقاد التساؤلات، وإبراز الموقف إزاء الحدث والمأساة، حيث تلعب الرواية في إيجاد مناخات لفهم الحدث ودلالاته استناداً إلى تحريك الوجدان والإدراك على نحو متزامن، في حين يلعب النقد وظيفته الرامية إلى إيجاد مقاربات وتأويلات تتنافر أو تتآلف مع البناء الروائي، لتعيد الرواية إلى ساحة التأمل المجرد، والذي يبعث على الكتابة جودة إبداعية مغايرة للتي أوجدها المبدع في سياق روايته بأحداثها وشخوصها، حيث تعبر الرواية عن ذلك التاريخ الغائب والمهمش والمستوحى من معاناة الناس وأحلامهم المنتهكة على ساحة الصراع الدامي، فهي بعرضها للأحداث ومراجعتها للمواقف، تعمل على تقويم وتصحيح التاريخ المحرف الذي ابتدعه السلطويون المنتصرون، وبذلك توجد أرضية مختلفة للحدث استناداً على الوجدان والذاكرة الاجتماعية، فالحرب الداخلية في الرواية تجسيد لآمال الناس وآلامها في زوال القمع السلطوي وعودة الحياة للأفضل دونما إرهاب على مستوى الأفراد أو الدولة، إذ إن ذلك لا يتحقق في ظل الكراهية المتبادلة بين الحاكم والمحكوم، فالرواية تعمل على نقل الآلام وإعطاءها ذلك البعد الدرامي الفني وفق منحى مختلف عن المقالات والبحوث الموضوعية، حيث نجد الرواية الكردية على ضوء تجربة حليم يوسف في رواية "حين تعطش الأسماك" أرشيفاً للخيبات على مسرح الحب والأرض، وفرصة للمضي قدماً لانتزاع الأمل المعتقل، إنها مسيرة البحث عن الحرية التي تعد بمثابة التحدي للجماعات المستعبدة ممن فرت إلى الجبال، لتكون معاقلاً لمواجهة الغطرسة والقمع، ومن هناك تبدأ الرحلة المريرة بالبحث عن مجتمع خالٍ من العبودية. فالحديث عن مسيرة المقاتلين بين الجبال وعن افتقادهم أحياناً للطعام والشراب، إلى الأحاديث والجدل الدائر في الطريق، كل ذلك يعكس مفهوم البساطة والحياة لدى هذه الجماعات الهاربة، والتي يجمعها هدف البقاء والدفاع عن مجموع الغايات والأفكار التي يتحلقون حولها، كذلك فإن رصد هذه المشاهد

ومواكبة سـحنات الأفراد وأحاديثهم، هو بمثابة إيضـاح للمناخ الروائي بكونه مصدراً رئيسياً لاستشـفاف الوجع وسرده، ويمكننا عبر ذلك فهم العمل الروائي كونه يتحدث عـن ماهية تلك العلاقـة الأكيدة بين الفن والفكر، وبذلك فإعـادة النظر للعالم بكونه لوحة مستوحاة عن الأصل (الطبيعية) ومحاكاته عبر الفن، يجعلنا نصل للتأويل ومنه إلى النقـد، ذلك يعزز في ذهننا ماهية الارتباط الجيد بين صـنوف العلوم الإنسـانية كونها تحثنا على الاستكشـاف الإبداعي لمفهوم أن الحياة صـراع بين الأضداد، والفن يبحث عن الجمال والقيمة في هذا الصـراع، فبتفاقم المعضـلات تنشـأ الاضطرابات وتنعـدم الرؤى وتتعدد احتمالات الموت، مع ضـراوة المواجهة بين أنصـار الأرض وقوى الغطرسة، وتشتد المعارك، حيث تتنازع الجماهير فيما بينها عبثاً، لتنال حصة تعبها، تلك القوى السـاعية للتحكم وتوجيه الرأي العام، فيما يسـعى القلم الإبداعي، لإعادة الإنسـان للذهن المتقد بعيداً عن سـاحات الاغتراب والاسـتنزاف، هنا تتوجه الرواية لمخاطبة الوجدان الجمعي انطلاقاً من مسـيرة الجماعات البشـرية للتشبث بجذورها رغم البطش والقمع والموت، فحين توصـيف طبيعة الجبال ووعورتها والاشتباك نلمس الحالة الكردية الطامحة للتغيير والتي مرت بعقود من الحرب والموت والتصـفيات، إن روايـة الثورة الكردية تغدو في مضـامينها، أماكن يحياها الفـن الوجداني بكل لذاعة ورهافة، لاسيما وإن حياة القتال في الجبال مليئة بقصص ومآسٍ يمكن عبرها نشدان الرواية لتغدو عبارة عن قاموس لنضـالات الشـعب الكردي في خضم مآسيه وفي ذروة كفاحه لأجل الخلاص والتحول للدمقرطة.

ماسي هو الشخصية الباحثة عن وطن في صورة برفين، وفي صورة بريفان المقاتلة، وتـارة في مشـاهد الحـرق والتنكيل بالجثث ووصـايا الجرحى ممن يـكادون يفارقون الحياة، في جعبته أشياء كثيرة وتساؤلات جمة لم يجد لها أجوبة، إلا أن العمل الروائي برمته هو محاولة لاستنطاق الأفكار واقتناص التأويلات عبر رصد أحداث تتعلق بحجم

الرسـائل المغلفة بطابع وجداني، يهدف لإيجاد مسـاحات للاستكشـاف بين مفردات تتضوع حكايا ومعاناة، فملامسة الداخل والإدراك عبر اتحاد الوجدان مع الفكر هو ما تنشـده الرواية المرمّزة والهادفة لنقل رسـائل تتجاوز تصورات العقل المجردة، إذ من خلاله تسـتطيع إقناع المتلقي بضرورة نشدان العمق في معالجة الحدث استناداً لمعاناة الإنسـان وتجاربه على ضـوء القمع الممارس، فأمام كون معقد مليء بتسـاؤلات ناتجة عن سـلوكيات الجشعين، تعبر الرواية عن احتجاج معلن إزاء آلام الجماعات ونزوحها المستمر، وتعبر في الآن ذاته عن مسببات التنازع ونشوب الصراع، وهنا التأويل النقدي يشـرع أبوابـه أمام دلالات الرمـز والحدث، اسـتناداً لفهم مختلف للحالـة بعيداً عن القوالب الإيديولوجية المعطلة بالضرورة للفعل الإبداعي الحر، فالملفت في الرواية أنها تفتح أمام الأذهان سيول الاحتمالات والأسئلة المفتوحة، وعبر ذلك نجد النقد في حلبة الاستكشـاف طليقاً وحراً بمخرجات الأفكار وطرق تدفقهـا دونما أي إعاقة أو تكلف، فما بـين الانطباع والنقد نجد مسـارات الأفكار متباينة تذهب مذهـب الإتيان بتآويل فلسـفية، منها ما يخص الواقع السياسـي، وتذهب لأبعد من ذلـك في أحايين أخرى لتتصـدى لقضايا شـائكة وتعمد على التنقيب المركز عنها، فأمام مشاهد الحرب مع العدو والرغبة في البقاء ومحاربة الجوع والسير باتجاه تأمين ما يتيسر لأجل الصمود، كل ذلـك مدعاة تفكر وتدبر في تجارب الأحـرار لأجل حياة ذات معنى تتمثل بمواجهة قوى الإبادة والصهر والتي تسعى بكل قوتها لإبادة الشعب الكردي بوسائل متعددة.

تعالـج الرواية الاجتماعية حديـث الأفراد والجماعات التي تعاني المأسـاة وتزداد غربتها وعزلتها بتكالب وحشـية القوة الاحتكارية والتي اسـتخدمت كل شـيء لصالح بقاءها وتأصـل منظومتها، إذ تضـع حجر أسـاس لحروب أهلية طويلة الأمد ما تلبث أن تشـتعل بها المناطق الآمنة أيضـاً، ولا يحصـد ريعها سـوى تجار الحروب والأزمات ممن يتلاعبـون بالعقول ويتحكمون بالرأي العام، إذ حينمـا تتعش جيوبهم لا يهمهم

ما يهم الروائي الإنسان من الاهتمام أكثر بالإنسان وإحاطته بالرعاية والاهتمام، هنا تعمل الرواية على الجانب الآخر المتواري من الصـراع، فتعكس قاموس الروح الجمعية التـي تعاني من ضـغط الهيمنة والتحكم، فالحديث عن الثوابـت والقيم تجيده الفنون الإنسـانية على نحو يسـير، ولا يتصـل بالضـرورة بإملاءات الأخيرة، والتي تحاول أن تهيمن حتى على الأدب والفكر، بوصفهما طريقان يسيران نحو التحكم بالجماهير من بوابة الاهتمام بالأديب المرتهن القادر على إثارة اللواعج حول قضـية ما على حسـاب قضايا أخرى، إلا أن المتلقي الفطن قادر على نحو ما بفهم وتمييز ما هو رديء وما هو قريب من الذات العليا، لهذا فالصـراع على أشـده ، يستعر في كافة الميادين والصعد، والأدب يواكب بكاميرا الأسـلوب مصـائر البشر وأطوار عيشـهم تبعاً لتطور المنظومة السياسـية أو تقهقرها، إذ تعنى الرواية بتجسـيد الظاهرة وتحليلها انطلاقاً من البعد النفسـي والمـكاني وما يتخللـه من أحـداث يمكن أن تترجـم طريقة التفكـير وتنافر الأمزجة اسـتناداً لقسوة الطبيعة الجبلية وحالة الحرب، الكر والفر، حرب العصابات وطريفة فهم الحياة، استناداً لتجربة الاشتراكية الثورية، ومحاولة فهم طبيعة المجتمع الكردي في ظل النظام التركي الشـمولي، لقد تم خداع الشـعوب بزيف العلمانية التي لم تتخلص من عبوديتها لإرث التقاليد المطلقة المستقاة من تقاليد السلطنة العثمانية، خلقت نواة لمجتمع متفسـخ أشـبه بجثة متآكلة، حيث تتوفر مقومات التنافر والكراهية داخل مجتمعات محتقنة لا تتوفر فيها معايير الحياة التشاركية، وكذلك أسهم البغض في وضـع حياة قائمـة على الجور والفسـاد، تفتقر لأجـواء الديمقراطيـة الجوهرية، ومشـيعة عسكرة الحياة وجعلها أشـبه بحياة تتخللها أجواء الطوارئ والرقابة على كل شـيء، عدا الذين يقتاتون من الفسـاد والانحلال، فهم قادة مفاصـل تلك المؤسسات ومروجوا العنف المجتمعي عبر تشـبثهم بإرث الفكر الشـمولي ومنابعه الأولى فالحكم العرقـي، جعل المجتمعـات في خطر وأبرز روح الكراهية وجعلهـا بنية العقد الخطر ما

بين الحاكم والمحكوم، فالصراع بات لدفع المظالم التي تتعدد أشكالها وتمارس بهدف الإبادة السياسية والثقافية لشعب حي ويأبى الانقراض، وقد ظل يواجه الانصهار عبر توالي التحديات وصنوف الضغوط، ولعل أنموذج حرب العصابات، تعبير عن حقيقة التطلع للحرية والاستقلال على الرغم من ضآلة الإمكانات وتشتت القوى على طول رقعة الوطن المقسم، إلا أنه وعلى الرغم من طبيعة الظروف والمراحل العصيبة التي لم تتمكن من انتزاع الرغبة في صنع عالم أفضل لمجتمع متمايز بلغته وجغرافيته وثقافته، فهنا نجد العلاقة بين ماسي وبريفان في أوج ألمها، حيث الجرح واشتداد المعارك لا يستطيع أن يغلق قنوات الكآبة والحاجة للحب، فما هذا التوازي في علاقة الحدث مع الشجون، نجد مسحة الأحزان والتأملات في طريقها للتوثب في مكامن النص المستفحل بتجسيد المعاناة وتراكمها في حضرة الألم الجسدي الذي بدوره يستحضر مناحي الألم المتعددة، فلكل ثائر حكاية تجسد جزئية من روح المظلومية الكردية، ولا سيما إن الحديث عن هذه التقاطعات الوجدانية هو مثار عمل الأدب في الكشف عن مواطن المعاناة عبر المشاهد المستوحاة من الأحداث المؤلمة والتي ترسم لوحات غاية في الإثارة وتبعث على الكآبة والاستغراق في روح الأسلوب وتعاطيه مع حساسية الروح التي يسبر الروائي عنها بحرفية المتألم المبدع، إن تسليط الضوء على الجرح في المشهد هو إثر معالجة درامية قائمة على استثارة اللواعج في محاولة الحديث عن تلك المصائر المنتهكة التي تحيط بإنسان الجبل، المحتمي بين المرتفعات والسفوح من قصف دائم يتربص به، واجتياحات ليست في الحسبان، الجريحان ماسي وبريفان، يتخذان من الجراح متكأ للحديث والبوح الغزير، إذ يحاكيان في بوحهما الألم الجمعي الذي يختلج في أذهان ونفوس المجتمع الكردي الذي يتعرض لأقسى درجات التهميش والصهر.

◆ البطل في الرواية :

لا شكّ وأنّ حليم يوسف يتحدّث عن البطل من خلال البيئة التي ترعرع فيها وحالة الحب التي عاشها ماسي مع برفين ومحاولته نشدان هذا الحب بطريقة ما في اتجاه البحث عن الخلاص من واقع الإقصاء والتهميش، لعل التقائه ببرفين في شخص بريفان إشارة إلى رحلة سبر الأنثى في سياق التعريف عن جدلية الصراع من أجل إيجاد مجتمع معرفي طبيعي، قادر على حمل السلاح إلى جانب التنوير، إلا أن الجبال تخبر المقاتلين بصعوبات جمة تعد بمثابة اختبار للإرادة ومدى قدرة النفس على الاحتمال في عبور المشقات والأهوال، إذ ليس من السهل الصمود مالم يك ثمة هدف متبلور يقود المرء إلى حلبات الصراع الجسدي والمعنوي، فالرواية هنا تجسد تلك الوقائع والحقائق المؤلمة في سياق درامي وجداني يلامس الذات الفاحصة والمنقبة، كما تلامس الذات المتلقية ونعني بذلك الناقد والجمهور، في إطار الكشف عن روح المجتمع الفاقد لبوصلة التنظيم وأصوله في ظل الفوضى والقمع السلطوي الذي أربك الحياة بمفاصلها ومستوياتها وجعل العقل نامياً والألم متربصاً في واقع المجتمع الكردي في كردستان الشمالية (تركيا).

إن يقظة المعرفيين في البيئات المحتقنة إثر الإقصاء والقمع لا تنضب رغم أنها تمر بتحديات قاسية، إذ تتعرض الفئة المقموعة لعنت إيديولوجي يعيقها بالضرورة لفهم ضرورة تحديث أساليب المواجهة، إلا أن محاولات الساعين لنشدان الخلاص بمفهومه الحر ضمن المجموعة المنظمة لا يتوقف على الرغم من الإقصاء والتصفية والأنانية السلطوية التي تنشب مخالبها ضمن صفوف الحركة المقاومة، حيث على المعرفي مقاومة عدو الخارج والداخل، ومحاولة البروز بمظهر المدافع عن قيم المعرفة رغم التنافس السلطوي وغريزة الظهور وتقديس القائد على حساب العاملين بكل

إخلاص ونقاء دفاعاً عن جوهر القضية التي يؤمنون بها، إنهم يسقطون وينهضون ويثبتون وجودهم كلوبي ضاغط لو بإمكانات خجولة ورديئة داخل الحركات التي تواجه السلطات الاستبدادية ، وكذلك فإنهم خلايا نائمة داخل الجماهير التي تعاني التهميش على طول بقاع الشرق الأوسط وفي الأماكن التي يسودها النظام الشمولي، لعلهم ينشطون تبعاً للأزمات، ويرون أن الحفاظ على المكتسبات التي أنجزت على مر العصور ضرورة معرفية قويمة تعد أساساً لتماسك المجتمعات وتعايشها في ظل المجتمع النهضوي الذي يبرز في ظل الفوضى والدماء ليكون البديل عن المجتمع البائد إثر الصراعات السلطوية العبثية بين أنصار السلطة والمعارضة، إذ نجد المجتمع البائد هو الممتص لثقافة السلطة القائمة والمعارضة في كونهما يربيان ثقافة الإقصاء ويتشربان من معي خطاب قومي ديني مذهبي ، يتجسد ذلك في أشكال النظم القابعة على أرواح الجماهير على طول رقعة الشرق الأوسط والبلاد الناطقة بالعربية، هذه النظم التي باتت بمثابة حارس ووكيل لحماية التخلف الفكري والسياسي والاقتصادي.

وفي السياق ذاته فأنَّ في حوار برفين وماسي، حديث الوجع وتجربة الكفاح لأجل الأرض الحلم، حيث الإيمان بالحلم المقدس هو الأساس العملي لوحدة المصير الوجداني المشترك ما بين الرجل والمرأة، رجل مبتور الأطراف تقابله امرأة في جسدها تبرز آثار غطرسة وسادية المستبد، وتلك الأخاديد التي تأبى الزوال على جسد متخم بالآثار وروح معلولة جريحة، هذه رحلة الصراع غير المتكافئة بين شعب يرفض الانطماس والاندثار والصهر وبين سلطة عرقية تتخذ من نفسها كل شيء في جغرافية توسعت بالدم والبطش والتغيير الديمغرافي وبث الخوف، وأيضاً تجنيد الفئات المنكوبة كحماة قرى ضد الفئة التي تقاتل لأجل الحرية ورفع المظالم الاجتماعية، ففي ظروف المعيشة القاسية، تتشتت قدرات الأفراد ويتفكك المجتمع، حيث تعمد الدولة الشمولية إلى الاستفادة من وجود التهميش والقمع والتعذيب لصالح تصاعد المنتفعين من الملّاك في

ريف كوردستان الشمالية، تتحدث برفين لماسي عن حادثة مقتل أخيها الصغير على يد البوليس التركي، واعتذار البوليس لهم بزعم أن الحادثة تمت بالخطأ من ثم اجبارهم لبرفين على السكوت عن هذه الجريمة وعدم فتح ملفها، انتقالاً لعملها السياسي ومن ثم العسكري، إلى لحظة وقوعها وأخيها في يد الجندرمة التركية، حيث يبين الروائي حليم يوسف في هذا الصدد سلسلة الانتهاكات الممنهجة التي تتبعها السلطة تجاه عموم الشعب الكردي في كردستان الشمالية.

إن تقريب الجانبين الذاتي والموضوعي في الرواية هو بيان لحالة الاتصال والتكامل ما بين العمل الروائي والنقدي، لما لهما من صلات متينة مع الحياة الإنسانية، حيث يتكامل العملان في مدى قربهما من الإنسان المعرفي ورحلة صراعه مع المتغيرات، إن رصد المتغيرات النفسية والوجدانية رديف لسبر وتحليل المتغيرات السياسية على مستوى الصراعات الاستراتيجية، نكران الحقوق واللغات والثقافات هو جزء من سياسة احتكار الموارد والتمتع بها، إن رمزية الجنرال العجوز وفق ما إشار إليه حليم يوسف يشكل المهيمن على حالة الصراع الدائرة، يقابله عزم الأفراد المدركين لأهمية الثورة والمقاومة ضده، لما في ذكل من أهمية في نشدان المجتمع الطبيعي الحر، في ظل الظروف العصيبة حيث مثّلت انتفاضة الجبال، التهديد القائم بوجه السلطة المركزية، التي اتخذت من العداء للكرد والأقليات الأخرى أساساً لنشوئها وبقائها، فالسلطة العسكرية هيمنت على مفاصل الحياة في تركيا وكردستان، وقد أقصت كل محاولة للانتفاع الديمقراطي على العالم، ما مهّد في ذلك لبروز الإسلام السياسي الحالي الذي يحمل في جوهر رسوخه منهجاً تدميرياً يقوض مفاصل الحراك الساعي للدمقرطة الجوهرية، حيث أعاد لأذهاننا عهود الإنقلابات الدموية وضياع الحريات.

يمكننا على ضوء ذلك قراءة الرواية بوصفها منتوجاً إنسانياً مرمّزاً وخياراً أولياً لقراءة الأحداث، استناداً لتفاصيل الكفاح والمواقف العنيدة التي سلكها الأفراد

بمواجهة الصعوبات، عدا تلك المتصلة بالطبيعة ووعورة الجبال والثلوج المتراكمة والأقدام المحترقة من فرط مشيها وعبورها الطويل فوق الهضبات الثلجية، كل ذلك يعيد في الأذهان مسيرة الشعوب الساعية للتحرر وكسر الخوف رغم مشقة هذه المهمة تاريخياً، لنجد أنَّ رواية حين تعطش الأسماك، قد نجحت في إبراز معالم البطولة الفردية والصمود على مسرح الخوف عبر تمسك كل من ماسي وبرفين بحالة الحب وربط ذلك بالحب الأكبر للأرض والقضية وتحرير الإنسان الكردستاني من الإذلال والجبروت الذي تمارسه الدولة التركية في تأسيسها للإرهاب، من خلال ضياع الحقوق والكرامات وتسعير حالة العداء الجماهيري بين القوميتين التركية والكردية، وهذا لم يمنع من دور المعرفيين في المواجهة بطرق متعددة تنحو ما بين محاولة لترجيح كفة الحق والمطالبة به وبين ذلك الصدام العسكري والمواجهات الدامية في الجبال والأرياف، فحالة الطوارئ والأحكام العرفية جعلت البلاد في مأزق كبير، حيث الدمار والقتل الذي عم في كردستان، عطل سبل الخلاص والحل، إذ نقف أمام رجل مبتور الأطراف ليس في جعبته سوى خيار الرحيل أو المرأة الصلبة، تلك التي قدمت كل مساعيها وجهودها في سبيل الخلاص والتحرر والعدل، مع ذلك نجد أن الخارطة السياسية تتجه نحو المزيد من التصدع على مسرح الصراعات العرقية، وهذا قد عمق من الشرخ والهوة بين فئات المجتمع والمؤسسات على نحو تصاعدي، حيث نعتمد على الدلالة في التحدث عن الحدث، استناداً للواقع السياسي والاستراتيجي لمنظومة الحكم المركزية في الشرق الأوسط، حيث الرواية استخلاص للمعاني الجوهرية من تناول بعض عينات تبرز لنا حجم الانتهاكات السلطوية في حياة المجتمعات، وذلك جل ما نعمل عليه للحديث عنه ومراجعة جذور هذه الإشكالية وتحليلها، وكذلك الإحاطة بالبعد الزمكاني للرواية مع بيان إسقاطاته على طبيعة الواقع الميئوس منه عبر إظهارنا

لعظم الجور والطغيان الذي قاد الشعوب إلى نفق مظلم، وأسس تلك الأرضية الخصبة لنشوب الصراعات، ليستفيد من اندلاعها المتحكمون برأس المال وإدارة الأزمات.

ساردة برفين تتحدث عن تجربة المرأة الكرديّة في ظل الحرب المندلعة في شمال كردستان، تلك الحرب غير المتكافئة ما بين حركة تفرض نفسها بقوة على ذلك الواقع الأسير، وبين نظام عسكري شمولي لا يدخر جهداً إلا ويوظفه في سبيل إخماد جذوة الحركة، برفين تمثل الموقف الأنثوي إزاء حقيقة القمع كما يمثل ماسي الموقف الذكوري، وكون اتحاد الرجل والمرأة ظل بمثابة المحور والهدف في هذه الرواية، نجد التساؤلات تلتف حول أطوار ومراحل هذا السعي في خوض هذه الحرب الوجودية ضد قوى القمع الذي يمثله إرهاب الدولة، فالقيمة الجمالية للسرد الروائي يظهر بتجليه في وصف الحدث وبيان أدوات التأثير في الوجدان والإدراك معاً، وعلى ضوء ذلك يخوض النقد جملة من القضايا الجمالية والتأويلية لبناء حيز أبعد وأعمق من الجمال، يتسم بالجدة والعمق والنباهة في إقامة الجسور المعرفية ما بين الرواية والفكر.

" آلاف الحكايات كانت تُروى كل بضعة أيَّام عن جثَّة المرأة الحسناء التي ظهرت في بيته، الجلبةُ التي تركها (ماسي) خلفه باتتْ الشغل الشاغل للناس، فقط هو مَن لم يتحدَّث عن نفسه، ودَّ أن يأتي يومٌ ويفتح فمه، بلا ريبٍ سيعرفُ حقيقةَ تلك المرأة الجميلة التي تركها خلفه مقتولةً، سيأتي ذلك اليوم أم لن يأتي؟، لا أعرف، ما أعرفه أنَّ (ماسي) كان يتجوَّلُ آنذاك في شوارع أوروبا دون رغبةٍ في أن يعرف أحدٌ اسمه.

شهورُ السنة في البلاد الجديدة تماثلُ شهور الشتاء برُمَّتِها في موطِنه، ولكن حينَ أقبل الصيفُ عليه تصبّبَ عَرَقاً، وكمن أضاع شيئاً يمشي ويتكلَّم إلى الناس الذين كانوا كَناسِ بلاده لا يفقهونَ ما يقوله أو يريده، في تلك الشوارع ظمآناً على الدوام، مُردِّدَاً:

- أنا عطشانْ .....

ودَّ أن يبحث عن صفائحَ تماثل عدد سنوات عمره ليبني بها بيتاً لنفسه، رويداً رويداً تضاعفَت السنواتُ، بيدَ أنّه أخفقَ في الحصول على تلكَ الصفائح."

الاغتراب الذي استوطن ماسي، يتعاظم شيئاً فشيئاً عبر مشاهد الخيبة والألم منذ أطوار نشأته الأولى في مجتمع مهمش يجاور الحدود وعلى مقربة من الأسلاك، بدأ الاغتراب يشق طريقه في ذاكرة ماسي ويتدخل في رغباته واختياراته، حيث هبط على قلبه الحب، ليكون بمثابة الناقوس الذي أشعل حواسه وتفكيره، وبات في حالة تأهب لمغامرات جديدة، حين اكتشف أن علائقه مع المحيط ليست سهلة، ولاسيما حينما أحب برفين، واعتكف على قراءة الفلسفة في صباه، على نقيض قناعات مجتمعه وميلهم إلى التدين وسلوكه، لم يتلاءم مع المجتمع، وحين سار باتجاه الجبال عرف نمطاً مختلفاًمن الحياة، عرف نفسه يشق أغوار الحرية، التأمل والصعوبات ردحاً من الزمن، لحين أصيبت أطرافه وتم بترها، وبعودته للحياة المدنية والتقاءه ببرفين ومن ثم وداعها والذهاب باتجاه الشمال، عرف أنه انتقل من اغتراب لاغتراب، ترك وراءه مصير شعب يعاني، وحب منتهك وسلسلة اضطرابات دائمة، حيث وجد أن النضال من أجل الخلاص عملية تراكمية لم تبدأ به لتنتهي عنده، في ظل مجتمع ينازع ويعيش في الماضي ويجاور قبور الأولياء والشيوخ، ومن على شاكلتهم من قادة وجنرالات، حيث لا يتسنى لنا سوى الحديث عن هذا الإشكال بوصفه المناخ القائم الذي يستولي على المعرفي المدرك وينقله من موقف إلى آخر.

في ظل هذه الفوضى التي تشهدها المنطقة استناداً لإرث تاريخي كبير من النزاعات والاضطرابات التي عصفت بالسلوك البشري وتطبعت بها المجتمعات عبر الأجيال، حري بنا أن نقف عند الظواهر وتحليلها تحليلاً عميقاً استناداً إلى سيكولوجيا الأفراد في ظل هيمنة السلطات المركزية على نحو رهيب في كافة مفاصل المجتمع والمؤسسات عبر فوهة الخطاب القومي والديني المذهبي، بلا شك فإن حليم يوسف تحدث عن

سـيطرة الغيبيـات على المجتمـع، واغترابـه عن الحاضـر، وعن رداءة طـرق الحياة وتعاطيها، ذلك باعد بين الإنسان وواقعه، فالواقع الاجتماعي والاقتصادي لكوردستان ، جعـل الحيـاة فيهـا معزولة وخانقة من خلال بـث الخوف ، والمجتمـع حانق ومتذمر ويعاني الاضـطهاد، لعل الرواية الإنسانية تعالج الاغتراب في ماهية وجوده وتمأسسه ، حيث تنبني على إشـكالية مثالية وحيدة تتصـل بالحرمان، وأثره على سلوك الإنسان، ، والتسـاؤل هنا عماد تشـكيل المناخ التأويلي لتفعيل الإحسـاس المـدرك أكثر بالنص، وجعله يقفز لمراحله المختلفة والمتصـاعدة عبر فهم النقد انطلاقاً من استدعاء روحه فكراً وفلسفة، وصولاً بإخراج الرواية من كونها إبداع جاهز ، لنقلها إلى مناخات أخرى ، يفوم النقد عبرها بتوسيع مساراته على نحو متشعب وهادف، لعل الاغتراب لا تتحمل أعبـاء طرحه الرواية وحدها، إنما الأدب برمته سـاحة حديث وسـجال عن الاغتراب بمراميه ومقاصـده وفلسفته اسـتناداً لعوالم النص الإبداعي الملهم، حيث يشير الناقد بعد تحسسـه لمواضـع الاغتراب ليشـير إلى أماكن تموضـعها ومدى قربها من النفس وصـلتها بالمحيـط، حيث تشـكل أحد الإشـكالات الشـاغلة حياة النـاس، حيث يواجه الإنسـان تبعات علاقتـه بالآخر لوحده، ويكون مؤسسـاً لخياله ومزاجـه الخاص وفق ذلك، فالصدمة أصل الغربة والشعور بالوحدة، وحين يتضخم العائق تزداد احتمالات الاغتراب وتتسع هالته مع تقادم العمر وتبدل الأمكنة وتغير المحيط الاجتماعي.

فالرواية افتُتحَت على نحو يحاول تفسـير حـالات الخُرس التي ازدادت مع الوقت، وهنا اسـتخدم الكاتب عنصر اسـتثارة الحدث عبر بعث الدهشـة والغرابة بالتزامن مع حيرة الأطباء وتأويلاتهم المتعددة بخصـوص تزايد نسـبة الناس المصـابة بالداء المذكور، وبدأ الشـيوخ والوعّاظ بالتحدث عن هذه الظاهرة الغريبة والمخيفة من سياق فهمهـم الدينـي، حيث تتركز الخيوط في بداية الرواية لتثير التسـاءل حول شخصـية ماسـي، بيته الطيني، وصفائح المعدن، تجاعيد ملامحه لفرط تدخينه، انتقال الكاتب

من وصـفه لحالة الخُرس المتزايدة إلى الحديث عن البطل، هو بمثابة معالجة درامية ماتعة من ربط الشخصية المحورية بالمكان، لهذا يتجسد لنا جمال الوصف الذي يضفي على السردية فنية تدفع المتلقي لمعرفة المزيد عن هؤلاء الناس الذين أصابهم الخُرس.

والحديث يدور حول غرابة ماسـي وبيته المصنوع من صفائح المعدن المصفوفة فوق بعضـها الآخر، ففنية هذه الرواية تكمن في جودة السـرد والوصـف، وكذلك الرمزية المحفوفة بالمعاني المتعددة والتي تمنح المتلقي ذلك المناخ الرحب للتفكير والتأمّل، وتجعل مـن الناقد الفطن منقاداً إلى السـبر والتنقيب بيسـر ـ للولوج لصـلب النص والتوغل فيما ورائياته، إنها رحلة متشعبة لأجل فهم الجمال عبر دلالة الزمان والمكان والإنسان المدرك ودوره في معرفة الوجود بشخوصه وطبيعته، فالملامح الجسدية المتعلقة بماسي تشـكل في توصيفها أنموذجاً لرصد الجمال عبر الإشارة إلى المكان وأثره على النفس، ولعـل الـروح هي من تجليات المكان، وهي تقيم في المـادة ولا تنفك عنها، تفنى بفنائها وتتوطد بفعل بقائها، فلجوء حليم يوسـف إلى تجسـيد المكان والملامح الجسدية دعوة لإبـراز الأفـكار على نحو مقابل، حيث هي سـبيل لتقديم الطرائـق المتعددة في عملية إخراج القيم الجمالية من مغزى السرد والإدهاش والغرائبية، فالأفكار وليدة الوصف والتجسـيد، والقيمة الفنية تتأتى من صـدق الوصـف وترابط الرمـوز التي تبعث على الجماليـة الهادفة المتجلية في تسلسـل علاقة المكان بالإنسـان، حيـث أن العمل الفني في حالـة ترابط بين ما هو موضـوعي تحليلـي وبين ما هو تخييلي رمـزي، حيث يمكن للتخيل والألم الوجداني أن يكون معرض اهتمام الروائي بغية عقد اتصاله بالموضوعية النقدية على نحو أكثر توأمية وترابط وانسجام، لهذا أمكن لنا التحدث عن الفن بكونه مرآة للتساؤل تدفع المدرك للمزيد من البحث حول طبيعة العلاقات الإنسانية واهتمام الروائي بمحور روايته، هو تأكيد على سمو الفرد وتميزه في إطار المجموع فاقدي القدرة علـى النطق، إن ذلك بمثابة إشـارة إلى تميز الفرد اليافع عـن المجموع المعلول، حيث

يعـود اهتمام المبدع بالفرد المتميز إلى غاية أن يـذود عن حاجات وآلام المحيط المتبلد المصـاب بنكبات كبيرة على صعيد الاستشفاف والتغيير، فينصب الاهتمام على الدور المحـوري للفرد كونه الناقم المؤثر والأكثر إحاطة بماهية الآلام والمصـاعب، توكل على عاتق الفرد خدمة الفكرة التي يعمد الروائي إلى إيصالها وبثها لعقل ووجدان المتلقي، فالفـرد البطل هنا هو محور الرواية والوسـيلة المراد بها الكشـف عن مواضـع الخطأ والتشـويه في مسيرة الجماعات البشـرية، إنه الفرد المعرفي الجمالي النزوع، الغائص في متاهات الواقع المأساوي، والباحث عن كل فكرة ومنهج جمالي ومنجز ذي أثر.

اختـار حليم يوسـف مناخاً طبيعياً لشـخوص عملـه، وأراد تصـوير طبيعة الحياة بعفويتهـا، وكذلك سلسـلة التقاليد المرتبطـة بالدين والأعراف القبليـة، انطلاقاً من علاقة ماسي ببرفين، انتقالاً إلى الحديث عن حرب العصابات في الجبال، لهذا علاقة بالمجتمـع وانقياده للصـراخ بعد طور الصـمت والخرس الذي ألم بالناس، ماسـي في الرواية فرد نشـط يعيش مع حيوان أليف، وهو على صـداقة متآلفة معه، عاشق ومفكر يسـعى للانعتـاق من قيود الخرافـة، إلى باحث عن تغيير ما يـدور في أروقة ذهنه، هو مقود الرواية وحامل أفكار مؤلفها، وهو المتطلع لحياة أكثر معنى خارج سطوة الأوهام والخرافات وتمجيد الأشخاص، حيث نجد أن مسعى الخلاص أمنية لا تكاد تتحقق في ظل هذه السـطوة المرفقة بالعنف المركز ومواجهته منفـرداً يجعل المرء يكابد ويعاني، لتضـيع أطراف ماسـي، وليغادر إلى المنفى دون أن يحقق في النهاية سـوى أوهاماً في صناعة بيت من صفائح المعدن، إن في ذلك إشارة إلى حالة عدم اكتمال الأعمال، وتوق للاسـتمرار وتعويض النقص الذي يحيط بجوانب الإنسـان واهتماماته، لا شيء يكاد يكتمل سوى المعنى الذي يحيط بالإنسان وهو السعي والتحرك بمقتضيات ماهو متيسر ومتاح، ذلك المتاح هو الواقع الذي يسعى المبدع لإعادة بناءه في نسق ترتيبي، يقيم على أساسـه أفكاره ورسـائله للعالم، لهذا نجد الجانب التجسـيدي يعمد لإنصاف الفكر

المنبثق عن التمثيل الفني المتضمن تجربة الإنسان المدرك في العالم المتغير وعن فلسفة الوجـدان ودورها في إخـراج الأعمال الفنية إلى هيئة عالم مختلف يسـتمد من العالم القائم جذوره وخصائصه، لكن على نحو آخر، يبين تطلعات المبدع لحياة تتحقق فيها جودة العيش النفسي في عالم مترع بالنقص والمأساة لحد الجنون.

وفي السـياق فإنّ البيئة لا تفارق ذات ماسـي حينما يسـمع ذكراً لما وراء الخط، أي كردسـتان الغربية الملحقة بسوريا الحالية، يشعر بذلك الوخز المؤلم، وتعود به الذاكرة إلى الوراء لالتقاط بعض من تلك الأحلام البريئة التي ترافقه في حله وترحاله، فالحياة في تلك الجبال تدور بين كر وفر وتنقلات بطيئة على السـفوح والهضـاب الوعرة، وهنا نجـد للحياة طعمـاً مختلفاً ومغايراً عما في الخيال والذهن، فَتَتابع سـرب المجموعات ومضـيها خلف بعضها فرادى، تصـوير لنظام حياة المقاتلين ومناوراتهم الميدانية، إذ أن الصـراع مسـتمر ومحتدم، والعيش في الجبال يمثل تحدياً نفسـياً مفاده أن رحلة الخـوف لانتزاع الحق مريرة ومضـنية، حيث أن انشـغال العناصـر في وضـع الكمين للعدو تجسـيد لطرائق الحرب وأسـاليبها، فهنا ريناس يتقدم في الحركة ويتبعه رفاق المجموعة المؤلفة من خمس عناصـر أنهكهم الجوع والعطش، هنا حرب البقاء تتزامن مع الاسـتعداد لشن غارة على معسكرات العدو، أمام صعوبتين نجد الحديث يتصاعد وتيرتـه حـين التفاوض على المرور والالتجاء إلى سـكان القرية الذين ولخوفهم لم يعد بإمكانهـم الاسـتجابة بحـرارة للمقاتلين، أمـا القرية التي على جهـة الجبل الأبيض، فقد اسـتقبلتهم بالترحاب والسـرور، هنا تباين ما بين موقف القريتين، إشارة إلى أن الجماهير تجد في مقاتليها النجدة والحماية، رغم عدم التكافؤ اللوجستي بين السلطة والحركة المضادة، تلك التنقلات والهجمات، كانت مدار السرد وقد نقلت بإسلوب فني طبيعة الحياة هناك، حيث ادخار المؤن استعداداً للشتاء والذهاب للاختباء في الجبال العصية، فترابط النفسي مع المكاني هو ما يسمى بالسرد الروائي، في إطار العالم الذي

يؤسس الكاتب عليه أفكاره ورسائله المرمزة، ولعل شخصية الطاغية تبدو جلية ومحط اهتمام ورهبة تدور حولها الأقاويل والشائعات، الجنرال العجوز المزين بالأوسمة والمكتظ بدلالات السلطة ورغبتها في أن تكون العائق المثالي للحياة، فعلى طول الجبال، ثمة مخافر وعساكر تتحلى بالقسوة والفظاظة والوحشية تعيث فساداً وسطوة ودمار بأمر من الجنرالات العسكريين الذين لا يجدون سوى القوة وسيلة للتحكم والهيمنة، فالجنرال العجوز المولع باصطياد السمك وتجفيف البحر، مترع بالقسوة والطغيان، فتقديس الظلم والجبروت وإذكاء شرارة العنصرية والحقد القومي بات دستور الحياة هناك، وقد أصَّل الخراب والدمار الروحي، وجعل الشعب الكردي يدفع تلك الفاتورة من دمه ولغته وثقافته وجغرافيته.

◆ الخلاصة:

دونما شك فإن الرواية تسلط الضوء على الكثير مما لا يمكن إيجازه في بحث محدود لتعدد مناهج النقد والتأويل وإمكانية التبحر في فلسفة اللغة والأسلوب بطرائق وأشكال متعددة، فممارسة الاستبداد الشرقي له علاقة بسبر سيكولوجيا المجتمع وطرائق عيشه عبر الأطوار التاريخية المختلفة، وعليه يتم إنشاء الجهاز السلطوي لينسجم مع الذهنية المكتظة بالطقوس والتعاليم منها ما هو ديني مذهبي، ومنها ما يتعلق بقيم السلطة وثقافتها وأثرها الكبير على الجماهير، لا يمكن للسلطة ومعارضتها أن تخرج عن ذلك النسق التاريخي المرتبط بذهنية شعوبها، حيث أن النخبة معدودة ومحصورة في أفقها ولا تستطيع اتخاذ نمط مرتبط بقيم التنوير والنهضة المعرفية التي تعني مصارحة الناس لواقع تخلفها وتقهقرها الفكري، إن ذلك لا يتم لوهلة سريعة وإنما بتدرج، فثمة تقاليد سلطوية اتخذتها العائلة كنظام حياة لا يمكن التملص منها، ومثالاً لا حصراً في هذا السياق جعل المرأة مجرد تابعة للرجل

حسب الأعراف والتقاليد، فسيطرة الذكورة مرتبط بطبيعة النظام السياسي وكذلك فإن التحرر منه عملية مقرونة بتلك التغييرات الفجائية التي تصيب المجتمعات في إطار ما يسمى بالهبة (الثورة) والتي ستفتح دوائر وأبواب جديدة يمكن للمجتمع من خلالها أن يجد نفسه في في ظل تلك الفوضى المختلقة، مجتمعاً أوجد في ظروف حرب واحتقان، تولدت على إثرها من رحم أفراده الهاربين ثقافة وتقاليد من نوع آخر.

اقتضاباً يمكن القول إن الكتابة توثيق للبطولات والحوادث والوقائع في حقل الرواية، وهي تقيم الصلات ما بين الإدراك والوجدان قبل أن يوضع على طاولة الحكم النقدي الذي يبت بها وفقاً لمعايير محددة، هو قراءة لعلاقة الناس بالوجود الذي يمثل لهم القضية الأشمل، والسرد مرآة للحياة المعيشة وتلاقح ما بين الحسي والمعنوي في إطار البحث في الوجود الفردي، أي الكينونة في عالم الصراع الدموي، أما الحوارات فهي مواضع استفهام وتساؤل لفهم الظواهر المشارة إليها، ولعل حماية الذات من أشكال الموت كالانصهار والتلاشي والإحساس بالتهديد الخارجي هو مدار حديث "حين تعطش الأسماك" من بدايته لنهايته، فالصراع بقي محتدماً بين السلطة والأفراد المهمشين على جغرافيتهم، وما بحث ماسي عن برفين إلّا بحثه عن كردستان، بحثه عن انتماء منكوب يواجه بالمرصاد، بحثه عن الحرية من كل تبعية أو إقصاء، فالبحث عن الحب هو البحث عن الوطن، لا انفصال بين القضيتين، بل ثمة تماهي مطلق ما بين المرأة والأرض، فهما محرض وجوهر الإنسان المعرفي ولابد من التركيز على هذه الثنائية وسبرها، اعتماداً على النص المتشابك والمتشعب والذي تلتقي حلقاته الدائرية حول جدلية الحب والذود عن قيمه، حاجة الإنسان للمرأة هو لفهم الوجود الذاتي والمحسوس في آن، ولعل الخيبة في الرواية دعوة للاستمرار والمزيد من التنقيب، لا التوقف والاستسلام عند أول نكبة، حيث يؤمن المعرفي حليم يوسف بأن البقاء هو رهين الإصرار على النصر في نهاية الصراع مهما طال الزمان.

إن تلاقح الرواية مع الفكر، جودة متميزة للمعرفة وتعبير أشمل عن وحدة العاطفة مـع الفكر في إطار توأمية الحب والمعرفة، لهذا وجدت في رواية حين تعطش الأسـماك جسـوراً متفرعـة نحو المعرفـة المجردة، وتماهيـاً طبيعياً مـع الفلسـفة في الإبحار في وجودية الإنسـان المعرفي الثائر والعاشـق وهو يذود عن قيمه الطبيعية جنباً إلى جنب مـع تلـك المرأة المقاتلة، التي تشـبعت أمومة وأنوثة واتحاد مـع الطبيعة لتفرز لنا ذلك الوجدان الجمعي الجديد الذي يتصـدى بدوره لقيم السلطة الوحشية، هكذا يمكن أن تكـون قراءتي أكثر متعة وهي تخوض في متن الرواية والأحداث لتستكشـف الخصـال الجديدة للإنسـان الكردي الباحث عن كينونته ووجوديته كمعنى وسـبيل لإدراك هذا الظلـم والمحاولة في تجفيـف منابعه، وهذا يقودنا للحديث عن تلـك الكيفية التي أراد حليم يوسف فهمها عبر كتابته لهذه الرواية المتخمة بالخيبات، كما أنّ فيها كوّة مضيئة تشبه بصيصَ الأمل القادم.

ما وراء 99 خرزة مبعثرة

سنقرأ في هذه الرواية حليم يوسف وهو يعود إلى مراحل الطفولة، مشيراً إلى خرزات تعود بالانسان الكردي إلى بداياته، حين وجد ذاته غريباً منبوذاً في جغرافيته، وسط أعداء الوجود، ممّن يسعودن دوماً إلى سحق جذوره بغرض الهيمنة على حياته وخصوصيَّته، وأهم من كل ذلك: ثقافته.

مبتدئ الحديث في العمل هو عن العجوز الكردي المطعون من قبل شاب مجهول، في أوروبا وكانت تلك الحادثة سبباً لتخمر روايته هذه، 99 خرزة مبعثرة، حيث أن المسبحة السوداء التي وجدت مع ذلك العجوز المطعون جعلته يستدل إلى رمزية غائرة في صلب وجوهر حياته وواقعه، إذ بين العجوز والروائي حكاية كان لابد من أن تتجسد، حيث لكل خرزة مأساة، وهو بذلك يقيم الجسور ما بين الماضي والحاضر انطلاقاً من وحدة المصير بين الكورد على اختلاف اغترابهم ومعاناتهم.

وعلى نحو سيكولوجي هادف يمهد حليم يوسف في روايته لطريقة عرضه للحدث النفسي لـ آزاد اليتيم الذي بات لسان الروائي الباطني في استجواب المرء المتلقي والتأثير في خياله وإدراكه، لإشراكه بطريقة ما في استشراف البعد الفكري التأملي للرواية وإسقاطها على الواقع المعيش، فمن شعور اليتم إلى شعور الحب وقاسمهما المشترك هو التعويض عن النقص، واللهاث خلف الحنان، حنان المرأة الأم والحبيبة، ولهما رمز واحد يدور الكاتب في فلكه وهو الوطن المفتقد، ف ياسين الشخصية الثانوية التي تتكوَّن فجأة لتصبح شخصية رئيسة مؤثِّرة في بدايات العمل، ياسين صديق آزاد المختلفين على صعيد الميول والأذواق، وكذلك طريقة العيش ونمط التفكير، يجمعهما شيء آخر يجذبهما إلى بعضهما رغم الاختلاف، شيء يتعلق بالتناغم والألفة، هكذا

نجد الروائي وعلى نحوٍ سلس يسرد تداعيات العلائق وطريقة العيش وشخصيات تلك البيئة التي تنم عن قدر من السخرية والتلهف لأبعاد الشخصية وتناقضاتها على مستوى التجاور والتشابه والانسجام والتنافر، كذلك تلك الرؤية التي تتركز في الحديث عن الحركان ودواعيها، من إيجاد رابط ما بين الأمومة والأنوثة، إذ يبحث آزاد عن ذلك الاكتمال المفتقد من خلال الحب، بريفان، ياسينو، وحديث البيئة، ذلك الانتقال الهادئ من فكرة لأخرى، يغني المناخ الروائي ويخلق اللغة المعبرة عن حالة الاستئناس للآخر، والتي يسلط الروائي الضوء عليها ليجعلها مثار اهتمام حول طريقة النظر للأشياء ودوافع الحب والبراءة الفطرية التي رافقت آزاد حين تأمله لـ بريفان في تلك الحارة التي جعلت آزاد يجمد في مكانه، دون أن يجرؤ على الاقتراب من تلك الفتاة، ذاك الإحساس الكبير بالحب والشغف، جعله أسير ملامح وخطوات الأنثى التي تسير في روحه وفكره وتجعله مثقل الخطا تجاهها.

يجسد الروائي حدثاً عاطفياً غارقاً في الدلالات، فتجسيد المشهد بعفويته يقود المتلقي إلى البعيد لمرحلة المراهقة، حيث بداية استكشاف الحب وعلاقة الذات بالآخر على نحو عاطفي موغل في الكثير من الرؤى والتساؤلات، حيث الحيوية والطاقة المتدفقة إزاء الجنس الآخر.

المناخ التصويري يشوبه قلق من المستقبل وعجز في تصوره، رصد الأطوار الأولى من عمل الروائي الذي يهمه استكشاف روح الإنسان في بداية تخمر عواطفه، الخوض في علاقة الحب وبدايات نموها والمتعلقة بالصبا ورح الخجل السائدة، حيث يعبر حليم يوسف بانسيابية عنها، عبر الإلمام بحاجات النفس وخلجاتها، ولعل الإفصاح عن الداخل بهذه الرهافة والدقة مرده الارتباط الذي يسعى لعقده بينه وبين الشخصية الرئيسة التي تمثل جانباً من حياته، فالعودة إلى بدايات التعرف على الأنثى والحب هو ما ارتأى االروائي التنقيب فيه، لاسيما أن المراحل الأولى تمثل روح القلق الذي يكبر

مع تقادم الزمن، في زحمة الخوف والحياة المكتظة بالمخاطر، تغامر بريفان في لقاءها بآزاد، فتهبه قبلة وتهديه مسبحة جدها السوداء، والتي يتلقفها آزاد على نحو يعبر عن الحب خارج رمزية المسبحة وهالتها الدينية، حيث لف بها معصمه الأيسر إلى جهة القلب، وهنا يبدو المشهد باعثاً للتأمل في مغزى ذلك الموقف، ودلالاته النفسية والفكرية التي تعبر عن اعتناق البطل مذهب التمرد الفكري ومواجهة التحديات الاجتماعية والسياسية على نحو متزامن، لاشك في أننا نخلص لمرحلة الاستعداد والتأهب لمعارك الشرف الروحية والتي باتت لزاماً على البطل المسير على أسسها، هكذا أراد الروائي أن يوغل في سبر كل خرزة على حدى، تلك الخرزات المعبرة عن رموز ودلالات الخيبات المتعددة، وكذلك الإصرار على حمل راية النهوض للأمام دون الالتفاتة للخلف: " كانت بيريفان امرأةً من نارٍ وماء، فلا المياهُ استطاعت إطفاءَ لهيب النار، ولا النَّارُ استطاعت تجفيف المياه، ثمَّة امرأتان متناقضتان تعيشانِ داخلها، امرأةٌ تحبُّ وتودُّ أن تدافع عن هذا الحب بشجاعةٍ، وأخرى متردّدة، جبانة ومتصالحة مع رياح القَدَر، فمن أين تأتي تلك الرياح القويَّة التي استندت بيريفان إليها دون أن تجعل نفسها تحت وطأة أي وعدٍ؟ كانت تجهل أنّها تلعبُ بالنار وأنّها تحتلُ هذا القلب المسكين وستبقى على هذه الحالِ حتَّى الرَّمق الأخير."

في إشارة إلى تناقض تلك المرأة، نجد أن الروائي يمضي في تمثيل هذا التناقض حينما يبين كم الأهواء والنوازع داخل الإنسان، حيث يستوطن الفرد الخير والأنانية التي تميل للاحتقار والشر، نجد حديث ياسينو مع آزاد تمثيلاً للنزعة الحسية حول توصيف العلاقات الإنسانية بين الرجل والمرأة، في أن الحب مرده تلك العملية العضوية بين الجنسين، أما السمو بالحب فهو من عمل الشعراء والفنانين، إلى أن حقيقته الخالصة تتجسد في تلك العلاقة الحميمة التي تتبخر ما أن تنطفأ الشهوة بعد القذف، هذا التناقض القائم في شخصية بريفان، يؤكد عليه سير الأحداث على نحو متسارع،

حيث رجحت كفة نظرية ياسينو على حساب مثالية آزاد، إلا أنه يمكن القول في هذا الصدد أن الإنسان بطبيعته كتلة من الإدراكات والعواطف والغرائز، وأنه يعيش في حالة تدافع على هذه الأمواج الثلاثة، وكذلك يلعب المحيط دوراً في سير وتقلبات تلك الأمواج تبعاً للزمن والاختلاطات بين الناس، بيد أن خطوط الرواية تمضي على نحو لا يحيد عن الرومانسية الواقعية في التجسيد، وكذلك لعب عنصر المفاجأة دوراً يفصح عن اتجاه مؤلم يقضّ مضجع البطل ويجعله أمام مفترق طريق آخر.

لماذا تبدو المرأة الشبقة في هذه الرواية أكثر انحيازاً للشهوة منها للحب؟ بعودتنا لرواية سوبارتو نجد أن شخصية بلقيس ميالة للشبق، أو لنقل أن الروائي وضع لها نهاية مشابهة لبريفان في هذه الرواية، إذ ما علاقة الإفراط بالرغبة الجنسية بخيانة رباط الحب السامي؟ حيث نظر حليم يوسف لبلقيس بكونها المرأة غير القادرة على تجاوز ضعفها وأنها مكبلة بأغلال التقليدية والتفكير النمطي السائد لدى المجتمع، نجد ليلى في خوف بلا أسنان امرأةً ضعيفة لا تملك أدنى قوة في التماسك، وتم تزويجها بيسر من ابن عمها لصالح تعاسة موسى، أراد حليم يوسف أن يبين عدة جوانب من تلك العلاقة الإشكالية بين الرجل والمرأة عموماً، بالاستناد إلى حالة المجتمع الشرق أوسطي (الكردي) في تقاطعاته مع ذهنية العلاقات السائدة في الشرق بصورة خاصة، حيث نلحظ حديثه عن العلاقة الجنسية بكونها سلطة تحجم بالضرورة حالة الحب، وتجعل ذوات النزعات الشبقة سلطويين على حساب القيم والمثل الأخلاقية، فالعلاقة بين سلطة القمع وسلطة الجنس طبيعية في ظل اضطراب المنظومة الاجتماعية، حيث يسهم التعري، تعرية الحقائق وكشف المستتر بالطبع في تحريض الأفكار الكامنة لدى المتلقي، تدفعه لإعمال التفكير ومراجعة المسلمات، ذلك يعطي الرواية دور المندد بجملة مسلمات وطبائع، كالحديث عن ماهية الضعف الفردي أمام الثوابت التي يتنافس المرهفون على حمايتها والتطبع بها رغم الفشل الذريع،

موضــوع علــى دفة الحكم في رواية تحاول اســتجواب الشــخوص كلًّا على حدى. يعمد الكاتب على عقد مراجعة نفســية وفكرية لطرائق الحياة ويشير إلى مجتمع يعيش فوق القــاع تــارة وتحته تارة أخرى، يبرع أفراده في المواربــة والتخفي، لكن ذلك لا يمنع من أن يســقطوا أو تتســاقط الأقنعة، ذلك بلا ريب يسبب ألماً يجب ذكره وتجسيده وسبره، عــبر فهمنا لهــذه الرواية التي تضــع المتلقــي أمام نقاط مفصــلية اعتمدهــا الروائي لنقد الطبائع والســلوكيات في محاولة لفهم الطبيعة البشــرية استناداً لعلاقة المجتمع بالســلطة، حيث بدت الشــهوة مفتاحاً دالاً للأبواب المســتترة والتي تخفي اضطرابات شــتى، تشــي بانفكاك المجتمع عن القيم، حيث وجودها وانتعاشــها يحتاج لفسحة من حريــة وانفتاح عــن المعرفة، إنه اســتدلال مرمّز لآفــات وعلل المركزيــة القامعة والتي بدورها تعتبر الملوث الرئيســي للقيــم الطبيعية بين الرجل والمــرأة، إذ يرمز الاحتدام الشــهواني إلى حالة الكبت والتشوه الحاصلة في المنظومة الأبوية، والتي كرست مناخاً مريباً للعلاقة المرضــية بين الجنســي، إذ أن اللهاث وراء الحســية دون المحافظة على ثبــوت العلاقــة مرده ســذاجة إدراك الحب، والنظر للجســد كمعبر اشــتهاء، لا يمكن إدانة الجســد باعتباره اشــتهى وحاول إطفاء ناره، إنما يمكن إدانته إذا قام صاحبه أو صــاحبته بالتنقل به من فم لفم، من جوع لجوع، فهناك ســلطة الجنس التي تقمع أي دور لنهوض القيمة والثابت الأخلاقي أمام ســيطرة العقل السياســي الاستبدادي على مفاصــل الحياة، عبر الذكورية الطافحة بالأنانية والتماهي بموروث الســلطة القائمة، حيث اصطدم آزاد بسلطة الجنس إبان محاولته فهم الحب، ورأى أدوار القمع الممارسة والتي وظفها الكروائي عبر ياسينو وبريفان، أراد أن يثير علاقة السلطة بالجنس على حساب الدمقرطة والحب ونشدان الحاجات الطبيعية بضوابط جوهرية تعتبر العلاقات الإنسانية أساساً لبناء مجتمع طبيعي.

أراد آزاد التخلص من كل تلك اللوحات التي رسمها، وقد تضمنت ملامح بريفان، حيث التهمتها النيران بكل جوع، تعبيراً عن نار الغضب المشتعلة داخله، فيتمه وخيبته في الحب هما صدمتان عاثتا فساداً في روحه وإدراكه، ذلك الفن لا يليق بتشوه المشهد الحقيقي، لكنه يحترق أيضاً حين تحترق الصورة الجمالية القائمة في داخل الفنان، فالفن يتلاشى بتلاشي الأخلاق، وحين تضعف النفس العليا أمام سلطة الجنس لا يلعب الفن حينئذ دوراً مفصلياً في المشهد الحياتي، بذهاب الأثر المتعلق بفضيلة الذات التي يصونها الحب، افتقاد البطل للأم تمّمه افتقاده الأخير لهناء الحب، عماد طمأنينة الرجل، صلته بالمرأة الأم والحبيبة، وفقدان عاطفتين مختلفتين رديفيتين وتعتبران مقومان لنهضة الإنسان وخروجه من كل كبوة تتعلق بالإحساس بالفراغ واللاجدوى، والعزلة الخانقة، هنا يعيش البطل دوامة الفقد من كل الاتجاهات، حيث سيطرة الغرائز والخرافات على المرء في تزامنٍ وتلازم، التخبط ما بين عيش الملذات خلف الكواليس وتغطية ذلك بممارسة الاعتقادات الدينية في الخارج هو مثار احتجاج في الرواية، إذ يقدم الروائي عالمين مختلفين، عالم الفن والفلسفة، مقابل عالم الاعتقادات المغلّفة بشهوة مضطربة وذكورة مستشرسة في مجتمع يعاني الكثير من النواقص والسلبيات، فالكتابة في هذا الصدد هو بمثابة تمرد منتظم ضد حالات الفقد والحرمان والسلبية.

إثر انفراط ذلك التعاقد الطبيعي بين الأفراد نجد بطل الرواية وهو يقدم نفسه كأنموذج بديل عن طريقة تعاطي العلاقة ما بين الرجل والمرأة عبر الحب والدعوة لتمثله جمالاً وقيمة، حيث يصطدم الفرد المدرك ببروز عالم يتنافس أفراده على بلوغ الجحيم سلوكاً وممارسة، فالعائق أمام بلوغ الاتحاد الحقيقي بين الرجل والمرأة هو جدار الخوف الصلد، حينما يبرز حليم يوسف ذلك التناقض الذي يعم أروقة عوالم الفرد عبر تجسيده لشخصية بريفان، التي يستوطنها الضعف إلى جانب القوة،

تتصارع رغبتان أو قوتان في داخلها، وفي النهاية تسيطر اللامبالاة وتوقف العطاء على حساب قوة الحب وتمثله، ويقع بطل الرواية آزاد في حالة غليان لا حد لها إثر استسلام المعشوقة لأوهام الضعف والانغماس في الغريزة دون رادع.

إنَّ معالجة اشكالية العلاقة ما بين الرجل والمرأة في اختبار عسير ضمن هذا العمل الروائي، إذ أن حالة التنافر والإنسجام المحفوفة بمخاطر الانقياد لدرك الشهوة والخوف من وجود رقابة اجتماعية، قلصت من رقابة النفس على الذات، الحديث عن اليتم تم تحويره إلى فقد الأمان والثقة تجاه المرأة إثر الخيانة التي مني بها آزاد في بداية رحلة تعرُّفه على الحب، ووجد أن ما أراد تصوره عن العاطفة ورصده لها ليس إلا زوبعة في فنجان، من خلال اصطدامه باللامبالاة وإسفاف الآخر، وتعرية ضعف بريفان هو بمثابة تعرية التربية الدينية والتنشئة التقليدية لتلك الفتاة، كمثال للمرأة الريفية المنتمية للوسط المتنفذ، والتي تعاني من رواسب وعقد المجتمع عبر شخصيتها الواهنة والمشوهة، عبر ضعف مناعة التربية المفروضة على الأفراد، والذكورية التي حددت للمرأة سير حياة لا تتوافق مع الحرية المفقودة في ظل واقع مبني على القهر، حيث كان لابد من عيش الغرائز خلف الكواليس، خارج رقابة المجتمع والذات، هكذا يتم تقديم الصورة بوصفها رسالة لاذعة إزاء أصول وأساليب التنشئة المضطربة.

في انتقالٍ إلى سياقٍ مختلف ضمن الرواية، فإن حكاية بئر الأفاعي المجاورة لبيت رزو العتال، تبعث على الدهشة والتساؤل، لاسيما وأن للأفاعي ارتباطاً جسيماً بحوادث اختفاء مظاهر الثقة والتماسك بين المجتمع البارع في تمويه العيوب عبر أقنعة فضفاضة، يرتديها من هم على شاكلة ياسينو الذي وجد ضالته في مجاورته لبريفان، حيث يستطيع الزواج بها ومن خلالها يمكن أن يطمر خفايا علاقاته المثلية بأطفال الحي الذي يقيم فيه، هذا الإجراء يسير بالتزامن مع تكاثر الأفاعي وتوغلها في العقول والأذهان والأذواق دون أن يطرأ على الجلد الآدمي أي خدش أو ورم بسيط، حيث

للأفاعي الخضـراء المنقطة بالأسـود دوراً في إضفاء التخييل الفني على النص، الأمر الـذي يتيح للرموز الحديث عن مظاهـر الانحلال الاجتماعي الـذي أخذ يلقي بكامل ظلاله على المنظومة الأسرية، وعلاقات أفرادها بعضهم بالآخر، فللبئر علاقة بميعاد الغرام المزعوم بين آزاد وبريفان، ومن ثم بين بريفان وعشـيقها ياسينو، حيث انتُهكت حرمـة الحب وتشـوهت مراميه منذ أن انزلقت بريفان في أوكار الشـهوة مع ياسـينو، وبالتـالي تحولت الحيـاة بتحول المرأة عن مذهب الحياة الجديدة والصـفاء الطبيعي وتكاثرت أوبئة الذكورية عبر سـيل من الأفاعي الولودة التي باتت فكراً ومنظومة تكبّل الحياة وتقصي المرأة تماماً عبر تدجينها الذي تم بيد من هم على شاكلة ياسينو.

يقـدم التخييل بوصـفه الكائن الروائي الرئيسـي، وهو الذي يوحـي بالأفكار غير المنظمة التي تختزل ما يتعلق بالجانب النفسي الذاتي، وماله من علاقة برصد الأبعاد المكانية التي تحتوي شـخوص الرواية، ممن يلعبون دوراً في اسـتخراج القيم الجمالية الناتجـة عـن احتكاك المواقـف والأشـخاص، إذ يلعب الخيال دوراً في نسـج العلاقات والصـور والحديث عن الواقع القائم كعلة يحتج عبرها الفن من خلال تلك التساؤلات والرموز، فالروائي يمضي بعيداً وراء الرموز التي تعبر عما يختلجه، من خلال التعبير عن حالة الفوضـى القيمية، حيث يبرع الناس في ظل هذا الواقع المضـطرب في مسـخ الحـب والجمـال، ومسـخه إلى ملهـاة مسـتهلكة لا قيمة لهـا، فالبحث عـن الحقيقة المعرفيـة تعبير عن رسـالة الفـن في الوجود، وهـو بمثابة اختزال جمـالي للقيمة التي يؤمن بها الفرد المدرك لمعرفة الوجود، وقد أراد الروائي التعبير عن الضـغط الذكوري كمنظومة تاريخية على الأنثى وإلزامها في سـلوك الحياة الاسـتهلاكية، وبذلك يفسد الجيل ويتحول إلى متلقي رديء لهذا النظام المقدس عبر التلقين والامتصـاص، لتغدو المحاولات الفريدة للتغيير بمثابة مسـاعٍ غير كافية، وتواجه أعتى العقبات والتحديات،

ليعبر عنها الفن والأدب على نحو يعبر عن الخيبة واليأس، هكذا يمكن القول أن الرواية هي وليدة الظروف القسرية المرتبطة بطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة.

الخرزات المبعثرة في الرواية هي المجتمع، فبزوال الحب الطبيعي تزول القيم ومظاهر التماسك بطبيعة الحال لصالح النظام الذكوري ومركزية السلطة، فظهور الشمولية كمبدأ تعظيم الأفراد على حساب بقية شرائح المجتمع، وظيفتها محاربة المواهب والمدركات ووضع نهاية لنهضة الفنون وغزو الحياة بكل مناحيها وأصعدتها، يعتبر بمثابة خنق للجمال والخير، لهذا يجدد الإرهاب خلاياه، ويتم تطويره بإضافة التطرف والتعنت الإيديولوجي إلى المناهج الدراسية ولتترسَّخ وكأنَّها تقاليد إجتماعية أبوية المنشأ. تعمل على تعليب الانتماءات، لا بل تقويضها، كما تعمل النظم الشمولية.

إن حبات العقد المنثورة، هو استشراف سياسي من خلال بوابة فن الرواية، إنه يشير إلى مراحل انفراط العقد، فالخرزات المتناثرة إشارة إلى زوال الثقة بين الناس وانتشار عدوى الكراهية المتوالدة مذهبياً ودينياً وعرقياً.

حين نتأمَّل تجسيد الرواية لحالة التعلق الناشئة بين البطل وأمه المتوفية أو بينه وبين المرأة المعشوقة، نجد أن الانشداه لشيء خارج ما يملك المرء، هو ما يجعله أكثر ألماً، مما يحيلنا لمراجعة ما قيل في الفلسفة الهندية التي قالت بمفهوم اللاتعلق، مبينة أن المعاناة تنشأ من تعلق المرء بما لا يملكه، يمكننا ترجمة مسيرة الإنسان بين الجماعات عبر أطوار نشوءه بإنها تجربة تعلق، وإن اضطراب استيعاب أن الآخر لا يرتبط بنا، هو شيء مبهم خارج سرب الفرد ونزعته الذاتية، وميله للتعلق والارتباط، ترسيماً لحالة ارتباط تهدف للعيش، ففي ظل هذا المجتمع، نجد أن حرية القرار غائبة عن الذات، في ظل النظام الذكوري، فطبيعة التفكير السائدة هي التي عمّقت الهوة إثر تكالب عناصر الخوف والحاجة الشديدة بين الفئات الاجتماعية، حيث اكتشف آزاد البطل أن تغير الاتجاهات العقلية صعب وعسير في ظل الخوف ونقصان الحرية،

فالعلاقات الإنسـانية محكومة بالاضطراب والقطيعة، بريفان تبحث عن حريتها ومن ثم ترفضـها في آن، تجد الشـهوة بلا حب طريقاً للحياة التي رأت نفسها بها، فالخوف مـن السـعادة والابتعاد عن البحث عنها يعني الانغماس في الضـعف وفوضـى النفس، حيث الصراع الذي لا يهدأ والذي يعد بدوره مقوماً رئيسياً في فهم الرواية الاجتماعية المعتمـدة على الربط بين المجتمع والسياسـة، كونهما غائبين في ظل النظام الشـمولي المركزي، ومن هنا تتجلى مشكلة الحرية، حيث تلك القوانين القسرية التي تغسل أدمغة الأفراد وتجعلهم شبه محنطين وموتى،أو رجال آليين لا يمكنهم إحداث أي تغيير، سوى الاضطراب والوفضى التي تديره العقول المتحكمة بكل شيء في الخفاء والعلن.

انتقـال الكاتب في تقديم مشـهد آخـر يعد نتيجة عن الاعتقـال الأخير في الرواية، كذلك ازدياد الأفاعي وتحول البلاد إلى مضـافة للقائد الإله، عدا عن رداءة المجتمع، كل ذلك خلق بيئة مناسـبة للخيانة التي تحدث عنها الروائي في علاقة بريفان بـ آزاد، وقد قاد الأخير للهجرة خارج البلاد، حيث الانتقال لاغتراب آخر سياسي ربما، والذي يعتبر شـأناً فكرياً يتمثل في مراحل نمو هذا الاغتراب جراء انفراط التآلف بين المبدع والآخرين، والذي يعد بداية الشـعور بالتباعد والتوحد مع الذات، حيث عيش الصدمة الكبـيرة برؤيتـه الحب البريء مشـوهاً وغائصـاً في وحـل الخيانة، مـروراً بلحظات التعذيـب والذل المشـينة أثناء الاعتقـال، وانتهاء بهجرته، كل ذلـك ترك في ذات آزاد مـرارة اليتـم التي لا تنطفئ، وتبرز على نحو أكثر فظاظة حينما ينعدم الحب في ذات الإنسـان ويتفاقم الشـعور باليتم، يصبح الحزن كابوسـاً ثقيلاً، وتصبح الحياة أشبه بمتاهة معقدة ملتفة حول نفسـها ويتضـاعف حينها الشـعور بالقلق والحرمان، فأمام المأسـاة لا يمكن ترجيح كفة الضعف أو القوة لدى الإنسان المغترب، فهو يدور في حلقة مفرغة تشـغل النقص، الخيانة، الألم، وشـعور الفقد الذي عبره يستقبل بطل الرواية حياته وهو يعاني، حيث تتفوق المأساة على الجانب شبه المضيء في حياته.

يمكـن القـول في هذا الصـدد أن آزاد افتقد لشـعور التكيف والتأقلم وبات يشـعر بإحباطـه في المراحـل التي قاسـاها وعاناها، أيضـاً ذلك الانعدام بالتكيـف والتأقلم أضـفى عليه شعوراً بالانعزال، إضـافةً إلى النظرة السـوداوية تجاه الحياة، فالقسوة تدفع الإنسـان للإنزواء والاستسـلام للمواقف المحبطة واسـتجداء الماضـي، وأحياناً الشعور أن المجتمع عبارة عن أفخاخ وطرق وعرة ، حيث الهروب من الماضي يمثل رأس الدوامة والمعضـلة، لكنه حينما يتلبسـنا، يغدو شيئاً يصـعب الفكاك منه، متحوِّلاً إلى مسـلك فكري وطريقة تعاطي مع الأحداث المتشابكة، لهذا يمكن القول اننا صورة عن ماضٍ عشـناه ويلاحقنا على نحو ما، نمثل أشـد الحقب إيغالاً في النفس، ويصـل المرء المغترب للعدمية، وأحياناً يجد نفسه ساحة سجالات لاتنتهي متعددة الآلام والمسارات، لم يعد الفرد يستشـعر في ظلها ذاته والإهانة التي يحياها في ظل تكالب الضـغط عليه وعبر مراحل إذ تصل الشخصية المأساوية إلى حد تصبح فيها عديمة الإحساس بحجم المصـاب الذي ألم بها، حيث نتيجة الاغتراب الذي أصـاب بطل الرواية جعله يستشعر قيمته الزهيدة والتي تصل به مع مرور الوقت لمرحلة انعدام الشعور بتلك الكوارث التي تأقلم عليها، فأمست كلها من مستلزمات الشعور بالعدمية ولا جدوى العيش.

لقـد ظـل الأدب ولا سـيما الرواية ملمّة أكـثر بحاجات الإنسـان ومعاناته، وكذلك يمكن اعتبارها توثيقاً للمرحلة المعيشـة، فالتدمير الـذي انتهجته الأنظمة القمعية في مراحل تمأسسـها وبقاءها في الحكم، خلق جواً شعرت فيه الجماهير أنها مرغمة على الخضـوع وامتصاص موروث السـلطة القمعية عبر المناهج المؤدلجة، فلو تأملنا أبطال روايات حليم يوسف، سنجدهم لوحدهم بلا أطفال أو زوجات أو خليلات دائمين، إنهم يعيشون في أجواء القهر والهلع، ودوامة البحث عن خلاص ما، إذ نجد العدمية طريقةَ عيشٍ لا تبرح شـخوص الرواية على نحو غير مباشـر، الشخوص دائماً في حالة ضغط

السلطة القمعية وخواء البشر، لذا فإن التجهيل المركز يبرز الأسلوب العدمي في قرب الإنسان من معنى الموت.

إن صلة الإنسان بالموت تبدأ عبر الولوج للعدمية التي تعبر عن نفسها في سرد روائي محكم، لصياغة تبرز اللغة في مضمونها، كوسائل للتعريف ببؤس الحياة وابتعاد الذات عن نفسها واغترابها إلى مالانهاية، هل يمكن لروح المعرفة والتفكر بسبل التغيير أن تنوب عن الكارثة النفسية التي جعلتها السلطات الاستبدادية خبزاً وزاداً تتقوت به الفئات المعدمة والتي تعاني من ضغط مزمن في الحاجة؟ هل سيبرز عندها وعي حقيقي بالتغيير كمطلب حيوي يعيد إلى الأذهان مسيرة وتجارب بعض الشعوب في تجاوز نكباتها الروحية؟ إن تلك التساؤلات تعبر في حقيقتها عن نشدان التغيير كوعي ومطلب لا يتحقق بين ليلة وضحاها، وإنما يستمد ماهيته من حقيقة الصراعات الاجتماعية وتناقضات السلطة فيما بينها، وهكذا لابد من أن نتحدث عن الأدب بوصفه كائناً أشد لصوقاً بوجدان الناس منه إلى السياسة والصراعات الفوقية التي يشهدها أرباب الاحتكار، فحين يصف حليم يوسف تلك المشاهد الفظيعة من تعذيب السجان أو المحقق لآزاد والتبول عليه، عدا تلك الكلمات النابية التي سمعها عند التعذيب والاستجواب، فهي تستثير مكامن الوجدان وتؤثر فيه، إلا أنه مع الوقت يقود الإنسان المقهور لرحلة تخلو فيها من أي غاية أو معنى، سوى عيشه لكل هذا الألم دون معنى، وقد حكم الروائي على أبطاله من خلال رؤيته للفرد المنكوب روحياً، والذي قدر له بلحظة ما أن يكون ذلك الإنسان المرهف الحساس، والمقبل على الحياة بروح مثالية في عالم متنافر تضيق عيناه من ذلك الإحساس البريء تجاه الآخرين، الذين لا يأبهون ويحملون قدراً كبيراً من الأنانية والشرور في ذواتهم، فما عاشه البطل في دائرة التعذيب والاعتقال هذه، أحاله إلى حياة الحيوان، جعله يستشف في ذاته مذهباً جديداً في العيش وتأمل الذات والآخرين والوجود ككل، إنهما صراعان بين

عدمية معرفية يصـرّح بها الروائي اسـتناداً لشـخوص روايته، وبـين عدمية أخلاقية تمثلهـا سـلطة الإرهاب الدولي الذي تتبناه المنظومة الشـمولية المركزية في نسـف كل شـيء حي في المجتمع الذي تحكمـه وبيد من حديد، حيث وظيفتهـا محاربة الأخلاق، تصفية أصحاب المواهب والمدركات، شل الاقتصاد ومنافع الناس بغية تحويلهم لمذهب الفسـاد والتجهيل، والذي يجعلها تتشرّب العدمية التي تقودها لفوضى والحروب على المدى البعيد.

يعالج الكاتب قضـية الإنسان الهارب من نير أزمات بلاده ومشكلاتها إلى أوروبا، حيث يواجه تحديات مرتبطة بالثقافة الجديدة وأنماط الحياة المختلفة، حيث الهجرة مثلـت الملاذ للابتعاد وبتر العلاقة مع الموطن الأصـلي، ومعاناة الفارين من أوطانهم إلى المهجر تبدأ بشـكل آخر يشـوبه الانتظار والقلق، وهذا مـا ألقى بظلاله على كاهل الفارّ، حينما ينتظر البت في مصـيره بصدد اللجوء والإقامة، حيث تدور صحبة جيدة وحميمـة مـا بين آزاد والمختار، الذي مضـى على وجوده في ألمانيا عشـر سـنوات، دون أن يتـم البـت بالموافقـة على طلبه، حيث تـدور الحوارات الوجدانيـة حول نمط وهول الحياة الجديدة وطريقة عيش الفارين من بلادهم لأسباب مختلفة، فالبعض يتعاطى بيـع المخـدرات والحشـيش كما اعتاد ذلـك في بلده الذي قـدم منه، وينتقـل خفية ما بـين هولندا وألمانيا بغية هذا الغرض، وكذلك يرصـد لنا الروائيالمشـاكل القائمة بين الوافديـن الجدد ومواطني البلد، وإشـكالية الاندماج والتأقلم والعمل، كل ذلك شـكل صـعوبات للإنسـان الهارب في مدى احتواءه لنمـط الحياة الجديـدة، وكذلك الدولة الملزمة للأفراد والمهاجرين الجدد الانصـياع لقوانينها واحترامها، حيث تشكل الرادع للفوضـى، ويغيب التفاؤل والزهو عن ساحة الذهن حينما يتأمل اللاجئ لحياة واقعية يجـدر عليـه فهمهـا ليس من منطلق مـا اعتاد عليه في بلده الأصـلي، وإنمـا من بوابه الأساليب المتبعة في هذا البلد من التزام.

إن الفرد لا ينفك عن ممارسة طقوسه في تذكر الماضي، بخاصة إذا احتوى على شريط من الرهبة والاضطراب، فالصدمات التي تعترض الفرد لا تزول هكذا مع الزمن، بل تبرح اللا شعور وتنضم لمجموع التصورات الفردية، تقيم في الداخل، تحتوي في طياتها المتضادات، حينما يعتمل الفرد الحنين إلى الأرض، فالمناخات الهادئة غير المتشنجة تكون البوصلة لحياة جيدة، فيها من التفاؤل والرحابة الشيء الوافر، بذلك يمكن فهم الفرد المغترب من كونه يتمسَّك بسلسلة مواقف أصابته بالسكون والمراوحة، ضمن فصول الماضي وعلاقاته التي تشوبها الحيرة، هذا القلق هو جزأ لا يتجزأ من النفس، تجعل الذات تدمن تصوراتها، تستقي منها ضمادات لثغرات حياته، فالانكفاء نحو الأنا واعتزال اختلافات الآخر معها، جعل العزلة خبز الحياة الأساسي، فلكي نعي الذات لابد من تشييد مفهوم الجسور بين الآخر، لعل ذلك يمثل الراحة المتوازنة لحياة متشعبة، مبنية على الإجحاف والقسوة، فالتعنت الذي يعيشه المغترب عن الآخر، يفصله فصلاً عن الطمأنينة، ويوحي له أن الحياة قوقعة ملتفة حوله وحسب، ما الحقيقة؟ يمكن فهمها من خلال ما يريده المرء في فلك حياته، أي ما يساعده على الانتعاش ويهبه الرحابة بمعانيها المختلفة.

إن تجارب البشر حصيلة مهمة للفرد كي يستطيع إنعاش ذاته بالتحولات المهمة على صعيد التطورالفعلي، وفهم ذلك يساعد المرء على فهم ماهية الحقيقة استناداً لرحلة الصراع لأجل الأفضل، والتعامل مع والاختلاف كوسيلة للتمتع بخصائص القوة المادية والروحية، فالوصول للسعادة مع الآخر يحتاج التسليم بحقيقة الاختلاف دون طلب النمطية، والعدول عن التشبث بالاستنساخ الكلي للمرء ورسم حياة شمولية تجاري الاختلاف وتعتبره خطيئة، فالهروب لعالم يتقبل الاختلاف وينسجم في ممارسته لحد الاستمتاع، مثّل شكلاً من أشكال الهجرة من الموطن الأصلي للموطن الجديد، لذا يمكن فهم تنقل الجماعات البشرية عبر التاريخ من بوصلة الهجرة،

وهي تعبر عن موقف نفسي قبل أن تكون مطلباً مادياً، وعليه فإن الإنسان الذي لديه محدودية في العيش الزمني لن يستطيع انتظار التغيير في حالة استعصاء حدوثه عبر تبدلات الموقف، سيبحث حتماً عن بدائل تحقق له الرضا والامتثال للعيش المبني على فهم الوجود عبر مواصلة العمل، حيث سعى الشموليون لتحوير القيم والتلاعب بها، وجعلوا الحياة الإنسانية مصحوبة بالركود والخوف، وعمقوا ما يسمى مفهوم الاغتراب الروحي، لهذا بات ممكناً القول أن العصرنة والتحلي بها ضرب من المحال في ظل انعدام ممارسة الاختلاف والتمتع بمزاياه على صعيد الحياة المعيشة، فقد أثّرت المنظومة الشمولية الأبوية وبصورة سلبية على التعامل الإنساني، جعلت العقول مدجنة وغير قادرة على التأقلم والتمتع بالمرونة مع الآخرين بوصفهم مسارات يجب احتواءها، ورسوخ الفكر الواحد سبّب الإبادات عبر التاريخ المعاصر وشل حركة المجتمع وجعلتها في حالة انعزال عن الحاضر عبر خلق التابوهات العقيمة، وإرباك فعالية التفكير الناقد، من خلال التعامل مع الفلسفة كتعاليم وعظية غير قابلة للمساس بها، وكل ذلك لأجل حماية الاستبداد وتصفية روح الإبتكار لدى الإنسان المعرفي.

◆ الهويات في الرواية:

جعلت الهويات من الأفراد المعتنقين لها في حالة عزلة مرضية خنقت التواصل الإنساني وخلقت في صدور المنكوبين مشاعر الضغينة والكراهية، عبر مراحل تصل بهم إلى حمل السلاح والتصادم المباشر، فالمجتمعات غير المتجانسة تهدد الأمن والاستقرار بوفودها إلى المجتمعات المتمدنة عبر ممارستها للاحتقان خارج الحدود، على غرار العنف الممارس بدولها ومجتمعاتها – الأصلية، حيث نجد الأتراك المؤيدين لنهج الإسلام السياسي الذي يمثله – أردوغان على الرغم من ولادة غالبهم في ألمانيا في ظل محيط ديمقراطي يؤمن بالحقوق والواجبات، يقومون بتسويق الأساليب والرؤى القومية الضيقة المناهضة لكل ما هو ديمقراطي، هذا التناقض المقيم في ذات هذه

الفئة، يدفع المتتبع للدهشة، ليتساءل عن ازدواجية التفكير فما دامت تعتقد وتؤيد الديكتاتورية السلطوية، لماذا لا تعود وتعيش في موطنها، بدلاً من تمتعها بمبادىء المساواة والديمقراطية في البلاد التي ترعرعوا فيها واندمجوا بمجتمعاتها، كيف يمكن تفسير وفهم هذا الانفصام الفكري، في أن تؤيد ديكتاتورية ومركزية الدولة بينما تنعم في الآن ذاته في العيش بدولة المؤسسات والقانون والنظام الاتحادي اللا مركزي، هذا يجعلنا نعي تمترس حماة العنصرية بفكر غير قابل للحياة ورافض للتعايش المشترك ومناهض للآراء المختلفة لصالح أحادية الرأي والفكر وشموليته، ذلك يعكس فشل الدولة القومية في إدارة التعايش بين الناس ذات الأعراق والانتماءات المختلفة وكذلك فشل الذهنية الشمولية في تحقيق التشاركية على صعيد المؤسسات والأحزاب، وبالتالي فإن القوى التي تعمل على تحديث النظام الشمولي الأبوي، تعمل بالتنسيق وتقوم بحماية مذهبها وتأصيله في الجماهير من خلال الخطابات الهلامية الزائفة، والتي اتخذت من الدعوة للديمقراطية ستاراً لتجميل الاستبداد الدميم، ولن تتوقف بذلك النعرات المذهبية والحروب الأهلية العرقية، وبالتالي لن يتوقف تصدير السلاح وتجنيد الشباب القاصرين وزيادة التفتيت واتساع بؤر الصراع عبر العمل بنمطق ثقافة الكراهية.

إن غنى الهويات لم يعد مصدراً لتشكيل الحضارة، إنما بات أساساً للنزاعات السياسية وتغيير الخرائط وتبدل النفوذ، نجد حروب الهوية استجابة لغريزة التصارع البشرية وهي تتوجه لحماية الخصوصية من خلال محو الخصوصية المقابلة أو صهرها في بوتقتها، حيث صراع الأعراق يعبر عن جشع الاحتكار والاستيلاء على الجغرافيا والموارد الغذائية والنفطية والمائية، يكفل للطرف المنتصر أن يسود الثروة ويدخر ويستثمر على حساب خضوع الهويات الصغيرة التي لا تمتلك مقومات دفاعية تمكنها من التصدي، فالمنطقة باتت مكتظة بالنزاعات وتقتات على خبز الكراهية،

والبديل عن ذلك تطبيق مشاريع مناهضة وحيوية، والدعوة لمجتمع معرفي يتطلع للعمل المؤسساتي كخلاص من حرب الهويات العبثية، حيث خلق بيئة عمل مشتركة تتضمن تلك المكونات من شأنها ان تقلص من احتماليات نشوب حروب على الهوية من الناحية الفكرية والوقوف الجاد على معاناة الملايين من البشر بسبب توليد العنف والدمار في مجتمعاتهم، فالأطراف الدولية المعنية بالإعمار من شأنها أن تمنع لصوص الهويات ومستخدميها كوسائل بطش، من أن يقوضوا ويدمروا التعايش وبالتالي فإن التفتيت سينال المجتمع وكذلك سيكون وجه الحياة المقبلة الموحَّد هو انعدام الاستقرار.

يقع آزاد في حب مدرّسة اللغة ساندرا، إذ تنشأ بينهما صلة تتعلق بفن الرسم، بما أن والدها رسام ولديه لوحات جميلة في البيت، كما أن آزاد مولع بالرسم، حيث يتعرف عليها مع الوقت، ويتطرقان لمسائل وتفاصيل تخص عالم الرجل والمرأة، فيصطدم بنظرتها السوداوية عن الرجل، حيث يستحيل العثور على الثقة المتبادلة فيما بينهما كزوجين حسب تعبيرها، مما يحيلنا لتذكر علاقة آزاد مع ياسينو والنقاش الذي دار بينهما بخصوص التعامل مع المرأة، ثمة نقطة سوداوية مشابهة وشبيهة بموقف ساندرا، من انعدام وجود ثقة في علاقة الجنسين، وأمام ذلك يجد آزاد المرهف الفنان، عازماً على إيجاد لون للحياة والطمأنينة، في انقياده لعاطفته وأحاسيسه، بعيداً عن أجواء السوداوية ورغم ضعف الإنسان وإحباط مواقفه إزاء من يحب أحياناً، فالشرق والغرب باتا يشتركان في خاصية متشابهة، فيما يخص حال العلاقة ما بين الجنسين بسبب تعاظم المصالح الاقتصادية وضغوطاتها على العلاقات الإنسانية، والتي جعلت العاطفة مستنزفة تنوب الغرائز الجنسية عنها على حساب السمو العاطفي، فتبادين الأنماط البشرية بين الشرق والغرب، ليس بهذا الفرق الشاسع فيما يخص مجال الحب، إلا ان التغييرات السياسية والاقتصادية جعل من الحياة مضخة أزمات تنعكس سلباً على أساليب العلاقات السياسية والاقتصادية، فالروائي يبتغي هنا إجراء مقارنة

نمطية بين شخصية ساندرا وياسينو في أنهما وجهان يعكسان مخاطر التعاظم النفعي على طبيعة العلاقات الإنسانية، وبذلك تهدف الرواية إلى الانتصار للحب والفن كبديل طبيعي عن الخيانة والقمع السياسي، لأن البحث عن القيم الطبيعية القادرة على إحياء العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة وفهم طريقة البحث هو مدعاة اهتمام الروائي في عمله الروائي هذا.

التعبير عن القيم وضراوة المعاناة المتمخضة عنه، يساعد على فهم إشكالية التفكك المجتمعي وبروز الأنانية وانعدام الرعاية، أي إيجاد مناخ إيجابي يضمن للطفل حياة أفضل ولو بمستواها المقبول، فتتبع السلوكيات وفهم تحولاتها يسهم إلى حد ما في فهم كيفية التعامل مع الواقع وإيلاءه على نحو يخدم الإنسان وتطلعاته في خلق مجتمع أفضل، كما أنَّ رصد الحوادث والمواقف النفسية العصيبة هو من طبيعة العمل الروائي الناجح والباحث عن حلول للمعضلات الناشئة عن احتكاك الجماعات ببعضها بعضاً، وكذلك مشكلة الخيال والبحث عن واقع ينسجم مع أحلام المرء المثالية منها وغير المعقولة.

تتحول الصراعات إلى فن حين يتم حشوها بالرسائل الهادفة لتجميل الحياة وجعلها مناخاً فنياً، ليتم بذلك بناء الجسور مابين الفكر والأدب، وهو ما تقوم به الرواية الحديثة التي تحاول الإجابة على تساؤلات الإنسان وفهم مخاضاته وتحولاته، فالالتزام بمحنة الإنسان الكردي واغترابه الداخلي والخارجي، يمنح الرواية الكردية سماتها الواضحة المتصلة بالبيئة وحاجة الجماهير للحرية والتعبير عنها بمختلف المسارات والاتجاهات، لعل الرواية تمثل المناخ الوجداني والعقلي المترابط للحديث عن الآلام والتطلعات وتجسيد معاناة الإنسان الغارق في تناقضاته الداخلية وأحلامه المنتهكة على مسرح الواقع الشاق، ولا تنفصل الرواية عن ذات الكاتب باعتباره العنصر الأكثر حساسية والكامن بفاعلية في نسجه للشخوص والسرد العام الذي من

خلالـه يمكن للمرء النظر للرواية كونها المرآة المجسـدة لما يـدور في المجتمع، والمجهر الفاحص المنقـب عن تلك الأوبئـة والكوابيس التـي لا تبرح المخيلـة الفردية في رحلة حديثهـا عن الألم وإحصـاءها المعقد لدورة الزمن في سـرعة مرورها أمام الإنسـان، حيث لا يشـعر المرء بالدقائق المسرعة وأمام سرعة القطار الزمني تحاول الرواية فك الرموز المعقدة لرحلة الإنسان في فهم الذات والآخر.

نجد في العمل أيضـاً مقارنة ما بين السـلطة في الغرب أو في الشرق، حيث السلطة تلعب دوراً هاماً في التحكم بحياة الناس سـواء بقوة القانون أم بالهيمنة المباشرة على حياة الفرد بصـورة مسـتبدة، تلك المقارنة جعلـت الرواية مسـاحةً رحبة للخوض في إشكاليات الاغتراب وأثر السلطة في تحديد أدوار الأفراد في الحياة.

التغييرات التي تعم النفس الإنسـانية لا تسـتقر بل تسـتمر وتصبح تلك التحولات جـزءاً من رصـيد التجـارب الفردية التي يضـمها المـرء لعديد التجـارب الاجتماعية ككل، حيث نجد نزعة الحنين للاحتضـان والاحتواء تتعاظم لدى آزاد ولا سـيما شغفه بالنسـاء، وذلك يرمـز إلى الطرق الناجعة للاندماج في المجتمـع الجديد بعد فقدانه لوالـده بطريقة مفجعة، فـرأى ذاته على اقـتراب كبير من سـاندرا، إذ حدث بينهما حـب عنيـف تكلل برغبة جسـدية قاما بتبادلها على نحو شـره، إن الـزواج الذي خطا نحـوه، مثّل محاولة للانعتاق من الماضـي المكلـل بالهزائم النفسـية، وكذلك تحدٍ لكل المخـاف والهواجسـ التي اسـتوطنته على نحـو كبير، فإذ بـه يباعد بينـه وبين ماضٍ متخم بالنكبات على صـعيد المجتمع والمؤسسـة الاستبدادية، التي لم تكن مكاناً للحياة الجيـدة، فالتماهي المفاجئ الذي اسـتولى عليه في مكان بيئته الجديـدة، جعله يؤمن بأهمية التعايش الجنسـوي، والذي كانت تتوجس ساندرا من إمكانية وجوده ، فإذا بها أمام آزاد، الرجل المثخن بالانكسـارات والمترع بالأمل في تلاحمهما، رسالة مفادها أن بالإمكان عيش الحياة والتمسـك بالفرح الكامن فيها بالرغم من التصـدعات الكثيرة

في ميادين العيش، الوحدة مؤلمة والإصرار على العزلة يضيق الخناق على الذات، فاحتمال التعايش هو الأخف وطأة والعيش مع الأحداث على نحو تشاركي بإمكانه خلق فرص للتطور والبهجة أكثر.

أراد آزاد إثبات جدارته في التعايش المستقر غير القلق، تعايش افتقد إليه، وبات أي شيء يخص الوئام غريباً عنه، الإنسجام الذي كان يفتقد إليه بات يلزمه بالبحث عنه، والفوضى التي يدمنها هي نتاج عمليات العزلة والاحتقان إزاء الآخر، ففي مجتمع مليء بالأكاذيب والاضطرابات، تصبح الكراهية وسطها الخبز الرئيسي والغذاء المتكامل، لهذا فإن الحديث عن الحب في ظل القلق والخوف لا طائل منه، وسرعان ما يجعله الأكثر وحدة وعزلة، وهكذا يصبح الإنسان المغترب في ظل فوضى نفسية تمتدُّ آثارها في النفس إلى المدى البعيد. يمكن القول هنا أن البحث عن العلاقة المتبادلة والمتكافئة استلزم إلى حد كبير الشعور بالتكامل وسعة الأفق، وجودة التبادل المعرفي والعاطفي بين الرجل والمرأة، والتي يمكن القول أنها مفتقدة في ظل المجتمع الشرق أوسطي، بسبب طغيان النظم المركزية على حياة الناس، وسيادة الذكورية كمناخ عام على كافة مناحي الحياة، لهذا يبدو للغافل أن وعيه يقوده، في حين أنه لا يستشعر خطر سريان الخوف والرهبة في داخله، وهنا لا بد من أن نجد أن اللهاث وراء الرغبات دون وعي يسهم إلى حد كبير في ابتعاد الإنسان عن ذاته وتجاهل رغباته المحورية بسبب حالة الانفصام التي تقوده، ونجد الشخصية هنا تنزع إلى إنشاء الانسجام الروحي مع المرأة، كون ذلك يعيد الأمان المفتقد إلى ساحة اللا شعور، يشعر آزاد هنا أن اقترانه بساندرا قد يعوضه عن يتمه المتأصل فيه، أو قد يلهيه عن فجيعة سماعه لخبر وفاة والده، فيسارع بالاقتراب من الحب، ليجد في ولوجه لعوالم المرأة وتلاحمه معها روحاً وجسداً الفسحة الأكثر قدرة على إيلاء كيانه كفرد مغترب بصورة تامة، لذا فإن قراره بالزواج من ساندرا كان منطقياً وفقاً لحالته، إذ أراد التخلص من

الفوضى النفسية والعزلة الخانقة التي ظلت تتبعه وتحيط بحياته كشبح بعد علاقته المحبطة ببريفان، من هنا نجد أن اندماجه بالموطن الجديد الذي لجأ إليه جعل الشبق الدفين فيه ينهض، حين راح يصادف ويلتقي بجمهرات الفتيات الذاهبات والعائدات وكذلك تتداعى إلى ذهنه الخيالات الجنسية وقد باتت تستحوذ عليه، والتي وجدها بديلاً مؤقتاً عن آلام الاكتئاب، لربما كان الغاية من هذا النزوع للزواج هو التعبير عن انتصار الرغبة الجنسية على الحب، والتحرر من قيود الماضي وأعباءه، وما غلبة الرغبات الحسية على الجانب الروحي إلا تعبيراً عن منظومة الزواج، والتي هي تلاقح مادي جنسي، حيث للمحيط دور في تنظيم اتجاهاتنا وميولنا ورغباتنا، كما أن له القدرة على التحكم في انطباعاتنا وآراءنا على المدى البعيد، إننا بحاجة للغوص في إشكالية العلاقة بين الرجل والمرأة، فالخوض في ذلك يمكن أن نعتبره مجدياً في عصر التفكك الأسري، تبعاً لطبيعة النظام السياسي القائم، إننا نجد الزواج في ماهيته عبارة عن اتحاد طبيعي ما بين المادة والجنس، بكونهما دافعين رئيسيين للتعايش المبدأي ما بين الجنسين، وهما المهيمنان على طبيعة الحياة والمنطق الإنساني عبر مراحل تطوره، فالاتحاد الطبيعي بين الرجل والمرأة متأتٍ من فهم الجنسين لاحتياجاتهما الجوهرية والمتمثلة في الرغبة بالتشافي من القلق والخوف من الموت عن طريق الحب، فما الحب إلا بديل عن هيمنة المادة والجنس في الحياة المعيشة، لهذا فإن الذات تطمح لأعلى قمة من الصفاء والتوازن من خلال الحب، فهو بإمكانه أن يحرك الطموحات لدى الرجل والمرأة، ولعل نقطة الالتقاء بين ساندرا وآزاد في نشدانهما لزواج حقيقي هو أنهما يودان اختبار بعضيهما على المستويين الحسي والروحي، رغبة منهما في بلوغ الحقيقة المتمثلة بابتكار الطمأنينة الحقيقية في زمن ازدواجية المشاعر وخفاء النوايا، حيث أراد الروائي هنا أن يتحدث عن نمطين مختلفين من التفكير، لكنهما يتمايزان في موضوع الاغتراب، البحث عن الأمان المفتقد، حيث آزاد لم يسلم

من آثار خيانة بريفان له، ويود أن يجد فسحة استقرار لطالما كان يبحث عنها، وعلى الطرف الآخر ساندرا، المرأة التي لم تعد تثق بالرجل ونواياه، إذ أنها تخشى القرب منه، كلا الحالتين اقتربتا من بعضيهما على نحو ممغنط ، قوة الحب جذبتهما دون أن يفكرا ملياً باعتباراتهما المتمخضة عن تجارب مؤلمة مع الجنس الآخر، إلا أن الحاجة الداخلية لإنهاء هذا الاعتزال المبهم والطويل، جعلتهما يثقان بالأمل مجدداً كطريق للخلاص من شبح الاغتراب النفسي، الزواج يجعلهما في اختبار أمام بعضيهما في مدى قدرتهما على الإخلاص لبعضيهما، إذ أنه عالم يتعرى فيه كل شيء، ليس الجسد فحسب، وإنما النفس والانتماء والمزاعم، لهذا كان لابد من أن تسير الرواية بهذا المنحى، إذ ثمة ما يؤسس له الروائي في هذا الصدد.

إن تباين الأنماط في التفكير ما بين الشرق والغرب يتجسد في شخص آزاد وساندرا، ولعل حالة الولوج العفوي لعوالم بعضهما يبين لنا وحدة الإنسان بعيداً عن التصنيفات المؤدلجة رغم الاختلاف في التقاليد والنظر للعلاقات الجنسوية، الغيرة في الرواية الاجتماعية شأنها في الطرح شأن عرضها بأساليب أخرى نسبياً، إلا أن الروائي أراد تجسيد حالة الاغتراب الذي وضع البطل فيها، حيث أن الطفلة دانا التي تتألم وتشعره بالغبطة لقدومها في المنفى، أشعره بقدر فائض من الألم، حيث هو بعيد عن والدين واراهما الثرى، أسبغ ذلك المشهد على السرد هالة جميلة، تجسدت في محاكاة المشاعر الوجدانية، وقد أرتأى الروائي الحديث عن ذلك التناقض الذي بدأ يشتد بين آزاد وساندرا في بداية الزواج، تضاد مزاجين وطريقتين مختلفتين في التفكير والرؤية، وكذلك الفارق الواضح في البيئة بين رجل شرق أوسطي من فصيلة عرقية مقموعة في بلادها، وبين امرأة أوروبية ألمانية لها تجارب محبطة مع الرجل، المثير هو تناول الاغتراب الذي نقله آزاد لابنته الصغيرة، وهنا تكرار لسيناريو الأب حيث ستعيش يتيمة الأب على نحو ما، إثر طلاق آزاد وساندرا، لتعاد تجربة اليتم الذي

عاش في كنف عائلة زوجة الأب يعاني من حرمانه لعاطفة الأمومة، ثمة عالمين يتحدث عنهما الروائي في سياق تشخيصه لثنائية حاولت أن تعيش نمطاً مختلفاً ومحبباً ويبعث السكينة والطمأنينة داخل روحيهما، إلا أنهما اصطدما بصخرة الأنا الدونية، وقد أشعرت ساندرا بأنها لاشيء في حضرة ذات رجل مرهف وحساس، يعيش عالمه بنقاوة مبعثها الإحساس بالذكاء والتجدد وخلق الأشياء الجميلة عبر فضاء الرسم، ذلك يحيلنا لفهم الزواج بكونه مؤسسة خالية من الصفاء ومليئة بالمفاهيم النفعية التي تتوارى وراء غريزة الغيرة، والتي تعني الاستحواذ والتملك والهيمنة على جموح الروح والفكر اللذين يتحلى بهما آزاد، لقد اصطدم الأخير بصخرة الاغتراب مجدداً وأصبح أكثر التصاقاً بالوحدة ومعاني العزلة.

كيف يمكن فهم العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة ضمن حيز الانتفاع والامتلاك؟ بوصف الزواج منظومة تتيح ممارسة سلوك الأنانية على نحو مشرعن، يهدف إلى حماية المنافع من خلال إيجاد النسل والالتزام الواجب بتربيته وإحاطته بالعناية، إلا أن نزعة الجموح باتجاه الأنا بشقيها الدوني والسامي، لا يبقيان شيئاً جديراً على هيكليةالنظام الذي يستند إليه الزواج، حيث صعوبة فهم الآخر يعكس تعقد الحياة في تأمين الاحتياجات إثر عصر المعلومات ووسائل التواصل والقيود التي تفرضها المؤسسات باسم القانون على الإنسان، حيث سطوة الحياة المادية على المرء، وتلك المغريات والتحكم بالرأي والتوجهات، أسهمت في سحق منافع الذات أو حالت دون إيجاد أرضية خصبة لعلاقة مرضية قائمة على الوفاق والتلاقي، هكذا يبدو المشهد الإنساني ضبابياً في ظل طغيان النزعة الذاتية وبروز علاقات مشوهة قائمة على احتكار المادة وتعليب الآخر والهيمنة عليه تارة عن طريق القمع المباشرة وتارةً أخرى عن طريق إيهامه بأنَّه إنسانٌ حرّ.

لقد عاد آزاد بعد انفصاله من ساندرا إلى حياة الرسم وتفرغه لعمله كمترجم بعد حصوله على شهادة المستوى الأول في مجال الترجمة، وبذلك أراد إكمال حلم طفولته منذ أن كان يترجم لوالده الذي لم يك يجيد سوى الكردية، حينما يفيه شخص عربي بغية أمر ما، وهكذا فإن الترجمة ظلت بمثابة جسر بين الشعوب، وقد ارتأى آزاد إكمال هذه المهمة بغية أن يوصل فيما بين الناس، فقد عاد إلى حياته المكتظة بالفن وشؤون الحياة، إلا أن ما يحز في نفسه هي الطفلة التي فتحت عينيها على مشهد طلاق والديها، لتعيش هي الأخرى طعم اليتم على نحو أقسى.

يمكن النظر للترجمة على أنها جسر متين يصل الناس بمختلف انتماءاتها وأعراقها كما الرسم والموسيقا، حيث الرسم يتيح لكل شخص من العالم النظر إليه عبر زاويته، وكذلك الموسيقا فهي ملك للعالم ككل والإنسانية بأسرها، إن التمركز حول ما يجمع الكل، يمكنه أن يوصل مختلف رسائلنا إلى الآخرين، وهذا ما أراده الروائي أن يصوره لنا في التفاف آزاد للرسم كهواية والترجمة كعمل، من هنا أمكن لنا فهم الذات المبدعة في أنها تؤمن بالعمل وصيرورة الحياة، ولا تنظر للعقوبات كحائل مانع للإبداع والحركة، وهذه قوة المعرفة بوجه الصعوبات التي تقف في طريقه ويراها من مقومات الإصرار على الفعل المؤثر، فالإيمان بالعالمية، يمثل تطلعاً مهماً نحو بث الطمأنينة الكونية داخل النفوس المتحررة من سطوة الجغرافيا والانتماءات الضيقة، بمعنى أنه يفرد للذهن مساحة أشمل في فهم الحياة على اعتبارها ساحة للإكتشافات المذهلة وتطوير الذات، فتجربة المفكر أو المبدع أو المبتكر والحرفي في خضم الوجود عبر الأدوات، لصيقة بوسائل التواصل والتعبير وفهم الآخرين على نحو مباشر، ولهذا فإن اقتران العلوم بعضها ببعض ووحدة العقل الكلي للبشرية لم يتأتى من فراغ، إنما نتيجة تطلع للأمام وبتجرد، بمعزل عن التوحش والسقوط في أوكار البدائية الضحلة، فتجنب السطحية والخواء منطق ذكي وباعث للمسالمة ومؤيد للتعايش ونبذ الخلافات

العقيمة بين الناس على اختلاف ألوانها، إن ذلك من عمل المترجم المبدع، لهذا فالمضي للوراء أو استذكار ما حدث غير مجد، حيث لابد من عدم الالتفات للوراء، بل الاستناد إلى التجارب المخفقة في إشادة جسر أشد تماسكاً مع الآخرين من خلال الترجمة والابتكار في حقل العلوم والآداب والفنون، فتخطي آزاد للعلاقة السلبية التي جمعته بساندرا، جعلته يبصر ذاته من جديد وينطلق بصورة أفضل للحياة، فالعائق لابد من كسره حتى يلتقي المرء بكيانه على نحو مغاير من ارتباطه القسري بآخرين يعمدون دوماً إلى تقويض جوهره وخصوصيته، فالنسف والإلغاء يبدو ضرورياً إذا ما ظهر تعنّتٌ ما أو استبداد من الآخر، إذ أن سعي الإنسان لذاته يمثل نصراً ضد التهميش والخروج من دائرة الركود والجمود إزاء فعالية الآخر السلبية وهيمنة الأنانية عليه.

نلاحظ في العمل أنَّ العنصرية القومية عدوة الإنسانية والأمان النفسي ، فأينما اهتدى الفرد نجده يحمل معه تلك الحوادث الناتجة عن اضطراب العلاقات الناجمة عن صراع الهويات، وفي هذا دليل على إخفاق المؤسسات الحكومية والعقلية المتحكمة بها في تعزيز الإندماج الطوعي فيما بين الشعوب، فإن هدأت نيران الحروب الجسدية وفوهة النيران والمدافع، لن يتم بسهولة محو آثار النيران المستعرة والتي مفادها الضغينة والحقد، والتي يتم البناء عليها من قبل النظام المتحكم بمفاصل الدولة التركية منذ تأسيسها على أسس عنصرية شمولية لا تقيم وزناً للقوميات المتعايشة معها، سيادة العرق التركي وتأصيل ذلك كثقافة رئيسة في المدارس والمعاهد والجامعات، وتعميق نزعة الأنا وتمجيد الكراهية عبر ذلك، فتعميق التضخم في الأنا لدى العرق التركي بإيعاز سلطوي متجدد عبر توالي الأنظمة الفاشية، هو مجاراة لنظرية القوة، واستعباد المكونات الضعيفة وتجريدها من مقومات بقائها، من أرض وهوية ولغة وآثار حضارية، فالانصهار اللغوي الذي اتبعته الأنظمة التركية كانت كفيلة بصهر الكثير من الكرد في بوتقة اللغة التركية، حتى أن الكثير ممن تم صهرهم،

مـا عاد بمقدورهم إعادة الإحاطة بلغتهـم وإيلاءها اهتماماً كافياً وحقيقياً، بحجة أن الوقت قد تأخر على تدارك ذلك، أو عبر أعذار أن لا شأن للغة بالانتماء، وهكذا نجد أن حالة التخاذل تم إيجادها كمحاولة لاحتواء الانصهار أو قبوله وشرعنته، ذلك كان مـن عوامل نجاح هذه الإبادة الثقافيـة، ناهيك عن محاولات الدولة التركية في تدمير الآوابد والآثار الحضـارية في كردسـتان الشمالية، -حسـكيف - مثالاً وبعض الآثار في مدينـة آمـد- ديار بكـر –القديمة، وتدمير آثـار معبد عـين دارا في عفرين، عدا عن الإهمال الخدمي للمناطق الكردسـتانية ونشر الإسـلام التقليدي فيها، وتأصيل حالة الميليشـيات المناوئة للاستخبارات والجيش التركي، والتي تعيث فساداً في كافة مناطق كردسـتان، بغية هروب الأهالي وإفراغ المناطق من سـكانها وهجرتها المتتابعة باتجاه المدن التركية الكبرى وترك كردستان مهملة كأنها أطلال مهجورة.

إن غاية نظرية القوة هي تغيير السلوك أفراداً وجماعات، وتحويل ترسانة سلطوية وقودهـا المجتمع غـير المتنبه والممتص بغرائزيـة كل ما يتم تلقينه عـن طريق التربية والتعليم، فإن تم عبور الدول بالحروب الخارجية والإبادات الجسـدية، سيبدأ الانتقال الآلي للاعتنـاء بمخلفات تلك الحروب في المجتمع، وذلك بزراعة بذور مفهوم التسـيد علـى الكائنات الأضـعف، ويتم ترسـيخ مزعم خطـير مفاده أنه إذا قويت شـوكة تلك المكونات الضعيفة والمستعبدة فإنها قد تشكل تحدياً رهيباً على الدولة القومية القوية.

وفي النماذج التي يقدمها حليم يوسـف في خضـم روايته قرائن وأدلة على وضـوح وأثر الاضطهاد السياسي على المجتمع بأفراده وتجمعاته الصغرى.

إن المحافظة على الاسـتقرار أو التنمية الاقتصـادية مرتبط بمدى وجود أشـكال الإسـتقرار السياسي المسـاعد على ضـمان ذلك، إلا أن إفلاس الحكومة الاستبدادية ذات الطابع القومي، لا يمكنها ان تبدو بمعزل عن التقلبات والضغوطات الاقتصادية، وشـبح العجـز وتدهور العملة يبقى مخيماً بصـورة ما يجعل الواقع متقهقراً، ولاشـك

أن الإنسان أو الفرد ذو الدخل المتوسط سيعاني من تبعات كل تغيير اقتصادي أو سياسي، في ظل وجود التهميش والتجاهل والاستعلاء، هل يعد طبيعياً الحديث عن دمقرطة ناجعة بمفهومها العملي المتجسد؟ إن سطوة النظام المركزي تحول دون إيجاد مناخ بإمكانه أن يعد أنموذجاً صالحاً ومعمماً، فالنعامة التي تغمس رأسها في الرمال، لا تستطيع دوماً أن تحجب عن ذاتها الحقيقة المتمثلة بأن المحيط مدرك وعارف جيداً طبيعة الواقع ورغبات الكبار الأكثر تأثيراً في تغليب المصالح على المبادئ وبصورة دائمة.

أحمد الكركوكي في العمل الروائي، من جملة الأشخاص الوافدين لألمانيا، وهو يوغل في الحديث عن سبب مجيئه إلى هذا المكان إبان تهجير النظام العراقي البائد للكرد من كركوك، ووضع السكان العرب بدلاً عنهم، يروي قصته المليئة بالآلام والأحلام المنتهكة، ولديه الكثير من الصور التي ظل يلتقطها إبان وجوده في كركوك، صورٌ تروي المآسي والأوجاع التي كابدها هناك، عشية التهجير والاعتقال والإبادة، شغفه في التقاط الصور لم يرق لصديقه الألماني، حيث لم يك يود أن ترحل عنه طبيبته النفسية كريستن، كونها الوحيدة التي تجيد سماع قصته والتعاطف معه ومساعدته، فحينما خرج من المصح وعثر على بيت يقيم فيه، كان سوء طالعه يرافقه، فإذا بجاره ضابط سابق في الجيش العراقي أيام صدام حسين حاقد على الكرد، وقد أخذ يمارس حقده على أحمد، وتدور فيما بينهما شجارات وملاسنات كثيرة، لدرجة أنه قد أخبر آزاد إن صار وحدث له مكروهٌ يوماً ما، فإن هذا الجار هو المسؤول، كان متعلقاً بجهاز صندوق أمه الذي يحوي مخطوطات وأشياء تخصها، كانت وصيته غريبة حينما باح لها لآزاد :

"- إذا مت يوماً أخي، أود أن تحرق كل هذه الأوراق، لأنها حياتي، وحين لا أكون فيجب ألا تكون، وأيضاً أود أن تصنع لي من هذا الصندوق تابوتاً، وتخبئني فيه، وتنزلوه بي إلى القبر، هذا ليس صندوق أمي فحسب، هذا رحمها أيضاً، هل تفهمني أخي ؟

لم أفهم فلسفة حياته كثيراً، إلا أنه بالرغم من ذلك، غدا جزءاً من حياتي، رافقته للمحاكم، والمشافي، إذ كلما ذهب لمعمل ما، أخذني كمترجم معه، أدركت أنه متعلق بالحياة حتى النهاية، فقلبه اليقظ لن يتوقف بسرعة، مضت سنة على وصيته تلك، حين عثروا على جثته في صندوقه، أحمد ترك معه قليلاً من الحلم وكثيراً من الانكسار ومضى."

بهكذا صورة مفجعة يسدل مشهد أحمد الكركوكي، ليكون أحد الخرزات المبعثرة في الرواية، التي تمثل رمز ضياع المجهود وخيبة الأمل على الصعيد السياسي والاجتماعي والإنساني بشكله العام، حالة الخذلان تستولي على الموقف برمته لتضعنا في خيارات مؤلمة آنَ التقصي عن تجارب الإنسان المؤلمة في خضم الحرب، حيث يمثل أحمد الكركوكي نفسية الإنسان الكردي المحبطة، حتى مرح روحه ينم عن محاربة لكل إحباط يضعه على محك مواجهة المآسي والمواقف المزمنة.

إن عملية رصد المآسي ومواكبتها هي من مقومات الرواية الاغترابية، وإحدى أهم أسس بناءها لأدب يحاكي تجارب الإنسان العملية في المحيط المكتظ بالحرب، لذا نجد أن النزعات الرومانسية الواقعية في آنٍ معاً من مهامها التركيز على مرامي مهمة تعقب المواقف والحوادث العصيبة، فتسجيلها كعمل روائي من شأنه أن يكون توثيقاً وفناً يقيم الحواجز ما بين المبدع والمتلق عبر الرسالة الفنية، وكذلك يجعل الحدث أكثر تجسيداً وتمجيداً، فالألم الممتاز هو الذي يبقي على دلالاته وآثاره حيَّة، من هنا يمكن فهم العالم الفني بوصفه موقفاً عن تجارب الناس والجماعات عبر تباين تواجدها الجغرافي مِمّا يخفِّف من أعباء المؤرخين وصنَّاع التاريخ.

إن الواقع الاجتماعي الذي نسعى لتغييره ليس فحسب جملة الأقاويل والتصورات الثابتة التي يتمركز حولها تلامذة نجباء يصغون ويحملقون، إنما نعني به نظاماً يعتمد على الاختلافات والنقائض، وذلك بنبذ المسلمات والنظر دائما للنصف الآخر من

الكأس الممتلئة، لذا فإن البتّ في وجهات النظر المتعددة وأخذ شيء من كل وجهة نظر هو بمثابة فهم عام ونسبي لطرائق التفكير والتوجيه، وهو إيمان مريح بالألوان التي تعود لطبيعة الحياة المتقلبة والمتلونة، والتي يهدف المعرفيون والمعرفيات عبر العصور في تشييدها ونشدانها كمذهب يكسبهم الجمال كقيمة، والخير كمبدأ إنساني، والحق كمعنى من الوجود على قاعدة المساواة. إن التحليق الفلسفي رحلة ممتعة للغاية، ولكن إخراج الفرد من واقعه ومن سياق معاناته والتحايل عليها بما يريح النفس لا يمكن أن نعتبره حلاً ، فالواقع الكردي بشكلٍ عام يلزم الكردي نفسه على أن يدفع الأذى عن نفسه، والذي بات لزاماً عليه أن يتعايش مع الكابوس القوموي الذي يتم عبره مهاجمته وإبادته جسدياً وثقافياً، لذا يبحث المعرفيون عن معالم حياة تتخذ مساراً وسطياً ما بين الجموح للفلسفة بكونها فناً لتهذيب النفس والمدركات، والواقع الجغرافي الذي تتعرض عليه مجموعات عرقية من خطر أخرى سلطوية تفتك بها جهاراً نهاراً لتحيلها إلى عدم، فمن خلال النماذج التي يرصدها الروائي نجد حقائق شتى عن معاناة كثيرين اتخذوا من الحديث والتعبير عن عظم الفوضى النفسية وسيلة لفهم واقع غريب آخر يأملون التعايش معه على نحو أفضل.

إن التكاسل عن فهم الاتجاه أو المعتقد من وجهة مغايرة، تمثل عائقاً أمام قبول الآخر، حيث من السهل التحلق والدوران طويلاً ودائماً حول اعتقاداتنا وإبقاءها مصقولة كما هي، لكن الأصعب هو أن نسير بعكسها ذات يوم، لذا كان لزاماً على المعرفي أو المعرفية التشكيك في كل ما كان يعتقد به مراراً، استناداً لحجج وقرائن المختلف، وهذه العملية تمثل تصالحاً مع هرم المعرفة العليا وقممها المرتفعة، فتجارب المترجم آزاد مع الناس متعددة وتلمح إلى دلالات الحزن والخيبة داخل المجتمع الوافد لبيئة مختلفة، إذ يعود ويصطدم بوجود المختار في إحدى المصحات النفسية، الأمر الذي أثار فيه دهشة وألماً في آن معاً، هو ذاك المختار الذي ضاق ذرعاً بمدة بقاءه

في معسكر اللجوء دون نتيجة، إذ بزواجه من ألمانية وطلاقه منها بعد حصوله على الإقامة، يدخل في شجار مع أحد النازيين الألمان، ليتمّ إحالته بعد الحادثة إلى مصح نفسي بغية العلاج، ويدور فيما بينه وآزاد حديث وشجون، هكذا في كل خرزة قصة، ألم يبرز في موضوع عام يتضمن الاغتراب ومعاناة الهاربين من كوابيسهم دون جدوى، الاغتراب يتضمن مرحلة هامة يصل لها المرء، عنوانها الاكتفاء والدراية بعناصر الوجع، وهنا يمكن فهم نزعة التماهي مع المتناقضات من منطلق معرفي يتصل بسيكولوجيا الإنسان، في حياة محكومة بالتغير والتبدل، ولعل الرواية النفسية تقدم عدة تساؤلات لحياة مجتمعات محكومة بالحروب والهجرات، ووفقاً لذلك يمكن فهم الجغرافيا وما تحتويه من تنوعات تخص الانتماء أو الهوية، مدى قدرتها على الصمود بوجه عوامل الإبادة، ومانجده أبداً هو أن نظرية القوة تلخص الصراعات التاريخية للسلطات دوماً كونها تتصف بالتجدد والتحديث، وتبرع الرواية في سبر ذلك استناداً لمواكبة التحولات الاجتماعية وطرق عيش الجماعات أثناء الحروب الأهلية أو تحت ضغط الأنظمة البطرياركية الأبوية، وحتماً المراحل المحبطة والمضطربة هي قسمة الشعوب الهاربة، وهي لا تستطيع إزاء ذلك مقاومة الخصوصيات التي تتسم بها بشكل كبير نظراً للضغط المادي عليها، والذي يلزمها بالفرار والاصطدام بصخرة العجز ، إذ أن التغيير كنظرية يبقى في مداره العاجي مالم يلق آذاناً صاغية،يتناول حليم يوسف تجارب الأفراد من منظور تبدل الجغرافيا، أثر ذلك على نفسية الإنسان المندمج ، أمام ضغط الثقافات وصعوبة تقبلها لأجسام غريبة تحل عليها كلاجئين، وهنا لابد من معرفة أن الاضطهاد السياسي والحروب الأهلية لعبت دوراً كبيراً في تبلور الاغتراب ، ليتحكم الأخير بالفرد، وليغطي كامل حياته فكراً وجوهراً وانتماء، فعن معاناة المختار، نجد في توصيفه النفسي لما يعتريه من اضطرابات معانٍ عدة أراد الكاتب إيضاحها: ,,أنا إنسان حزين ومكسور يا ابن خالي، أنت تعرف ، إذا استمر

الحـال هكذا، لـن ينتهي الكلام، همي ثقيـل يا ابن خالي، ولا آلاف الكلمات تسـتطيع شـرح حالتي، لهذا أقولها باقتضـاب لك ولتلك الجميلـة، إذا اعتقدوا أني بت كطائر مكسـور الجناح وبالإمكان تداويه، لأتمكن من أن أطير وفقط، فهم مخطئون، المسـألة ليسـت هكـذا ابن خالي، قـل لها أني طائر، هذا صـحيح، إلا أن جناحي تم قصـهما، أبقيـت جناحيٍّ خلفي،أضـعتهما وأتيت إلى هنـا، لهذا لا أريد أن يوجعوا رأسـهم بي، الطائـر لن يسـتطيع التحليـق بجناحين ورقيـين ومقبض،هكـذا إذا تم بتر الجناحين فإنهما لا يورقان مجدداً ، وطن المرء جناحاه يا ابن خالي، هذا ليس شعاراً يمشي المرء بظله، وليس قصيدة، هذه حقيقة أعيش بها يا ابن خالي، أفهمت؟".

الحنين للوطن ودخول الأحلام في داخل المرء وجعله في حالة من استحضـار دائمة لمواقف الماضـي، هكذا يبرز المشهد بسـوداويته في داخل المختار الذي اعتبر أنه خارج البلد كائن بلا جناح، يرى النازيين يسـتنكرون وجـوده بينهم كغريب، فيعاركهم تارة، وأخرى يرى أن لهم الحق في أن يسـتحقروا الغرباء الذين هربوا من أوطانهم ليتخذوا منهـا ملاجئ دائمة، وهذا أمر يدرك صـعوبته المختار ذاته، لهـذا نجد حديثه المفعم بالشجون مستمراً، والذين لا يبرحون ذاكرته ما بين من يلومه ومن يقرعه وآخر ينتظر عودته، كل ما عاشه يعاد في داخله كحلقة بانورامية لا تنقطع، الألم الذي تتحلق الكلمة حوله يمثل توثيقا لمسـبباتها ونتائجها على الآخرين، والمنفى الذي يعم الداخل قبل أن يكون الحدث أو المناخ، يمثل موضـوعاً رئيساً يتعامل معه الأدب بوصفه إشكالاً إنسانياً خاماً ومتجذراً في رحلة الإنسـان في الحيـاة، لهذا فإن المغزى من قراءة العمل الأدبي، هو كشـف السـتار عنه وملاحقته بأدوات تعمل على التقصـي وفهم طبيعة التحركات والمواقف الإنسـانية، وردات الفعل السلوكية، بغية الحد من آثار الاغتراب السلبية على الذات الفردية ووقفها كاضطراب عبر فهمها، وإيجاد آليات معينة لاحتواءها.

من هنا يمكن القول أن الرؤية النقدية الفاحصة للنص الزاخر بالأحوال والمتغيرات وأثرهـا في حوارات الفرد مع الآخر، تعتبر محاكمـة منطقية للظواهر وفهم مدلولاتها اسـتناداً للسـرد بما يتضـمن من مكان وزمان وأحداث ومناخات متبدلة تخضـع هي الآخرى للسبر والتنقيب.

الكاتـب حليم يوسـف يجد أن المهاجريـن للبلد الجديد لايمكنهـم أن يعيدوا ذات الروح مجدداً في الموطن الجديد، ويبنوا علاقات طبيعية كالتي كانت سائدة في الموطن الأصلي، إنما هناك عيش في الماضي والمكوث فيه، ذلك العالم يعاد بناؤه على نحو آخر وبطريقة أخرى، ما تلبث أن تسـيطر المشـاعر العنيفة على الأرواح المعانية، وتستسـلم لحالات من التصـادم النفسـي، وهكذا يمكن فهـم الحياة بكونها رغبـة دفينة للولوج لأحضـان المواقف الجميلة التي تسـتولي على المرء وتقيم فيه جسوراً من أفكار وأحوال تتعدد أوجهها، والمرء في سـاحة الشـرود ينتمي لمجموع حوادثه المعقدة والأكثر بقاء في الـذات، لهذا بات لزاماً على الشخصـية الناطقة أن تقيم فيما بينها والآخرى جسـراً تنشـده وعزاء تنمي من خلاله قدرتها على المضـي في التذكر والوفاء للحياة الماضـية أكـثر، يمكـن القول أن الاغـتراب يدخل في بوابات متشـعبة وكثيرة، فالحاضـر الذي سـرعان ما يتحول لماضـي يحيـل المتذكـر إلى أن يفهم الحياة بكونها سـفر من مكان لآخر، سفر دون عودة، فالماضي لا يعود والمهاجر أيضاً من المحال أن يعود لذاك الموطن الـذي في روحـه، فالجغرافيا في تغير دائم ، والوطن الذي يذهب لا يعود، لأنه يتجسـد علـى نحو فكرة في الذهن لا أكثر.نجد في عبارات المختار التي راح يصـوبها لآزاد تنم عـن حزن وحكمة في آن، حزن على ما آل إليه وضـعه النفسـي وحكمته في فهم الوطن وفق ما علمته تجربة الغربة تلك ووعورة مسـالكها، إن تعاظم بؤس الحياة لدى الفئات المغتربة مؤشر خطير لبروز الذات باتجاه ما يجعلها تعاني وتنتكس وتنطوي عن العالم الخارجـي بما يحمله من مفاجـآت وأحداث كثيرة، لهذا نجـد أن تعمقنا بالبحث عن

مقولات أهم المغتربين حكمة وفلسفة أو أدباً وفناً، نجدهم قادرين على إعطاء وصفات طبية مقتبسة عن أوجاعهم وكذلك يمكن أن ينشؤوا جسور تواصل إيجابية، ونعني بها هنا المعرفيات والمعرفيين ممن يستطيعون الولوج بالحياة والتفكير بها من منظار تجاربهم في خضم الأحداث.يمكن فهم العبثية على ضوء اغتراب الناس ولا اكتراثهم بما يعتريهم في مرحلة مزمنة من محاولتهم الكثيرة في اللا اكتراث وتجاهل الوجع، أو الركون إليه ليكون حديث الجلسات أو المنامات التي تعكس حالة النفس المتحدثة عن فصول كآبتها والناتجة عن احتكاكها بالمحيط أو التعامل مع البعيدين عبر قانون الجذب والتواصل الروحي، بذلك يمكن فهم الغربة كمولد للتشخيص واستحضار كل ما كان مهملاً عن ساحة الشعور في زمن معين.نجد المختار في البداية يقارع بشدة حالة التمييز التي يجدها عبر تصرفات وعنف القوميين الألمان تجاه المهاجرين، لكنه ما يلبث أن يداري الحالة عقلياً بين طيات ذهنه، فيرى أن لهم الحق في النفور والتذمر إزاء موجات المهاجرين القادمة لبلادهم، هنا لا نجد المختار بمثابة الشخص المريض، إنما يبين لنا الكاتب أن الإنسان المغترب شخص متوازن ومدرك لما يفعل إلا أنه يعاني وهناً وليس مرضاً، إنه شعور عام يزداد مع الوقت ليصبح الشيء الأكثر تموضعاً في النفس، نجد أن كل من ساندرا وبريفان، على الرغم من تناقض شخصيتيهما، إلا أنهن استبعدتا تماماً عن حياة آزاد الذي بدأ بالعمل والاعتماد على نفسه ورعاية ابنه أيضاً، وكأن الكاتب أراد أن يبين سهولة الحياة دون أقل إحباط أو خيبة أمل من كلتا الشخصيتين، الغيورة المتسلطة والخائنة الضعيفة، هناك إطالة في التحلق حول أزمة الاغتراب التي يعايشها الشخوص الموفدون من بلدانهم مع اهتمام بواقع كوردستان من خلال أخذ عينات اغترابية هنا وهناك، إلا أن معظم نتائج كل اغتراب، سلبية، إذ لا خروج إيجابي من تلك الحالة وإنما جنوح باتجاه النهايات المأساوية، كحالة أحمد الكركوكي، وحالة الأب الذي يحن لأبيه وماضيه، وحالة حمزة الذي ظلت

تطـارده ظلال القوميـين الأتراك ومن ثم الألمان، وهكذا نجـد أن غالب تلك النهايات محكومة بالسوداوية والسلبية لاحظ للمرأة في رواية 99 خرزة مبعثرة، اللهم بريفان وسـاندرا، البقيـة عبارة عن بقع ضـوء في تجـارب المغتربين الرجـال؟ إن ميل الكاتب للسـوداوية وتشخيص الشخصيات التي تتمتع بكاريزما متمايزة عن غيرها، هو تعبير إبداعي عـن اقتران الإبداع بالواقع المعيش وإخراجه على نحو صـورة متقنة ومرهفة، لهـذا وإن بدت لنا تلك العفوية في سـرد مآلات الحدث ونتائـج كل حالة اغترابية، فإن الإيمان بتداخل الأضـداد في جوهر الحياة، وهذا من شـأنه أن يغذي النسـيج الروائي ويفتح الباب على مصـراعيه للتأويل والتفسـير والحديث عن كل مشـهدية بما يجعلها بهيئة رسـالة منفصـلة عن سـابقتها وإن توحد المناخ العام في الرصد وسبر الإشكال. قرب الإنسان من الكآبة وصداقته المديدة مع الحزن هو ما يجعلها إبداعياً تسبر أغوار من لديهم معاناة واضـطرابات، وكأنه بذلك يتـم إخبارنا أن الحياة المفكرة هي رحلة ممتازة ومسـتمرة للبحـث عن ماهية العلـة المقترنة ببقاء الموجودات البشـرية ودوام تنقلاتها، العلة هي المحور، كون الجسد و الروح معلولان بطبعيتيهما، وعليه فإن الآداب الإنسانيَّة والعلوم الطبيعية تغوصان عن كثب في تلك الدائرة الهلاميَّة.

العجـز عـن التغيير والانكفـاء يمثـل روح الرواية العام، والتماشـي مـع الأحداث بطبيعتهـا، يعـد تسـليماً منطقيـاً بحقيقة الواقـع القائم على التناقضـات الإنسـانية والتجـارب الكثـيرة في عموم الحيـاة المعيشـة، وواقع المجتمعـات الهاربة إشـارة إلى المزيـد من التصـدع والأزمات النفسـية العاصـفة بالأفـراد المتنقلين لحيـاة متمايزة عن نمط حياتهم السـائد ومرورهم بالاضطهاد السياسـي والاجتماعي وعجزهم عن التماثل للشـفاء من وعكات التذكر والمشـاهد المحبطة المتعلقة بالماضـي، تلك المشاهد التي يسـردها الروائي تجعل الرواية أقرب إلى مختبر لسـبر ماهيـة العلة وتداعياتها ونتائجهـا بغية فهم أكبر لطبيعة النوازع الإنسـانية وما يبتغيه المرء في الحياة وحاجته

للاستئناس والاتكاء عبر الآخر الغائب المضمحل والمنتهك إنسانياً ويعاني استنزافاً في رحلة بحثه عن الأفضل، فعلى مسرح الانكسار تعاني الذاكرة متسعاً من الألم، وعليه فإن الرواية تحقق في حوادث البشر وتبحر في الاغتراب، كونها الجودة العليا للأخذ بالقيمة الأدبية والفنية من حيز القائم إلى ما يجب أن يكون ميداناً للابتكار وإحداث الاستفهامات والخروج بالنتائج الجيدة من ذلك الغوص النقدي في تجارب البشر ومعاناتهم وسلوكياتهم من طورٍ لآخر.

فهم السلوك البشري من منظار الرواية يبدو أمتع فنياً، وحين يتحول لمادة تأويلية يصبح بمقدورنا عقد روابط وصلات أكيدة بينه وبين الأفكار الموضوعية، فالغوص في التجارب يمكنها أن تسهم في بلورة البعد النقدي للرواية وإنتاج الأفكار الجديدة التي تتصل بإعادة النظر لقناعات الأفراد وتنقلاتهم، فهي ليست توثيقاً أو تاريخاً يتم عرضه، وإنما هو إحداث قرائن وروابط بين الناس ونقل الأفكار القائمة من زاوية فنية محضة، أو لعلَّه تقارباً ما بين الفن والفكر اعتماداً على المناخ الزمكاني التي تجري فيه الأحداث والمقابلات، فالمشاهد المتعلقة بالمكان لها أثر على النفسية بالتأكيد، كذلك وصف حياة العجوز مع زوجته الهرمة، وطريقة حياتهم وانشغالاتهم الكثيرة التي جعلتهم يعيشون لوحدهم دون أطفال، فالبيئة تلعب دوراً هاماً في رسم المناخ الفني للرواية بلا شك، لأنها تقود خيال المتلقي إلى حيث يجب أن يكون، فرصد التجارب بمختلف المراحل عملية من عمليات الأدب الذي يشغل مساحة جيدة في حيز التفكير الاجتماعي، لما له من أثر على الواقع وترتيبات الآخرين وتنظيمهم للوقت، فعمل الرواية هو نقل المجهود البشري إلى طاولة التأويل والسبر، ومعرفة إشكاليات فهم الآخر والارتباط بالجماعة ومراحل تطوراتها عبر الزمن، هذا الفهم للإنسان ومشكلاته يبنى بصورة مباشرة إثر علاقة الناقد بالمنتوج الإبداعي وقدرته على إعادة تدوير ما تم إبداعه كجنس أدبي، وفهم الإبداع من منطلق إعادة إنتاجه فكرياً عبر

إحداث مقاربات ومقارنات وترابط بين الأحداث ومدى قربها من الموضوعات الفكرية الأخرى، يعود آزاد للوراء عبر تلقفه لرقم أخيه من أحد المعارف الذين عرفهم أثناء عمله في الترجمة في القسم النفسي، يتحدث عن ماضي كان قد رماه وراء ظهره، وتعود به التفاصيل والأحداث التي تخص عشقه القديم وسط سؤاله عن مآلات الوضع الحالي واندلاع الحرب الأهلية في البلد، وما رافقه من نقص خدمي حاد ومشكلات أخرى عديدة، يجد اخته تحمل سلاح زوجها وتناضل أيضاً، وتلك المتغيرات التي نشبت بعد وفاة زوجة أبيه، وهكذا عاد ليتذكر بريفان وتلك الأفاعي الخضراء المنقطة بالسواد والخارجة من بئر عطو العطار، تذكر كل ما اعتقد أنه قد نسيه، وسط تفاصيل قام شقيقه بسردها له، هنا يعيد حليم يوسف ذلك الترابط بما يحدث الآن وما بدأه في الإيغال بمأساة البطل، وكيفية تطور سلوكه عبر الزمن، فالخيبة التي عاصرها من حب توشح بثوب الخيانة، وفسادٍ خرج من أظفاره واستبداد تفاقم وبدأ يغطي لون الأفق، واضطهاد جسدي ونفسي قاداه إلى الهجرة، ما يلفت النظر هو ذلك الربط بين قضية خيانة المحبوبة والفساد الاجتماعي فالسياسي ومن ثم بؤس السلطة، فقد أجاد الروائي الربط لأغراض تتعلق بالأفكار التي أراد إيصالها كرسائل مرمزة أحياناً وواضحة أحياناً أخرى، فمصدر العنف والشر هو انفراط العقد بين الرجل والمرأة، التعاقد الطبيعي الذي أساسه الحب، ومقابل الحب سلطة الفساد والاستبداد الذي يقلص الإيمان به، ويضعفه، حيث التقاليد والعادات الذكورية حالت دون إيجاد بريفان قوية وتصلح للتشبث بالعهد والمحافظة عليه، وعن ساندرا التي انفرط الحب بينها وبين آزاد، نظراً لانعدام الثقة بالرجل إثر مرورها بتجارب بائسة عاطفياً، قادها ذلك الإحباط مجدداً للوحدة والمضي في دروب العزلة والإنزواء، ليبين الروائي هنا انفراط العقد في مناسبتين مختلفتين، يجمعهما قاسم مشترك وهو الخيانة النفسية التي جعلت العلاقة بين الرجل والمرأة جحيماً، ففي المجتمعات الشرق أوسطية وكذلك

الغربيــة لم تعد العلاقة بين الرجل والمرأة طبيعية ببروز وســائل الاتصــال والتواصــل وتعددها، وهذا ما يجعل الإنســان في متاهة التعقيد، يغوص في العاطفة ملياً وينســدل الســتار فجأة عن نشــوة اختفت، ورغبة بالبقاء مع الشــريك الآخر تحتدم وسرعان ما تخفت وتتوارى.

إن الحديث عن تداعيات العلائق الوجدانية وســبرها ليس سهلاً، كما أنه ليس من السهل المحافظة على حرارة الحب بين الجنسين على ضوء تخبط كل من المرأة والرجل وسعيهما على حدى للخلود في تجربة الطمأنينة ونشدان الحب ضمن قالب التخييل مع تجاهل صــريح للواقع المعيش، وبقاء الذات أســيرة تجاربها المحبطة مع إصرار باطني في البقاء على ما هي عليه، ذلك يجعلها تتنفســخ في ماضــيها وشخوصــها دون حل، بما لاشــك فيــه فإن المغتربــون لا يحاولون طرد كل مــا يتعلق بالجانب المعتــم من حياتهم بسهولة، وإنما يتفاوتون في درجة الإصرار على ذلك، إذ من الصعب على المحبطين أن ينفكوا عن خليط المشاعر السوداوية التي تنمو معهم بالتزامن مع انشغالاتهم الكثيرة، حيــث لا يغدو الانتقال من موطــن لآخر إلا حاجة للانفكاك عن ضــغوطات الاغتراب الداخلــي، وهو اغتراب يتصــف بالمرارة والبؤس ويكون أساســاً لــكل عقدة مزمنة قد يتعرض لها الفرد.

بهــرام الأعمى وقصــته مع المترجم، رواها الكاتب بتقنية سلســة وبــروح فيها من الدعابة والأنس حداً يجعلنا نشعر بتموجات السرد وتلوناته المنحازة للفن، إذ مع مراعاة هذا التعدد في الأسلوب ونقل المشاهد يمكن وضع رواية أقرب للواقع منها إلى النموذج المحــدد بعالم صــوري يهيمــن الكاتب دون ســواه عليه، ولا يخلو الواقع مــن فنية ومرح الآخرين كما نزقهم وغضــبهم، شقاؤهم أم سعادتهم، لهذا نجد تجسيد صور الحياة مطلوباً بزخم يواكب الأفكار الموغلة في وأروقتها، تقديم الوقائع والأحداث والحواريات بشكل فني باعث تحفيزي أكبر لفهم مدى ارتباط الفن بالواقع وممارسة الناس له عبر

أطوار حياتهم المختلفة، فالمرح والنكتة والسخرية والشتائم كلها من أدوات الفن ونقد الحياة استناداً لجدلية الاستئناس والنفور، القدح أو المدح، الإستحسان أو الزجر، إلى ما هنالك من ردات فعل إنسانية، حيث يستند الروائي إلى المكان مجسداً كما هو في القسم الثاني ما بعد الخروج من الوطن، فيصف المصح النفسي وجولات المترجم بين المرضى، لعله يستخدم المكان الافتراضي أيضاً ليعبر عن تجربة بعض الشخوص ومآلات حياتهم ونتائجها التي حضتهم من خلالها على الهجرة. يدور حوار ما بين الأعمى والطبيب الأخصائي برفقة المترجم آزاد، ليعرض لنا الروائي عبر هذا المشهد تضاد الأمزجة وتنافرها بين أعمى حاد المزاج وأخصائي يلتزم بعمله ونمط تلقينه المحدد بإطار المهمة التي أوكل إليها في ذلك، إشارة إلى تفاوت الفهم الذي يعانيه الوافد الجديد المكتنز بثقافته والمصطدم بصخرة ثقافة جديدة يستصعب تقبلها والاندماج فيها، تضاد تفكيرين متعب بالنسبة لبهرام والمختار، كلاهما لم يستسيغا الاندماج إثر تعلقهما الكبير بالبلد وثقافته.

يشدد حليم يوسف على مفهومي الانتماء والذاكرة كحاضنة أساسية لحفظ الخاصية القومية والتأكيد على عظم حقيقتها في النفس، على الرغم من الويلات والصعوبات التي يتعرض لها الإنسان الكردي منذ اصطدامه بصخرة الظلم والإحجاف وصعوبة التأقلم مع هيكلية الدولة القومية المركزية وتعاليها على حقيقة التنوع العرقي والإثني وشمل المنطقة كلها بطابع عرقي ضيق وهو القومية العربية، حيث المغترب داخل الوطن وخارجه يعيش ذلك الألم الوجودي ويحيا معه، فكانت الرواية الوطنية بمثابة عِقار لوصف أعسر الحالات لأناس حملوا معهم الهموم الانتماءية لجانب المعضلات الفردية الذاتية، وتلاقح الذاتي مع الموضوعي في تقديم الأثر والتأثير على المتلقي بمؤثرات متعددة لغوياً تستطيع تحريك العادي والمثقف والمبدع على حد سواء، فتنوع أساليب السرد يمكنه إيصال الرسائل بطرق أيسر، ولعل الكاتب ظل حريصاً على ذلك منذ

بداية الرواية، حينما قام بتصنيفها وتبويبها حسب أعداد الخرزات المبعثرة، تشبثاً بمضمون الرواية واسمها منعاً من تشتتها وخروجها عن المسار المنتظم، النسق الذي بدونه لا يصلح لنسمي أي عمل محدد بأنه إبداع، كون النسق أصل الابتكار ومولده، فالتعبير عن صلة الفرد بالجماعة وانتمائه لها جلي في نقل المعاناة التي منبعها الوحدة والشعور بالحاجة لإعادة الرابطة الاجتماعية، كونها العقدة في فهم دواعي الاغتراب وأسبابه، فما بين غربة الفرد في الجماعة وغربته بعيداً عنها غموض فلسفي شائك يلخص رحلة الإنسان في خضم حياة صعبة وعسيرة على الفهم والاحتواء، فنجد الحوار في الرواية يفسح مجالاً للشخصية للكشف عن نظرتها من منظار علتها، فالأعمى بهرام أوجد نمطاً من المنطق تبعاً للحالة التي يعايشها، إذ ثمة صلة بين الفلسفة الذاتية للمرء ومعاناته إن كانت نفسية أو جسدية، حين نقرأ هنا: " هكذا بات بهرام صاحب عكَّازة، وبعد ذهاب المعلم، عاد إلى الحديث عن السياسة:

-أتعرف يا أخي، ربمّا أنت مندهشٌ لأنني لا أولي اهتماماً إلى كوني أعمى، السبب هو أنَّ العماء الحقيقي هو عماءُ القلب، صحيحٌ أنَّ الحرب والأعداء سلبوا منّي نور عينيّ، لكنّهم لم يستطيعوا جعلي بقلبٍ أعمى، إنّني أرى العالم بقلبي وهذا الأمرُ يكفيني، لا بدّ أن تخاف من أعمى البصيرة، وليس من أعمى البصر، عينا قلبي مفتوحتان على الدّوام، أراكَ الآن وأرى العالم بهما. ".

التنقل في معاناة الهاربين من موطنهم يجسد التناقضات النفسية للمجتمع الكردي ما قبل الهجرة، والنقص الحاد على صعيد التعامل بين الأفراد، الترابط الأسري، المعوقات الكثيرة التي تقف بوجه الإنسان الشرق أوسطي إزاء سعيه لتأمين احتياجاته والأسرة، صعوبة التكيف مع وجود النقص وسوء المؤسسة المنظمة للتعاقد بين الناس وعجزها عن تقديم حياة جيدة، يكمل الكاتب في عرض نماذج عن اللاجئين المحبطين نفسياً، هدى المناضلة الشيوعية والمعتقلة عقداً ونصفه في سجون النظام السوري،

وسـمية الكرديَّـة الإيزيدية التي تعيش عقدتها من المتطرفـين الجهاديين ممن عاثوا خراباً وفسـاداً في مدينتها ودمـروا كل ما له علاقة بالحياة لديهـا، إلى العجوز غزال التـي تقيم مع الجان وحيرت الأطباء بتلك التهيـؤات التي تراودها، هذا جعل المترجم يعيش في صـراع مؤلم، حينما يسـتمع لتلك القصص والآلام التي تعرضوا لها كلٌ على حدة، فللحروب إسـقاطات نفسـية على المرء، والمفاهيم والأفكار على ضـوءها تتغير، لإن الصـراع يخلق ثقافة متصـلة بالعنف على نحو مباشـر وموغل في تفاصيل حياتنا وتعاملاتنا كبشـر، الحرب متشعبة الأشكال ولها تفرعات تتصل بالنفسي والاجتماعي والجسدي، فلو تأملنا العلائق الاجتماعية نجدها موغلة بالصراع والفرقة والانقسام، لاسـيما بجنوح الإنسـان إلى الاحتـكار والبحث عن مصـادر دائمة لأمانـه ورفاهيته، بتعارض هذا المسـعى مع مصـالح الآخرين، ينشأ الصـراع، الحياة حرب، والتصارع اختبار عام وشامل للبشر، والبقاء للأقوى لأنَّه الأجدر، إلا أن بقاءه قوياً، يدفعه لإنشاء علاقات وتبادلات منها ما يخص الجانب المنفعي، وهو الأهم، ومنها ما يتصـل بالقيم والأفكار والثقافات، وصونها متوقف لمدى قدرة المجموعات البشرية على إبقاء منافعها دون المغامرة بها، مما يدفعنا لخسـران المنافع الروحية المتصـلة بالأفكار والعواطف، واللاجئـون حتماً هم مجموعة من البشـر الذين وبسـبب الانفجـار الإقليمي والدولي علـى أرض محددة، دُفعـوا للهرب والعيش في نقطة أبعد من الخطر، خسـروا المنافع، وبالتـالي تهـددت حياتهم الروحيـة والفكرية، فهـم يبحثون عن حياتهـم المادية بغية ترميم الخراب الروحي الناشـئ حتماً عن ضـياع الممتلكات المادية، من هنا يمكن فهم مـدى ارتباط المـادة بالروح، إذ دون ذلـك يقيم العجز ومن ثم الإغـتراب الذي يدقع الذات للمعاناة والقلق المستمر.

على ضوء ذلك نجد ما يلي:

الحرب الداخلية التي تعصف بالإنسان هي وليدة التصادمات والأحداث التي شهدها منذ طفولته ولغاية فناءه، لا تتوقف بل تهدأ وترتفع تبعاً للمفاجآت.

التخلف حسب الرواية هو عدم تقبل التأقلم والتكيف وقبول الآخر، وكثرة حدوث سوء الفهم بين الأفراد، مصدره الانعزال في قوقعة الجغرافيا والمحيط دون الانفتاح على تجارب ومعاناة الآخرين وفهم العالم وعيشه لغاية الاكتشاف والتعرف وجمع الخبرات للأخذ بالحياة من مساحة الهامش والمعتاد لمساحات أكثر سعة ورحابة ونقل تجارب الآخرين نقلاً تسجيليًّاً يمثل موقفاً يتصل بمذهب عبثيَّة الحياة وصعوبة دفع المعضلة الواقفة أمام المرء.

أحمد الحمصي من الذين نجوا بأعجوبة من الموت في سوريا، وهو جزء من سلسلة المشاهد التي تمر على المترجم آزاد بثقل، فالحرب الكارثية في سوريا ومشاهد قطع الرؤوس والبراميل المتفجرة والمجازر التي تنفذها كل من المعارضة الاسلامية المتطرفة وشريكتها في القتل النظام السوري العائلي، جعلوا ميراث سايكس بيكو المتجسد بسوريا يتعرض لنكسة، فهاهم المرتزقة والمأجورين من كل صوب وحدب يقتحمون الحدود المقدسة من كافة الجهات ويمعنون في القتل وسفك الدماء، ليتحول المجتمع برمته إلى دروع بشرية ووقود لحرب السلطة مع خصومها، وهكذا يكتمل المشهد لدى حليم يوسف بأن يدخل لطور الانفجار الذي كان في طور النمو من خلال تتبعنا لرواياته الأولى، هنا إثر الحرب المجتمعية يبدو المشهد أكثر وضوحاً من أي وقت مضى، الحرب باتت الوجه العلني الذي يتضمن كل تلك التناقضات والإعوجاج الروحي الذي رسخته السلطة في الناس من خلال حقل التربية والتعليم، ولاشك أن المشكلات المتفاقمة سببها احتكار المنظومة السياسية لأقدار ومسارات شعوبها والحد من تطلعاتها وكبح جماح أفرادها، نلحظ وصف هذا الانفجار المدوي في سوريا عبر الذين نجحوا وبقيت آثار الوجع

واللعنات لصيقة بهم دون طائل، حرب ضد الإنسان ولصالح السلطة وأربابها بغية رسم حدود جديدة بديلة عن حدود سايكس بيكو، التي أشار الكاتب إليها في روايته خوف بلا أسنان.

نجد نسقاً مهماً في ترتيب روايات الكاتب، وصولاً بها لهذه الرواية وتتبعاً لنفوق جثة الدولة الإستبدادية وعجزها عن الصمود بوجه التغيير الذي يطأ كل مكان بسبب سعي أطراف النزاع إقليمياً ودولياً على تغيير الخرائط وإعادة التموضع، هذا يطال الإنسان وحياته بلا شك، ويستلزم وقوداً وأجساداً تحترق ومصانع سلاح تعمل ليل نهار، لتدمر وتستنزف البنية التحتية والفوقية للمجتمع وتحيله إلى فرار أو دمار، فالمقاتلون يتنازعون ويسفكون الدماء، والأكثر نزيفاً هم الهاربون من هذا التنازع الدموي، يقوم الكاتب بربط حوادث الحرب السورية بحادثة خيانة الحب عبر رمزية خروج الأفاعي الخضراء المنقطة بالسواد، من بئر عطو العطار، إثر خيانة بريفان لآزاد، ليبين أن طريق كل خراب يبدأ من الفساد، حيث ضياع المجتمع مؤشر للحروب الداخلية التي يجني ثمارها السلطويون المركزيون، أعداء التغيير والمحافظين على تقاليد التسلط وضرب الفئات الاجتماعية بعضها ببعض.

يجسد لنا الكاتب شخصية أخرى تعرضت للوهن النفسي، حسين الذي يتحدث عن أبيه المثلي ورغبته في مضاجعة الأطفال، وهرب الجميع منه، وكذلك رغبته في قتله، وإراحة نفسه ووالدته منه، إلى أن بدأت الحرب في سوريا، ولقي والده مصرعه في انفجار، مع ذلك وجد نفسه وأمه في حالة بكاء، والإشكالية النفسية هنا تناقض بين شعورين، أحدهما رغبة في قتل ذلك الأب، وأخرى حزن على وفاته.

إن تناقض المشاعر الإنسانية أمرٌ محير يرويه الكاتب هنا ليبين علة الفرد وتفسخه ومعاناة الآخرين منه، رغم ذلك فإن الموت يجعله ينال حظاً من التعاطف والإشفاق على الرغم من سلوكياته المقيتة، لهذا نجد أن المرء غير قادر هنا على التحكم

بمشـاعره وطبيعته أمـام حدث كالموت، إذ تظهر عاطفة الإشـفاق لتنـوب عن غريزة الانتقام والقتل، في مشهد تتزاحم فيه الأفكار والعواطف ما بين نداء الواجب والضمير وبـين رغبة في الفعل وأخـرى في التراجع، حيث عانى حسـين ازدواجية المشـاعر إزاء والده الشـاذ وحالته، وهذا ما جعله أخيراً يعاني من الاضـطراب النفسي وسط منفى جعلـه يعيش الماضـي وأحداثه، ما يجعله بعيـداً عن مناخ التأقلم والتكيف مع الوضـع الجديد، في إشـارة إلى سـيطرة الذهنية الذكورية المدعومة بنظام أبوي شـمولي على المجتمع، وصـلة ذلك بتقهقر الحياة السياسية وحدوث الحرب الداخلية نتيجة ازدياد العاهات النفسية والسلوكية، وكذلك عطب في ذهنية الإنسان الشرق أوسطي، كل تلك العوامل تضـافرت واتحدت لإنشاء واقع دامي دخلته سـوريا منذ 2011، حيث ثنائية الحـرب والهجرة عرَّت تلك العلل أكثر، وباتت أمام المجهـر إن في الرواية أو في الواقع المعيش، تلك الازدواجية في المشـاعر بات آزاد يعيشها حينما علم من حسين أن والدته اسـمها بريفان وإن والده هو ذاته صـديقه ياسـينو، حيث تعود ذاكرته للوراء وتحترب الأحـداث في داخله، فنجد أن الماضـي لدى المهاجر من بلـده لا ينفك عنه، وإنه يعاني أيضاً من تذبذب العواطف واختلاطاتها، حينما يدور الحديث بين آزاد وحسين الشاب الصـغير، يشـعر أنه منقاد على نحو عفوي وتلقائي في مسـاعدة حسـين بغية لم شمل والدتـه بريفان، والتي هي في الآن ذاته حبيبـة آزاد وجرحه العنيف، يعالج الكاتب من وجهة نفسـية حالة البطل في تعرضـه لحدث جذب ذاكرته وعاد به إلى السَّبحة، وتلك الوخزة العميقة التي لم ينفك منها، يعيد ربط تفاصـيل الرواية لأصلها المتمثل بحكاية آزاد وسـعيه للانعتـاق مـن آلام ظلت جزء منه، تلـك النكبات جزء من إرث الإنسـان في الوجود أثناء علاقته بالآخر والعالم ككل، إذ يرصـد الرغبات والدوافع المضـطربة للإنسـان المغترب، والذي يجعله متأصـلاً بالآلام دون إيجـاد طريقة للتكيف الحقيقي مع الحاضـر، فالقيود النفسـية تلعب دوراً في حياة الفرد، ولفهمهـا يتوجب الانغماس

في المراحل الأولى للإنسان، ولا يمكن أن نغفل إسقاط الكاتب لعوالمه الفردية على شخوصه، إذ نلمح ذلك التشابه فيما بين الشخصيات، على تباين حالاتها، فالمبدع يوجد الشخوص ليقوموا بتمثيل مواقفه في الحياة، هكذا يغدو النسيج الروائي في ماهيته رؤى ومحصلة لجملة مواقف وتجارب.

تتميَّز الرواية الاجتماعية في 99 خرزة مبعثرة، أنها تعمد إلى إبراز الفرد الفاقد لوالدته منذ بداية أطواره الأولى، ونظرة الآخرين إليه كفرد محط إشفاق من قبل الناس، وقد أراد الكاتب أن يستثمر اليتم الفردي، ليبني عليه فيما بعد قاعدة للفقد والاحتياج المستمر لإنسان يكمل الذات ويحفزها على العيش، وفقدان تلك الحلقة في حياة الفرد، تعني له المأساة والحرمان والمزيد من الاغتراب مع الوقت، فلدى كل فرد عقدة نقص غير محددة يعمل على تداركها وحلها، بيد أن الإصطدام بالموانع والصعوبات يجعل الحياة متعبة وغير مجدية، إذ يدل حليم يوسف على اليتم ليتخذه مرموزاً سياسياً متجلياً بافتقاد الكرد إلى كيان سياسي وجغرافي يسهل للطامعين التحكم بهم وطمس معالمهم، فالرواية ليست محض تجسيد لسعي الأفراد نحو ترميم النفس وترويض عقد نقصها، وإنما عقد تقاطعات ما بين الخاص والعام مروراً بالظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وإلماماً بمتغيرات النفس، إثر الحوادث العابرة التي تأخذ حيزاً مهماً من حياة الأفراد ونزوعهم لحياة خالية من الإرهاصات والمآسي.

إن شراكة الخيال مع الواقع في الرواية طبيعية ومكملة وهي تشخيص لعوالم المبدع في رسمه للحياة بطريقة فنية لا تتعارض والواقع السائد، إنما تخدم الأفكار والفن دون أن تنحاز بكلية إلى الخيال أو الواقع كما هو، ولابد من وجود ألم حقيقي، يقف وراء الكاتب ونظرته للآخر والذات، أو العالم ككل، نجد أن حليم يوسف، ينزع للمثالية التشاؤمية أكثر منها للواقعية الفنية، محاولاً أحياناً الجمع بين المتناقضات في معرض السرد والحوار، وقد اهتم بالحقل النفسي كثيراً، بخاصة في نهايات رواياته على نحو

نفسي، إذ يحترق سليمان في سوبارتو، وتنتهي مأساة البطل موسى بالجنون في رواية خوف بلا أسنان، وينتهي حال ماسي بالجنون والاكتئاب الكبير في رواية حين تعطش الأسماك، كما انتهت حياة المترجم آزاد بالقتل بطعنة سكين على يد أحد الشبان المراهقين.

في روايته 99 خرزة مبعثرة ثمة نهايات مأساوية تعبر عن حالة من التمزق والألم الشديدين عن واقع اجتماعي لا يكاد يتغير، نجد أن الشخوص يميلون للبحث عن الكينونة والتحرر من المأساة والواقع الذي أفضى بالنهاية، وبصورة تدريجية إلى الجمود والتلاشي، وقد عبر الكاتب حليم يوسف عن اتجاه ايديولوجي غير معلن، حينما أبرز حالة انعدام التكيف أو التأقلم مع المحيط الجديد لدى هؤلاء الوافدين من بلدانهم لأوروبا، مبرزاً طبيعة الحياة الأوروبية المشبعة بالقيم المادية المناقضة للروحانية الشرقية، وكذلك معبراً عن صراع الهويات الموجود في كل مكان، وتلك الكراهية المستوطنة للعقول والأذهان، خطر هذا الصراع ومحاولة إيلاءه بقوانين تصون الحريات وتحترم الإنسان وتحميه، حيث يعبر الكاتب وعلى لسان الشخوص والمواقف عن استهجان نمط الحياة الجديدة، وعن نظرة الشخوص لها تبعاً للأمراض النفسيَّة الموغلة فيهم والتي سبّبت في النهاية نوعاً من الاكتئاب الحادّ لهم.

التشاؤمية في الأدب باتت تحتل هاجساً رائداً في مساراته، وهي بالتالي انعكاس لعوالم الفرد وميله للعزلة، حيث القلق يمثل باعثاً للتشاؤم والإحباط، فالقيمة الجمالية في الرواية تتجسد في التحدث عن المعاناة بطريقة سلسلة تنم عن إلمام بروح الجماهير وبساطتها، وكذلك تعبر عن فطنة المفصح للحوادث الاجتماعية، وسعيه لأن تكون اللغة الروئية في متناول فهم الجميع، وذلك بالابتعاد عن الشعرية الجديدة التي أحبطت الرواية في زمننا هذا، وجعلتها عبارة عن نصوص أدبية تفتقد للحكائية والحبكة، لهذا نجد الشعرية لدى الكاتب هنا طفيفة ونسبية جداً، لصالح الأساليب الحكائية التي تسوق الأحداث والمواقف من فكرة لأخرى، وبهذا يتحقق العنصر الجمالي المتجسد

بالتشـويق إلى جانب طرح الأفكارمن فوهة الوصف ومعاناة الشخصيات، ومما لاشك فيه فإن العنصـر الرئيسـي للرواية يلعب دوراً مهيمناً ومسيطراً على السرد من بداية الروايـة لمنتهاهـا، حيـث يراعي الكاتب حسـن الانتقـال، ولا تغيب عـن باله الخيوط المؤسسـة للرواية فيعمد إلى ربط البدايـة بالنهاية، ليحرص على هذا الترابط المحكم داخل نسـيج الرواية والعمل الفني بوصـفه تشخيصاً لمشكلات الأفراد في ظل المجتمع، حيـث تعبر الرواية في فلك المجتمع عن هوية ضـائعة وكينونة يفتقد لها الأفراد في ظل القمـع السـلطوي لهم، إذ يتحـدث الكاتب عن آثـار إرهاب الدولة علـى الأفراد، هذا الإرهاب جسـدته تلك الأحداث والتصـورات التي رافقتها عبر السبل الناجعة لحماية الحياة المتبقية ما بعد الهجرة، ولا يتحقق ذلك الانتقال الطبيعي بمعنى تجاوز سنوات الاضـطهاد والتهميش، إذ ينظر حليم يوسف للروح العليلة للشخصية المنتهكة الباحثة عن تصـور معـين للأمان والاسـتقرار، رحلة البحـث عن الذات محفوفـة بالمغامرات الهادفة وهي بطبيعتها استقصـائية تتسم بالتجرد والمحاكاة لتفاصيل الحياة وواقعها المضطرب والذي يميل للمنحى العبثي، فالعدمية المتربصة في الشخوص يجعل الرواية بهذا الصـدد مسـرحاً لا معقولاً، حيث يميل حليم يوسـف لمزج الفن المتخيل مع الواقع كمـا هو، ولا يغفـل عن تحقيق المتعة الفنية لكل مظهر من مظاهر الحياة المجسـدة في تلافيـف العمل الروائي، حيث انتصـار الفن أمام الألم يمثل قيمـة معرفية ينهض بها المبدع، ويضـفي عليها طاقات تصـويرية تبعث على المتعة والدهشـة إلى جانب سبرها لماهية تصـورات وسـلوكيات الإنسـان عبر مراحل انتقالها وعبورها من حالة لأخرى، في ذلك نجد أن بروز الإنسـان المعرفي يكاد يكون ضئيلاً حينما تتكمش المشاهد ضمن إطـار حلقـة سـوداوية لا تمتلك أيّة حلولٍ ينتصـر لهـا الكاتب في الحكم على المشـهد الروائي بالانتظار لحلٍّ قد يلوح في الأفق.

الطبيعة الإنسانية وبحثها يعتبر عنصراً رئيساً للرواية الاجتماعية بحسب 99 خرزة مبعثرة، فهي تتناول الجانب السيكولوجي لحياة الأفراد ما بين الوطن وخارجه، وكيف أن الطبيعة السلوكية تتسم بالاضطراب والتحول وتعيش في دائرة الاغتراب المغلقة والتي تتسع لتوهن الذات أكثر فأكثر، كما أنَّ فلسفة الحب في الرواية يجري الحديث عنها في لغة السرد وعلاقتها بالآخرين، كيفية التوغل في النفوس والتماهي مع الإنسان في قضيته، حيث لا ينفصل الإنسان أو لايمكن تصنيفه، وإنما المبدع ينطلق من الإنسان ويتماهى مع الشخوص بمنتهى الحنكة، كاشفاً عن النوازع البشرية والغايات وراء أفعال الإنسان، وما يود إيصاله للآخرين من خلال خطابه أو لغته وملامحه النفسية والجسدية، بمعنى آخر يمكن فهم الذات البشرية من خلال مدى تبحرها في الأشياء وفهمها لحاجاتها انطلاقاً من تصادمها مع المواقف أو الأشياء، حيث المجتمع مزيج من أفكار وعوائد وأساطير ومعتقدات، وعليه فإن المنطق المتجرد قد يلعب دوراً ضئيلاً في حياة المجتمع الشرق أوسطي، حيث يكشف الكاتب عن غرابة السيكولوجية الأنثوية وردات فعلها المواربة فيما يتعلق بتجربة الحب، هذا التخبط الذي تتعايشه والذي يتحتم على الحبيب اكتشاف ماهيته إثر العلاقة الحميمة، ففي هذا المشهد يتبين لنا التعايش مع أكثر من رغبة حميمة لدى بريفان: "في ذلك المساءِ الأخرس من عمري المندهش، دنت بيريفان منّي ونظرت إلى عينيّ باشتهاءٍ عظيم:

- أعشقُ هذه الشامة التي على وجهك...

وبحرارةِ أمٍّ أطبقت شفتيها على شامةِ خدّي الأيسر وقبّلتها، ومنذ ذلك اليومُ بتُّ أعشقُ الشامة التي كانت تعذّبني آنَ حلاقة ذقني في كلِّ مرَّة، مضت دقائق على تلك القبلة، حين قالت لي بيريفان بوجهٍ مصفرٍّ وذابل أنّها لن تستطيع أن تعدني بالحبّ وأنّها لا تريد أن يتعلّق أحدٌ بها."

نلحـظ حرص الكاتب وتأكيـده على تبعية المرأة للخوف النابـع من طغيان الهيمنة الذكوريـة على المجتمع، مما يجعلها بمعزل عن الخوض في أي تجربة حميمة ومتوازنة مـع الرجل، فعبر هذا الشـاهد الـذي أوردناه هنـا، نجد مقدار الخـوف والتردد من الولوج للعلاقة واعتبارها أساسـاً لحياة صـافية وأكيدة، ومن هنا يأخذ الكاتب مساره التراجيـدي في هـذه الرواية، من بروز اليتم في حياة آزاد إلى يتمه في حضـرة الحب، فما بين حرمان وآخر ينتقل الإنسان الشرق أوسطي بسحنته الكردية من وطن محاصر بالأسـلاك لحيـاة خارجه مكتظ بالاغـتراب والاكتئاب، تضـيع حبات العقـد وتتناثر كتناثر ذلك العقد الاجتماعي بين المجتمع الكردي وأحزابه الغارقة بالولاءات الضـيقة الخارجة عن السـرب القومي المنشـود، كما أنَّ عنـوان الرواية يرمزُ ترميـزاً عاطفيًّاً يشـير إلى تفسـخ العلاقة ما بين الرجل والمرأة، ورمزاً سياسياً يشير إلى تفكك وتجزأ المجتمع الشرق أوسطي ككل، والكردي على وجه الخصوص، حيث يحاول حليم يوسف الإحاطة بشعوب الشرق الأوسط عبر ومضات من حديث الوافدين الجدد عن تجاربهم المحبطة في بلادهم، ففي ظل شرق يرى في المرأة وسيلة للنسل والمتعة الجنسية، وتقديم الكدح دون إيلاء أي أهمية لها سـوى تعليب كينونتها كشـعار يجعلها تعمل أكثر لصالح الذكر، تتعـدم رجولة الذكر بانعدام أنوثة الأنثى، وتصـبح العلاقات الإنسـانية تحت ضـغط المنظومة المنفعية مضطربة ومتلاشـية، حيث إهمال بريفان لنفسها وانسياقها بخطيئتهـا إزاء الحب لأحضـان ياسـينو، ليس إلَّا نشـداناً لجيل ضـائع عمـاده امرأة مستكينة ورجل لا مسؤول، حينما نتحدث عن المرأة بوصفها كائناً حساساً ومتأثراً بكل أنشـطة الرجل ونزاعه على الملكية، وأيضـاً تطويعه للمرأة عبر إنشـاءه للنظام المادي واسـتخدامه لها على الدوام، مما تتعدم المسـاواة المزعومة ويحول دون تحقيق العائلة السعيدة التي تمثل مطلباً قديماً للمعرفيين، كون إيجاد ذلك يعني الحضارة المنسجمة مع النهضة العمرانية والمادية للأمم الباحثة عن مستقبلها بعيداً عن ساحات الدمّ.

بمعرض خوضنا لرواية حليم يوسف 99 خرزة مبعثرة، أمكن فهم طبيعة النظام السياسي وكذلك الاجتماعي، كونهما مترابطان ولا غنى لأحدهما عن الآخر، لهذا لن نجد إلا ذلك التشابه في الأدوات بين مريدية تسعى السلطة تثبيتها في جماهيرها وبين مريدية تلك الأحزاب المعارضة التي أنشأت جهازاً سلطوياً مشبعاً بالتقاليد الذكورية، وطوعت الشباب لتحقيق مبتغاها الإيديولوجي، دون تحقيق أي أثر يذكر في تبني المعرفة والتنوير وتطوير ذائقة وذهنية الجماهير، إنما نجد ابتعاد الجماهير عن القراءة دليلاً على استغلال التنظيمات لها، عبر زجها في أتون أغراضها الدعائية، نجد أيضاً ذلك الاستغلال التكنولوجي للإنسان ومحاولة تعليبه وترسيخ تبعيته للآلة، فالحرية التي يبحث عنها الإنسان تتشابه إلى حد ما مع سعيه المخنوق للبحث عن معنى للأوهام التي يرتأي أن يجد لها مواضع أثر في واقعه، وكأن ذلك النشدان يعتبر إبرازاً لخوف من المجهول، ذلك المتعلق بشق الموت أو المرض، وهذه الحرية تعد إشكالاً، وعلى ضوءه تنبني آفاق المعرفة والإبداع في مجالات الفكر والعلوم الإنسانية، وهكذا تلخص الرواية هذه الرؤية في سياق مكاشفتها للعلل والمعضلات التي تؤرق المرء في ميدان الحب والسفر ونشدان الفضيلة في عالم مليء بالاضطرابات والعقد الناجمة عن معاناة المجتمعات من نمط وتركيبة النظام السلطوي ومركزيته المتعلقة بالحياة الاجتماعية، خارج الجنس، خارج كون المرأة خلقت كآلة تعمل لصالح الرجل، وعلى حساب نفسها.

يعمد حليم يوسف إلى التحدث عن خيبة أمل رسام يتيم، قضى نحبه في النهاية غدراً وبسكين شاب مراهق، أراد أن يصف مظلومية الكرد في أنهم يلاقون نهايتهم فرادى، إن في المغترب أو داخل الوطن، محكوم على الكردي أن يتعايش مع الخيبات منذ نشأته وأينما حل، هكذا وبصورة درامية تبعث على الحزن واليأس، أراد الكاتب لشخوصه أن يتحدثوا بشفافية عن هول المأساة، وهذا شيء ملازم للرواية، لأن الحياة

في جوهرها التحام الذات بصناعة الألم، إذ أن العتمة شريكة النور في حياة الإنسان، والفن وخصوصاً الرواية، يتغذى بتمامه على الألم كما الشعر والمسرح والفنون الأخرى، إذ يجعل ذلك من اللعبة الفنية مشوقة وممتعة، فانتصار الذات على الألم والعكس يمثل غاية الكتابة، حينما تتعدى كونها هالات لغوية، وتغوص ملياً في مشكلات الإنسان وما يعتمل النفس البشرية من مشاعر وتناقضات وأهواء جارفة، من سيطرة الإرادة المعرفية على الذات، الإيمان بالحياة ورفع مستوى أهمية صناعة الفعل، هكذا يمكن فهم العالم من بوابة الفن والعلوم الإنسانية، بوصفه ثورة تنويرية قادرة على لجم منظومة السلطة المركزية، إنها إرادة جمعية يجتهد في إشعالها مجموعة أفراد يتحلقون حول طاولة المعرفة السامية، نحو هدف جعل الحياة مساحة آمنة وغنية ومتنوعة، عبر التخلص من أغلال الفكر الشمولي السائر نحو عبادة الفرد على غرار تقاليد الأديان التي حكمت الشعوب على مرّ السنين.

إن صناعة الحرية ترتبط بشكل فعلي بثورة الرجل والمرأة على حد سواء، وهكذا يمكن فهم رؤية الحب وجود والوجود معرفة، بوصفه كامناً في كل النتاجات الحية للإنسان من فكر ونقد ومسرح ورواية وشعر، أثّر على الإنسانية ونقل تجارب الجماهير على مر التاريخ، وعلى نحو صادم أراد الكاتب من نهاية الحب بين بريفان وآزاد، أن يشير إلى طبيعة البيئة التي فرضت على الأنثى المسير نحو عبادة عضو الرجل، وهو إشارة إلى هيمنة الذكورة على العقل الأنثوي.

إن تجسيد معاناة الكرد عبر الرواية كما هو الحال في غيرها من الفنون والأنماط الإنسانية في التعبير، يعتبر واجباً معرفياً في ترسيخ روح الكينونة المهددة بالتلاشي لدى الإنسان الكردي مع مرور الزمن، حيث يصر الأعداء بمختلف السبل على إضعاف روح الكينونة لدى الفرد وإحباطه وتهويمه، وجعله يتخبط فكرياً وروحياً، حيث نعلم مدى الاختراق والانتهاك التي تعرضت له القوى الكردية، حين عمدت السلطات

الفاشـية إلى اختراقه اسـتخباراتياً، وجعله يترنح في مراحل وفترات نضـالاته، إلا أن ذلك لم يطرأ على الأدب، ونعني هنا الرواية التي تعنى بالإنسـان، حيث يقف المبدع أو المبدعة في عالم الفكر والأدب على نحو ملاصـق لمعاناة المجتمع، ليبين مواضع الانتماء والشعور به على نحو مغاير لطرق الساسة وكفاحهم، وإن وصلت يد الاختراق للمنظومة الكردية سياسياً، إلا أنها لن تستطيع الوصول للفن الذي يصف المعاناة ويدخل القلوب، والذي نجح في توحيد الجماهير الكردية بخلاف محاولات القوى السياسية في إحداث ذلـك، ذلك لأن المعرفيين على اختلاف مسـارات إبداعهم ككتـاب ومفكرين وفنانين، يمتلكـون غنى في الأسـاليب للوصـول للمـدركات، حيث في ظل هذا التمزق والصـراع مع الأعداء نعيش صـراعاً أكبر ومضـاعف وهو صـراع قوى المعرفة ضد قوى الجهالة المتمثلة بالسـلطة القامعة، إن اتحاد المادي بالروحي هو ما تجسده فلسفة الحب وجود والوجـود معرفة، ذلك أنها تولي أهمية لوحدة المدركات والأحاسـيس الإنسـانية، فهي منبـع ثر للإبداع والإبتكار، فهمهما طالت يد الاحتكار الإيديولوجي منجزات المعرفيين ومحاولاتهم في تعزيز الإرادات ونفخ روح الحياة فيها، تبقى تلك المحاولات مهما كانت قاصرة هي التمهيد لصناعة الإنجاز الأكبر.

◆ **علاقة المكان بمدلولات الفكر:**

لنتأمل ما يلي: "كانت غرفةً صغيرة، ركنت الحاسوب الشخصي وأدوات العمل في زاوية، على الطاولة بعضُ الكتب والمجلات، الغرفةُ الثانية التي دخلناها كانت مخصَّصةً للنوم، حاولتُ جدَّاً أن أتراجع، لكنّها كانت تودّ أن أرى المنزل بكامله، أسَرني اللونُ الأحمرُ الغامق للستائر والشراشف في غرفة النوم، مرآةٌ كبيرة ركنت على خشبها أدوات التجميل، سريرٌ واسع، اللحافُ وحصيرةُ النوم كانتا مغطاة بشرشف أحمرَ، النافذةُ النصف مفتوحة أضفت رومانسيَّةً على الغرفة، بقيت عيناي معلَّقتان بسريرها وبدأ أفكاري الغريبة تُطحَن في رأسي، تُرى كم رجلاً مرَّ على هذا السرير؟".

نجد توأمية اللغة الفنية والأفكار التي تتلاقح في السرد الذي يعتمد الوصف والتجسيد أحياناً، فمع الكثير من الحنين للالتصاق بساندرا جسداً ونفساً، هناك عقدة التملك الشرقية التي لا تنفك عن آزاد وتلقي بقتامتها على كاهله، إذ لم يعتد على امرأة تعيش بمفردها ولها علاقات ساخنة مع المجتمع، رجل لا يروق له أن تكون المرأة مشاعاً للعديد من الرجال، ويحتاج أن يكون هو الأوحد بالنسبة للمرأة، وهكذا تطفو الثقافة الاجتماعية على السطح وتطل برأسها كما الحرباء، ولن يغدو الحب كما هو متخيل على الواقع بما يحمل من قساوة ووضوح، فالتصادم الثقافي وصراع المفاهيم يتجدد عبر الاقتراب والتواصل المركز، البطل لم ينفك بتاتاً عن جغرافيته وثقافته ومعاناته، وله وفاء كبير متعلق بالجذور، ويؤمن بإمكانية نشدان عالم حر وآمن تنسجم فيه المتضادات ولا تتنافر، وعلاقته بالآخرين تتجه لتحقيق ذلك، وقد وظّف حليم يوسف البطل لأغراض فكرية تحمل في متنها حكاية وطن مجزأ، كحبات الخرزات المبعثرة هنا وهناك، في عالم مليء بالتشنجات والصراعات التي لا يخفف وطأتها شيء، إنه خوف متعدد الوجوه، يتمثل بخوف ساندرا من تسليم ذاتها لرجل

كـون الرجل ليـس لائقاً بالحب حسـب تجاربها الخائبـة، كمـا أن آزاد محاط بطبقة سـميكة مـن الخوف والحرمان منـذ طفولته، يبحث عـن حلول لمشـكلاته وبدائل عن خيباته، إلا أن اصطدامه بأخبار تتصل مع الموت حرك فيه شجونه إلى جانب الطبخة الكوردية التي تحلق حولها مع سـاندرا، كثيراً ما يريد حليم يوسف افتعال ذلك الربط المثالي بين المكان على الرغم من تباين الواقع الزماني والمكاني، ما بين أوروبا والشرق الأوسط، إلا أن عملية الارتباط في صميمها فكرة معرفية لا تلقي بالاً للحدود والأقاليم القومية، وإنما تطمح لتحقيق ذلك الانسـجام الحضـاري بين الثقافات، وتحرص على ذلك الاندماج المعرفي القائم على مد الجسور وإيجاد الروابط، وما تسليط الضوء على أهمية الترجمة إلا جزءاً من التقصـي لظواهر المجتمع في مواجهته لذهنية الإقصـاء والعنصـرية التي تحتاج لمناهضـة جـادة تتمثل بإيجاد الأرضـية للتفاهـم بين الناس علـى اختلاف مشـاربها وانتماءاتها، والذي يلزم مصـارحة الجماهير بحقيقة النظم السياسـية ومدى فعالية عملها في تحقيق رفاهية المجتمعات وإنشـاء برامج ومشـاريع تسـهم في محاربـة الإرهاب والفكـر القومي العنصـري ليكون ذلك الاندماج السـوي والطبيعي أساساً لنشدان مجتمع معرفي متعدد الثقافات والعقائد ومتجانس قادر على التعايش تحت مظلَّة الاختلاف والتعدُّد.

◆ **الخلاصة:**

يجـاري الكاتب زمن المتغـيرات التي تفرض على الإنسـان نمـط الاندماج، بحيث تتلاقـى الثقافـات والعوالم فيمـا بينها، ويغـدو الحديث عن هذا الاتحـاد من طبيعة الواقـع، الواقـع الجديد الذي نشـأ إثـر تلاقح الشـرائح والطبقات فيمـا بينها، حيث يتحول الوافدون بعد ردح من الزمن إلى سـكان أصـليين، ويغدو الحديث عن التفاخر العرقي ضـرباً من ضـروب التزمت أو التعنت الإيديولوجي، فنشوء الحضارة جاء إثر هذا التلاقي بين الأقوام المختلفة بجانب الصراعات التي لم يكن لها أن تنتهي، وكانت في كثـير مـن الأحايين تنشـأ لتقتات على كـدح المعرفيين ومنجزاتهـم في تحقيق ذلك الاندماج الطبيعي بين الناس على اختلاف انتماءاتها ومشاربها، حيث يسترجع البطل كل ما يتصـل بطفولته ومعاناته في كل لحظة، حينما يبصـر الحنين في بطن سـاندرا ليعيد في نفسـه سـيرة اليتم، وعند تحسسـه الطفل، مروراً بتجربة الغيرة المؤلمة بينه وسـاندرا. إذن لا يوفـر الكاتب حدثاً أو مناسـبة في الروايـة إلا وينتهزها للحديث عن المعاناة الفردية والجمعيَّة للكرد في المنفى.

يمكن القول باقتضـاب أن الرواية بمعرض دخولها لمعالجة الجرح الشـرق أوسطي عامة، والكردي خاصـة، تتحدث عن عالم ملـيء بالتنازع، تتقاذفه أمواج الأحزان من كل صوب وحدب، ولعل حليم يوسف قد ترك في نهاية روايته بضع أسطر لقارئ سيكمل ما بداخلـه على طريقته، فحينما يعبر الكاتب عن لوحاتـه التخييلية المرتبطة بإدراك وحـس مفعـم جياش، فإنـه في الآن ذاته يفسـح المجال للآخر المواكـب أو المنقب بقول كلمتـه الفصـل أمام رواية تتسـع لكل التأويـلات التي تمد جسـورها لتتلاقى مع كافة الفنون والعلوم الإنسانيَّة.

مسارات رؤيوية لفهم (الوحش الذي بداخلي)

تمهيد:

عُـرف الوحش بقبح منظره، وآثـار ذلك القبح يغطي العالم ويرسـخ حضـوره في مناحي الحياة برمّتها، في حقلي السـلطة والمجتمع، في الغابات الموحشـة آنَ الليل، وفي صـميم فكر الإنسـان على تباين فهمـه ووعيه ومواقع عمله، لذا بـات اليوم وجه رواية عميقة الكنه، تفتح أذرعها لسـبر فطن، ينقذها من الغموض، ليأخذها للتجلي، حيث يتربع النقد كسيد في ذروة المشهد الفني، ليبعث على الإبداع الموضوع نكهة أخرى وبعداً آخر، حيث ينتقل الوحش من هيئته الأسـطورية ليتجسـد في معنى الحياة المضـطربة، والنفوس التي تخاف وتتصـدر مشهد الرهبة والانغماس فيه طول حياتها وتعدد أطوار نموها وانتقالها، ليدل الوحش على كساد الحياة وعبثيتها، وانحسار الجمال في متونها.

إن تلاشـي الأمان والطمأنينة لدى الإنسـان إلى جانب ضمور الأمل والتفاؤل عزز من هالة وجود الوحش في الحياة المعيشة وخنق كل نهوض من الممكن أن يحسِّن الحياة ويبعث فيها الحركة المتقنة، إذ لطالما امتلأت قصـص الأدب العالمي بأشـكال الوحش، حيث للتوحش مكانٌ واسعٌ وعميق داخل المرء، فاعتياد الإنسان على العنف المبرح يحيي الوحش الذي بداخله، ويجعل منه شرساً على الدوام، الوحش والظلام الذي يستشعره المرء ويخاف منه، ويتجلى في إذكاء العنف وممارسـته على الضـعفاء لإنتاج الوحوش بشكلٍ مستمرّ.

ما نعمد إليه في مشوار هذا البحث، هو تجريب كافة المسارات وإحداث رؤى متعددة متشـابكة تجعلنا نفهم حقيقة تطويع الوحش في الرواية للتعبير عن أثر الاسـتبداد في صـناعة الفـرد، الوحش بـات في عناوين كثيرة ضـمن حياتنا، ويرتدي قسـوة الحياة

وصـعوبات فهم المرء للآخر، ففي المشهد السياسـي تغيرت العلائق الإنسانية لتصبح مصـنفة بين الولاءات، ولتكون القيمة الطبيعية للتواصـل الطبيعي ضئيلة أمام التودد السـلطوي والتفـاف الأتباع حول بعضـهم البعض، إن هـذا التغير والتقلـب في المزاج العامّ، عزز من الاسـتعداد الوحشـي للإنسـان المندفع من تلقاء نفسه لعبادة الغضب، وباتت العلاقات النفعية سائدة محل العلاقات الطبيعية، وتعددت وجوه الإنسان المادية وبات أصـعب مما كان عليه في زمن بساطة حياته البدائية، بات ينقاد لواقع قائم على السـطوة وتمجيدها لتكون بمثابة المرآة أو المعيار لفهم الجودة والسعي إليها، فالوحش هنا يسـيطر ويستقوي على الإرادات، ويكسـيها بمظاهر التفاخر والقوة، ليكون البهاء والجمـال والأناقـة مظهـراً ناعماً من وحشـية الحياة العصـرية التي تقنَّـع بها غالب البشـر بذريعة عصرنة الحياة والقيم، ما يشكل بروزاً باتجاه الاستشراس في المنافسة والصراع وكذلك الاحتكار، حيث جمع المعتقلين في السجن واستقبالهم عبر ابتداع نوع من التعذيب يسمى حفلة الاستقبال، يعتبر أحد إشارات توسع معامل صناعة الوحوش، أي تحويـل الإنسـان إلى مخلوق غامض الأفعال، غامض التصـرفات، يقتلع الأخضـر واليابس، يتشـبه بالدمار من خلال إذاقته مـر العذاب عبر بوابة القهر والانتقام، فما ظاهرة المعتقل السياسـي بطبيعتها إلا تعبيراً عن صـناعة الوحش ليتضخم الرعب في حيـاة الأفراد، الرعـب الذي يقودهم حتمـاً إلى حتفهم، وينقلهم لعالم ضـيق ممتلئ بالنقمـة، تعبئتهم بـروح التخبط والمرض، حقنهم عبر الدين بوصـفات من الإيمان الأعمـى المنغمـس في أوحـال العنـف وفهم الإيمـان على نحو يشـبه تعاطـي المدمنين للمخدرات.

◆ الوحش بوصفه تمثالاً راسخاً للخوف:

يعبر الروائي عن التشويق في مستهل دخوله للرواية كاشفاً النقاب عن مدى نجاعة العنصر الفني وإثارة التشويق، كباعث على الجذب وفهم الهالات المحيطة لرموزه التي بلا شك تتصدر كافة المرامي المتجسدة على ساحة السرد من بدايته لنهايته، وكون ذلك يعد مثار تساؤل وفهم، ندرك بتجلي حاجة العقل للفرار من قيود الرتابة، بغية التوغل بعمق إلأى المعنى الماورائي، لإبراز المشاهد والتفنن في رسم طرائق التفكير وصناعة الحدث، تبعاً للفكرة الباعثة على الانشداه والتحول عن طور التلقي العادي لقبول الفكرة ومناقشتها من ثم خلق سجال حولها، هذا ما يقوم به النقد حينما يعمد إلى الكشف والإيضاح لكل ما هو ملتبس وغامض، فهم الداخل وما يعتريه من قلق دائم من الموت أو التلاشي، وانحسار القوة بغتة بعد عهودِ العزة، لهذا لا نجد في المشهد الرؤيوي إلا جانباً مركزياً لفهم إرهاصات الرواية وعمقها، وكذلك رموزها، منها ما يخص جانب التأويل، ومنها ما يتناول أفكاراً محضة تتعلق بتلك التقاطعات ما بين الرواية والفكر، لكون إشادة الجسور بين الفكر والفن يعدُّ مطلباً قديماً /حديثاً للنقد يجدر الوقوف عنده ملياً، حيث نجد حليم يوسف يتحدث في البداية عن ولادة سالار وعلى نحو مفاجئ له من الهالة الفنية ما يبعث على الذهول، حيث يبدأ في عرض ولادة طفل يتحول إلى طائر أسود حين يستطيل ظل ذلك التمثال ويتمدد، وإذ بالطفل يحلق في الجو طائراً، ومذ ذلك كانت علامات النبوغ ترتسم في محياه وتتألق بحجم تلك الأسئلة التي راح يخرجها من داخله الصافي، مما جعل الأم تحملق في ولدها وتنتشي قلقاً، فحقيقة التمثال ومشهد ولادة عسيرة رافقت صيحة الآذان، جعل المشهد مكتظّاً بصراع عميق الكنه بين رموز السلطة والدين، وحالات الولادة العسيرة التي تتوجت بولادة سالار تلك، هل كان ذلك مبعث تساؤل مختلف مثاره حقيقة ذلك الاتحاد التاريخي بين رجل الدين والسلطة؟ هذا الاتحاد أفرز العديد من العلل وحشية الطابع،

عزز من الخوف بكونه مدرسة وعلم صناعة الإنسان في شقيه المتدين وشديد الخوف من الحاكم، عبّد الطرق نحو بروز أنظمة قوية وعنيدة تتمتع بخبرات عديدة في ضبط فوران الجماهير، ووطد دعائم ثقافة شمولية دينية تستقي مزاياها من الميثولوجيا والأوهام التي استنبطت منهاج الحياة التقويمي المفروض على التلاميذ منذ طفولتهم، وقاد النخب الشابة للتفكير بكل شيء عبثي عدا الخوض في مواضيع التغيير.

ومما لا شك فيه فإن بناء الأنموذج المعرفي لدى الفرد في ظل هذا الواقع، يحتاج أيَّما احتياج لبروز مراكز تنويرية كبيرة تتواصل مع الجماهير خلال الفن والأدب والفكر، وذلك بحاجة لمؤسسات قوية تعمق حواراتها مع السلطة السياسية، بل وتتشارك في صناعة القرار والذوق العام، ودون ذلك لن تتحقق الثورة المعرفية التي تتميز بكونها لا عنفية وسلمية وتتحلق حول الصالح العام وتنبذ بطبيعتها الفساد، إن السلطة السياسية تعتبر حالة راسخة بطبيعتها، أما العقلية السلطوية فيمكن تذليلها فكرياً عبر إتاحة الفرص لكل المعرفيين والمعرفيات بالانخراط في قاعدتها من أعلى هرمها لأسفلها، ذلك يحول دون بروز التوحش، وهو ما نسميه بالبديل الناجع، حيث لا تكسر العقلية الشمولية إلا بالتدرج وعبر التركيز على تنمية العقل الإبداعي للفرد، لكي يتمرّس بأصول وفنون الإدارة منذ طفولته.

◆ متاهة السلطة والمجتمع المغترب:

بـات التفكـير خـارج التمجيـد والإذعان للسـلطة أمـراً في غاية الصـعوبة، حيث يظل العقل الإبداعي للمعرفية والمعرفي منشـغلاً في طرق التخلص من أورام السـلطة ورواسـبها على الذهن، لا انفكاك جلي عن أزمة التفكير الحادة التي يعيشـها الإنسان المنعزل في مداراة تسـاؤلاته والحد من تسـربها للكوامن، لتكون دافعاً خصـباً للتمرد والانتفاضة فيما بعد، حيث التشاؤم والكآبة يمثلان الوجه العام للحياة، مما يفرز عن خضمها ضياع الإنسان الشرق أوسطي في بوتقة التجهيل والاستسلام فيما بعد لنمطية فكريـة مبتذلـة تنمّ عن كسـل روحي وذهني لا يتـم تخطيه إلا بصـعوبة، فالربط بين الأديان والاستبداد منطقي جداً، ويعبر عن توأمية فيما بينهما أراد حليم يوسف بيانها هنـا: "حدقت الأم في عيني المرتبكتين غاضـبة وهي تلقي نظـرة باتجاه أبي لكي يلفت نظره إلى الأسـئلة المحيرة والخطيرة التي تشـغل بال ابنه غريب الأطوار: - „ ألم تنتهِ بعد من أسـئلتك العجيبة سـالارو؟" رددت عليها بحدة أفصـحت عن جديتي في طرح مثل هذه الأسـئلة، على عكس ما كانت تتوقف، فيما إذا كان الرئيس أيضاً يذهب مثلنا جميعاً إلى المرحاض، وهل في هذا السـؤال ما يريب؟ يمكنك الإجابة بنعم أو بلا، بدل الزعيق والصـراخ، وعندما احتدت المناقشـة بيننا، نفد صبر أبي وتدخل بيننا محاولاً إنهاء الأزمة التي تستفحل بيننا كلما طرحتأسئلةً تتعلق بالله أو الرئيس".

إن اسـتنطاق النصـوص الأدبيـة فكريـاً يعد بمثابة مسـار رؤيوي أكـثر فعالية في الحديث عن ذلك الرهاب السلطوي المفروض على المجتمع والأفراد منذ نشأتهم، كما أنَّ الولوج للأطوار الأولى يساعد في فهم أساليب الإخضاع وبرمجة العقول على الانفعال والاسـتياء لأي فكرة تسـعى للذهن بعفوية، وعلاقة الاسـتبداد والدين علاقة توأمية، حيـث هنالـك تقاطعات عديدة وحـوادث يرويها التاريـخ العابر للمفاهيـم والقارات،

يخبرنا عن أطوار التمزق العائلي تبعاً لمفرزات السلطة الأبوية، فميراث الذكورية هائل ولا يمكن التنصل منه بسهولة، ناهيك عن أن المرأة الآن في الشرق الأوسط منقسمة لقسمين، فئة تصون ميراث الذكورة وتتعصب له أكثر من الرجل ذاته، ومثاله المتدينات المتصلات بإرث التعاليم السماوية، ناهيك عن أديان أخرى اعتبرت الرجل المخلوق الأكثر تجليًّا وكمالاً، الفئة الأخرى والتي يمكن تسميتها بالفيمينستية، وهي قوة ناشئة تعتبر أقلية في صناعة الرأي الأنثوي المعاصر، والذي بإمكانه أن يهيأ المناخ لاتحاد وشراكة نوعية مع الرجل إزاء ذلك الاضطراب العالمي، لذا لا نجد سوى غبناً يمارس على المرأة، وبالتالي يؤثر سلباً على الرجل ويضعه بمواجهة الضغط الاحتكاري ويقوده لحروب عسكرية وأزمات اقتصادية شتى.

◆ **محورية الذات أمام متغيرات المحيط:**

إن النقد لدى حليم يوسف كائن حي ومحوري في النظر للنظام الاستبدادي البعثي كشر أعمى، لهذا نجده يعمد لتقديم دلالات على كفاح الجماهير ومراحل نمو انتفاضتها ووقوفها بوجه هذا التشويه الحاصل، الذات المتأملة هي الواقفة بمظهر المنقب والمدرك لطبيعة الحياة وطرائق تفكير الناس وأمزجتها، كذلك نواياها، حيث تقدم الرواية تساؤلات ذاتية وتظهر البطل على أنه المحور، والغاية في ذلك تسليط الضوء من بوابة الذات المتبصرة على مشكلات العالم ومعضلات التأقلم لإيجاد شخصية قادرة على فهم الوجود، كونه مساحة تحتاج لبراعة نشدان الحياة وممارستها بصورة جيدة ومتشبثة بقيم الجمال والأصالة، في هذا ينسج الكاتب العالم الموضوعي بفنية ذاتية تأملية، حيث يعتبر الحراك النقدي بمثابة ردة فعل على طبيعة النظم الشمولية بشقيها الأممي والقومي، فرواية الوحش الذي بداخلي تسير وفق مسار نقدي محض، يعمد لكشف العلل والعيوب التي أربكت حيوية المجتمع وزعزعت أمن العائلة وجعلتها في حالة فزع، ومحاولات خنق النقد عبر تربية ذهنية السلطة واحتقار الإنسان، وما سبق منهج فساد دأب نظام البعث السوري على تربيته طوال عقود في الجماهير، ورعت الأفراد من خلال أدلجة المناهج، ما من جعل النمطية مثابة الخبز الرئيسي للحياة، حيث ميزة المواجهة ومصارحة المرء بالحقائق الكامنة في الداخل تعد ثيمة أساسية يستند إليها نسيج الرواية النقدية، كما أنَّ استعباد الأفراد باسم المثل والثورة وتغيير المجتمع أسهم في خلق الاضطراب بصورة بائسة، وباتت المناهضة المضادة أشبه بدوران في المكان ذاته، والسبب في ذلك هو افتقاد الجماهير للحركة الواعية والمنظمة وتحولها عن وجهتها في نقد مرؤوسيها إلى تمجيدهم وجعل قيمتهم بقيمة الوطن، هذا التحوير للانتماء شوه الحياة الفكرية أيضاً، ورسخت الاغتراب

في الأدب، فيما لو نظرنا للرواية بكونها الوعاء النموذجي للمتناقضات الاجتماعية، ثمة فريق استسلم لإملاءات السلطة وبات بوقها الرصين، ينضوي تحت تلك السلطة جمهور متملق من الأدباء والفنانين، حيث أسسوا لمنظومة فكر وأدب تلك السلطة ولم يحيدوا عنها قيد أنملة، مقابل تلك الفئة التي لم تقبل أو تخضع لضغط ومغريات تلك السلطة، فنجد أنهم قدموا شيئاً مختلفاً عما قدمه الفريق الآخر على الضفة المقابلة، حيث لا يمكن نسيان ذلك الفرق في الاتجاهات التي منها ما هو مؤيد وداعم لبقاء واستقرار نظام سلطوي معين من اتجاه آخر يناهضها، إن لذلك دوراً في تسوية وتنمية الأفكار والادعاءات، وتعمل على تغذية خيال الجماهير، من هذا المنطلق نجد التباين بين نظرة الموالي للسلطة وللدين والمعارض لهما، فنشهد ربما منهجين أو أكثر، ذلك ما ينطبق على مفهوم الأمة والوعي القومي، وهذا التقسيم وضعته السلطات لتمييز مصالحها ومنافعها عن الفئة التي تتقاطع معها، وهكذا

فيما لا شك فيه، فإن الآداب والفنون تتأثر بعملية التصادم السلطوي، وهنا يمكن القول أن المعرفيين يقفون بعيداً عن إملاءات السلطات وضغوطها، ولا يبتعدون تماماً عن المشهد، إلا على نحو لا يخدش نزوعهم المجرد والمحايد باتجاه تنمية الأفكار الجديدة سواء اجتمعت مع السلطة أم ناهضتها واختلفت معها، تكادُ تكون الرواية دائرةً حول ما تحدَّثنا عنه سابقاً بالمجمل.

◆ **لغز تمثال الرئيس:**

في الحقيقة إن رمزية التمثال مبعث تساؤل بلا ريب، ففي رواية خوف بلا أسنان نجد التمثال في أوج شموخه وبعثه للرهبة في النفوس، إلا أنه هنا يعتبر مناهضاً للفنون والموسيقا والاجتماعات العفوية بين الأصدقاء، ومما لا شكَّ فيه بأنَّ الفنون في ظاهرها تشكل عماد بقاء الإنسان في صفاء وتأمل، وتجسّد في باطنها تحدٍ لوهم الخوف الذي تفرضه السلطة الشمولية في العقل الباطن للجماهير، فالحقائق المعرفية وليدة الفرضيات الخيالية، وإعمالهما في مواجهة الرعب والعنف يوطدان الثقة بالكيان لدى الغالب المسحوق، لهذا أمكن لنا تعريف النهضة المعرفية بكونها سلاح الفكر الحقيقي، تنظيم جهود المعرفيات والمعرفيين يعود ريعه للجماهير بكافة شرائحه واتجاهاته، لكن لا بد من إيلاء المبدعات والمبدعين مكانة خاصة تتمايز عن سواهم، كونهم يشكلون بديلاً طبيعياً وحتمياً لكل الوصوليين ممن استخدموا الفساد والبطش كوسيلة بقاء، فكسر رهبة التمثال عملية لابد من القيام بها فرادى وجماعات، فاتحاد المعرفيات والمعرفيين الكبير يمكّن الناس من الثقة بأنفسهم وقدرتهم على الانتظام وتكريس جهودهم المدروسة والهادفة إلى تغيير الحياة وتأهيل الذين لا يتوانون عن تشويه منجزات الإنسان العاقل، وحيث أن اللغة الموضوعية تتجه دوماً لمخاطبة الذكور دون النساء، وجب التأكيد أبداً من أن الإتحاد المعرفي لا يتشكل أو يتكلل بالنجاح دون وحدة النبوغ الفكري الذي ترفع بنيانه المرأة إلى جانب الرجل، دون التفرد بالخطاب الذكوري المتجسد في أساليب اللغة وأدواتها الاشتقاقية التي تتوجه للرجل بكونه المهيمن العضلي، فالأهم في هذا الصدد أن ننظر بأن تثبيت منجزات الإنسان العاقل في كل ميدان سيسبقه أو يليه محاولات التأهيل الفكرية للفئات العنيفة، أو تلك التي ارتكبت أفعالاً إجرامية أو المغرر بها دينياً أو قومياً، ونعني بهم الجنسين، عالم الرجال والنساء

على حد سواء، حيث أن انحسار تنظيم الدولة الإسلامية كمثال قريب خلّف الآلاف من الأسرى، أخصهن النساء، اللواتي يعتبرن المركز الإشكالي والقادر على نقل إرث التطرف للإطفال وبأمانة، لهذا بات ضرورياً تأهيلهن تربوياً وفكرياً وعبر مراحل، لغاية مرحلة التشافي، فانتقال التمثال من حالة لأخرى ومن سلطة لأخرى، من منهج مستبد إلى آخر متطرف، لا يتوقف ويستمر، وبالمعرفة وحدها تتحقق الغايات الأولى لمسيرة الإنسان الحضاري.

إن الثورة عمادها الحب، وتتم عبر مراحل يتشارك فيها الجنسان صنع مفهومها وفكرها، لذا أراد حليم يوسف أن يبين عبر الحب الذي أخذ ينشأ بين زوجة المعتقل آلان وبين سالار وحبس الأرواح داخل السجن ليس بالأمر الصواب، إذ لابد من الاستمرار بالتحدي، لأنَّ إحياء العاطفة يمثل شكلاً متميزاً من الأمل، ويدفع الإنسان نحو استكمال حياته بصورة أكثر حيوية ونشاط، ولا حل خارج معادلة التشارك، هكذا يمكن نشدان الاتحاد الجنسوي كخيار معرفي بمواجهة قوى السلطة وحربها التجهيلية ضد المجتمع، حيث تمثل السلطة في مظهرها العبودية في أقصى حالاتها، وأن الدفع بالحركة المعرفية قدماً يتم بتشاركية الجنسين في ظل الحب، لمحاربة الفحولة السلطوية المتمركزة في صلب العادات والتقاليد والمؤسسات الأمنية، فأدرك حليم يوسف أن الوحشية السلطوية والوحشية العائلية في جوهرها واحد، وإن أي مواجهة مع السلطة لا تتم على نحو أفراد أو بقرارات أحادية محدودة وإنما تتم من خلال تمكن الإنسان من تجاوز الصدمات والتعايش مع الأمر الواقع، التفكير بمناهضة هذا الظلم وتأسيس بذور تآلف حقيقي ودافئ يدفع الأفراد المستنيرين للانطلاقة الحرة والمدروسة، فالذكورة بحاجة إلى ربطها الرمزي بمفهوم النبل، أكثر من ربطها بمفهوم الفحولة، حيث الذكورة المبتغاة معرفياً تعني اللطف والوداعة في الإقبال على الجنس الآخر، والأنوثة المعرفية تعني الإستجابة الواضحة لإيحاءات الحب ودعواته للتشارك

الحقيقي الذي سيقضي بدوره على بذور نظام السلطة الشمولية ويمحي آثارها السلبية المتجسدة في جملة تقاليد وعادات مرتبطة حكماً بالإسلام السياسي.

إن التشاركية المعرفية حسب "الحب وجود والوجود معرفة" تقف على النقيض من خيار الحركة الفيمينيستية، وإنما تسعى أبداً لبث البذور القوية لإنتاج نهضة تتحقق باتحاد الجنسين، وهذا مادعا إليه حليم يوسف في أكثر من موقف في رواياته، حيث ظل سليمان في سوبارتو يسعى لنشدان علاقة ناجحة مع توأم روحه بلقيس، وظل خيار ماسي مع برفين هو نشدان لعلاقة طبيعية صافية لا تنضب وغايتها تحرير الوطن بتحرير المجتمع، كما ظل خيار آزاد أبداً في مد الجسور ومحو ما يتصل بسوء الفهم في رواية 99 خرزة مبعثرة.

هكذا يمكن فهم الكفاح المعرفي في روايات حليم يوسف على أنها مساع لا تتوقف في خلق التشاركية الجنسوية بين الرجل والمرأة للحد من الهيمنة السلطوية المستمدة في الأصل من هذا التعاقد المشين ما بين رجل الدين والسلطة بمباركة من رب المال، فبوصول النخب المعرفية القوية إلى الحكم، نستطيع القول بوجوب توطيد معالم نظام حر يقضي بصرامة على أنظمة الحكم المذهبية ذات الصبغة القومية، عبر إحياء مجتمع المعرفة القادر على ألا يبرح أجهزة الإدارة بل يلازمها ويصحح نواقصها، حيث تعتبر اللوبيات المجتمعية شكلاً متمماً من إدارات المركز، ولازماً ضرورياً لتطويرها حسب مقتضيات مصالح الجماهير ومنافعها.

يتابع سالار معزوفته العاشقة، رغم تبدلات الأمزجة واختفاء البهجة، وقد استطاع أن يجعل من المقبرة مكاناً مثالياً يليق بالحب، حينما التقى بمريم وأخذ يقبلها بنشوة استيقظت منها مريم على حين غرة، ولم يك تراجعها إلا تفاجئاً بعقار الحب الذي راح يسد ثغرات الانتظار، فالحب يمثل الأمل في محيط عازفٍ عن الحب، وانشغل بمحاولاته اليائسة في ترويض وحش الكراهية في النفوس، لكن كل ذلك محضُ

عبث، فحرب السلطات ضد روحانية الشعوب ومحاولتها الفاشلة في ترميم ما يتهدم باستمرار أربك كل دعائم الاستقرار والأمان، وجعل الفئات المدركة لفداحة الواقع تذهب باتجاه خيارات عقيمة ومتعبة، إما المقاومة أو الهروب، أي الخروج القسري، وبذلك تتعمق الهوة بين الجماهير والمنظومة السياسية والتي بدورها تسطو على ميادين الحياة، وتسرع في إشادة نهج الفوضى والذعر بين الفئات المهددة بأمنها واستقرارها النفسي، فالعالم النمطي هو المبتغى من فكرة القمع المتصدعة، فخلق حياة راكدة جامدة من غايات الذهنية الشمولية، حيث تفسخ البنى الانتمائية للناس يمثل عامل ديمومة للسلطة وضمانة لرسوخها، حين تتحول كافة الشرائح المتنفذة إلى قوات محلية تخدم روح العنصرية وضمانة لرسوخها، حينما تتحول كافة الشرائح المتنفذة إلى قوات محلية تخدم روح العنصرية والشوفينية التي تنتجها السلطة، حيث تمثل تلك الشرائح نواة بائسة تعيد إنتاج ذات السلطة، لهذا حرص حليم يوسف على فهم الوحش، لأنه يخشى من المتنورين والعاشقين على حد سواء، ولأنه أنموذج يتناقض مع نظام العبودية والإذعان، وبدوره يسهم في خلق بيئة مغايرة، حيث كل مشوه يستمد سطوة ولوجه للأعماق من خلال السلطة الاستبدادية.

◆ إرهاب الدولة ودورها في صناعة المجتمع الخائف:

رسم الروائي الخطوط العريضة لإرهاب الدولة وأثره على المجتمع، وذلك الخوف الكبير من الحديث خارج سياق تمجيد القائد الفرد بثّ الرهبة في أعماق الفرد وأخمد صوت الحرية في داخله، وحوّله إلى فرد معاق، فكما أن البشرية قد شهدت منذ القدم عهود القتل والنهب والرقيق، فإن الدولة تقوم بذلك عبر نظامها وتمجيدها للقائد السارق بوصفه نبيلاً عظيماً ومفكراً ، فالحرب بهذه الطريقة تتم على المجتمع وتنصبّ في نقطة زعزعة مواضع الثقة بين الأفراد.

لقد زرعت الدولة البعثية أجسامها السامة بين المجتمع، وزرعت مناهجها في عقول الأطفال، وبهذا فإن من تربّوا عبر سنوات على دعاية البعث وفكره المتعالي، لن يكون بوسعهم قيادة ثورة ضدها، وإنما يلزمهم أولاً الخلاص من التعالي القومي أولاً وتشرُّب قيم المدنية المعاصرة والتي تلزمهم بخلق أجواء الرفاهية والتعددية العرقية والدينية، وهذا لم يعد متاحاً وممكناً في ظل الفوضى التي بعثرت كل شيء وخلقت بيئة خصبة للإرهابيين والمرتزقة الذين تجمعوا من كل صقع ليبثوا أفكار الإسلام السياسي الواهنة مكان سلطة البعث الحاكم، فقد اكتسبت السلطة البعثية كل مهارات التعذيب في سحق ثورة المعتقل السياسي ومحاولاته في التغيير واستمدت كل تلك الوسائل من هذا النسق التاريخي في قمع النظم السياسية للجماهير والتحكم برباطة جأشها وصبرها، فيتحدث حليم يوسف عن تظاهر الناس بالحزن خوفاً إبان رحيل حافظ الأسد، حيث الأعلام السوداء في كل منزل تعلو، تظاهراً بالفجيعة، وحرصاً على الأفراد من عيون الدولة التي لا تغمض أجفانها عن الناس، وتدأب على مراقبتها عن كثب لخطوات المتحركين لغاية البحث عن البدائل وفي كثير من الأحيان يلتقي الظالم والمظلوم في فرد مناهض، فيلجأ إلى تبرير إرهابه من خلال شرعنة حركته الاحتجاجية المفتقدة لمنهجية تتسم

بالرحابة واحتواء الانتماءات المتعددة، فميل السلطة القمعية لإماتة الحياة في ذائقة الجماهير يعبر عن تصالحها مع التاريخ الوحشي لدرجة بالغة الخطورة، حينما تحيي جانباً متصلاً بالتاريخ القديم في تأليه القائد وتنصيب تماثيل له في الأروقة والساحات العامة، فالعديد من الصور والأقاويل المكتوبة على الجدران لن تستطيع جعل القائد صرحاً تنويرياً وإنما لطخة سوداء في تاريخ البشرية، حيث ذلك الاستبداد الذهني الممارس يومياً يجعل الثقة بالمدارك والعقول صعبة إثر الخوف، إذ لا حاجة أن يفكر الفرد بحضور القائد وبقاءه وكيلاً على الفن والفكر والجمال، فتربية النوازع العدوانية وتغذيتها بأسباب التذمر والنفور يعتبر من عمل السلطات الشمولية حين تبتر ما يتعلق بالتفكير النقدي لصالح التسليم بأصالة وسمو القائد الملهم، لتحيل كل غرس أخضر إلى يباب، فالعنف يلبس الحركة دوماً ويستدعيه بالمقابل عنف مضاد، إذ يتصل العنف بكل شيء وأحد أرقى أشكاله هو القانون الملزم، حيث يتصف القانون بصرامته وبوجوب قوة تفرضه وتدين من خلاله المقصرين والمتجاوزين له، فالرهبة متداخلة في طبيعة العلاقة بين الأفراد والمنظومة المديرة للمؤسسات إلى جانب التفكك الروحي للجماهير والتي قادت الجموع نحو الفوضى، فالسلطة الشمولية خلقت في أوساطها مدّاحين، يكيلون المديح خوفاً من القائد أو تمنياً من أن يسقط تمثاله بين أقدامهم، حيث بدت الحالة الكوردستانية في ظل النظم المحتلة لكردستان تبعث على الذهول والإحباط، حيث قاد القمع التنظيمات المعارضة للتنازل عن حلم إقامة كيان حر ومستقل إلى مطلب السماح بالتحدث باللغة الأم، أو التخفيف عن عزلة أصحاب الرأي وليس العمل على إخراجهم من أسوار المعتقلات، كل ذلك نتيجة تحجر تلك السلطة التنظيمية وارتهانها للنظم الإقليمية، فحيثما يتواجد المغفلون، يتواجد المستغلون، إذ لا شيء يحبط الإرادة الجمعية والفردية سوى شيئين وهما الفساد والتعنت، حيث نحد بهذا الصدد أن المناهضة الفكرية لسلبيات وسلوكيات الجماهير أفضل من الوقوع في

فخ الندية والعراك الانفعالي، في ظل خطورة الجدل نسبة لوجود تقاليد سلطوية أشبه بالنظام القمعي الدولتي، تكبل الأفراد وتعمل على إقصاء مبدعيهم ومبدعاتهم، فلا يمكن مجادلة رجل دين شرق أوسطي أو متحزب شمولي، لا ير أبعد من إيديولوجية حزبه، إنهما يسيران على خط واحد وهو المحافظة على التصوف، حيث أن رجل الدين والحزب الشمولي قضيا حياتيهما في المحافظة على روح الأبوية العائلية، وأسهما بتحوير ذائقة المجتمعات وإخصاءهما عبر التاريخ، وقد استطاعا في كثير من المواقف تحويل الجماهير إلى مصفقين بحكم الخوف أو العادة، وثمة معرفيات ومعرفيين قضوا في كنف الدين والحزب ردحاً من الزمن وخرجا بحقائق وأسس احتجاجية ناجعة كخيار بديل لفهم الحياة خارج مزاريب مفهوم إن لم تكن مع فأنت ضدي أو إنك متآمر مأجور في كل الأحوال، ولا شك أن المعرفي ساعٍ لمعرفة كل شيء الواضح منها والخفي في آن، ولا يحسن خداع نفسه والآخر، كونه غيرَ انتفاعي ولا يعني أن رجل الدين أو الحزب جاهل، كلاهما في المراتب العليا للقيادة يدركان ما يفعلان وعملهما دؤوب يصب في إطالة عمر التجهيل الممنهج، فالنص الديني المقدس أجاد في رفع سوية الحالة الروحانية للجماهير التي تعاني من سطوة الخرافة، فقد أتى التقديس الديني من خلال أنسنة الله وتأليه نائبه "النبي" أو نائب المسيح "البابا" ونائب النبي "الشيخ، أمير المؤمنين وجاءت الاشتراكية المشيدة، وجموع الأحزاب الشرق أوسطية "الكردية" لتستفيد من التقاليد الدينية في منشأها وتمزجه بخليط الفكر اليساري بشقيه "الماركسي"أو "القومي الاشتراكي" وتمت تصفية وإبعاد العديد من المعرفيات والمعرفيين الساعين للتغيير، وقد أنشأوا نظام علاقات تعتمد على تربية التصوف والمحسوبية وتقوية الجاسوسية في أوساط أتباعها، وقد وجدوا في وضع الهالة على مؤسس المجموعة إسلوباً يزيد من ارتباط الجماهير التصوفي بها، حيث أن ثالوث تأليه القائد وتهميش الجندي واستغباء القطيع رسم تقليداً راسخة باتت إرثاً عقائدياً

سـميكاً كهالة تأثـير الدين على النفوس، عبّر حليم يوسـف عنـه في رواياته، وإن كان يتطرق في هذه الرواية لموضوع عميق الكنف، وهو الخوض في دلالة الوحش.

إن الأخلاق موجودة بالغريزة داخل الكائن الحي قبل وجود الأديان، والوطن يعتبر الأرضـية الخصـبة لإنتاج الحياة وارتباط القائد بالشـعب، والعكـس أربك من إيمان النـاس بالرقعـة الجغرافية، وثمة شـواهد كثيرة عـبر التاريخ، تبـين حقيقة الحروب الأهلية والثورات نتيجة احتكار السـلطة للوطنية وجعل القادة أوطاناً والأوطان مسارح تعذيـب واعتقال وقتل، حيث لا يناهض المعرفيون التحزبية المؤسسـاتية، فهي منظومة عمل وإنتاج، ولكن دحض المتألهين أعداء التغيير، يصـب في خدمة المجتمع وتماسـكه، وهو واجب حضـاري لصـون مَلَكات الفكـر والجمال والإبداع، وكذلك تطوير أسـاليب الخطاب بروح تعتمد النقد والمصارحة الفكرية، وبالنظر لرواية الوحش الذي بداخلي يمكـن فهم الحالـة "الكورديـاتية" على أنها في كثير من الأحايين، ونتيجة ذلك التعاقد المشـترك بين السـلطة الحاكمة والتنظيم المناهض، أي التشـابه في الأدوات وأساليب الطرح، نلقاها تميل أكثر ذهاباً باتجاه منحى الانصـهار الطوعي بالتركياتية والعروبة والتفريـس، والانسـياق دون وعي للتقولب الشـمولي في متاهة عبـادة الفرد وهذه من علامـات تجهيل وإخصـاء الجماهـير، وهذا القول لا يلغي المزايا الحاصـلة صـدفة داخل تلك المؤسسـتين الدينية والحزبية الشـمولية التي كانت استجابة عفوية لحالات الضياع والعبودية الحاصلة على أشـدها، وذلك إبان تأسيسها وفق ضرورات المرحلة، كما في حقب بدايات القرن العشـرين في قارات العالم القديم، فنجد أن الفكر القومي الإلغاءي والإسلام السياسي المذهبي قد قوضا معالم الحياة الديمقراطية لدى شعوب الشرق الأوسط، لذا وجب التعامل مع القضايا كحقائق وأرقام ومكاشفات، وهو الأنجع لكسـب ثقة الجماهير بقياداتها وتنظيماتها، حيث أن إحياء خطاب الثمانينات الثوري ومحاولـة تجديده أشـبه بمحاولة إحياء جثـة متعفنة، فالجماهير المثـارة إثر خطاب

السلطة القومي أو المذهبي أكثر خطورة على بعضها بعضاً من تلك السلطة نفسها.

السجن الأكبر الذي أحاط الجماهير على طول رقعة البلد، جعل العيون تتعايش مع مشاهد الرهبة والدموع في ذلك الواقع المنطوي على أمور تتعلق بطبيعة المجتمع المتأقلم على نمط مجفف للعيش وانتظار القادم المجهول، خيبات تتوزع في سحنات الناس التقطتها كاميرا حليم يوسف لتنقب في جمالية المساعي والمحاولات للانعتاق، مع فوضى الخوف وما أفرزته من آلام وإجهاضات للتغيير والعمل السياسي المناهض للحكم القائم، أعباء الاعتقال القسري وطول فتراته حتّم على الحياة أن تسير في منحى درامي مأساوي، فالعيون المراقبة للحظة خروج إنسان من المعتقل كانت تروي زمناً صعباً متخماً بالاستبداد وتردي حقوق الإنسان.

بتأملنا للغة الوجدانية في هذه الرواية نجدها تتمايز بالهدوء والروية في سرد الحدث، حيث يتركز الضوء على تحول الخوف لنظام حياة، وأخذت توغل في نفسية الناس وتفاصيل حياتها، أخذ ذلك التأثير يطغى على العقول والأذهان، وستقدّم بعد ذلك منظومة سيكولوجية محددة يتصف أفرادها بخوفهم من الثقة بالنفس وباستلاب شخصيتهم، لتتحول وجوه المستلبين إلى هيئة تماثيل رخامية لا حياة فيها، يتشابهون في الهموم والهواجس، ويبقى شغلهم الشاغل الحفاظ على أنفسهم من الوقوع في قبضة الأجهزة الأمنية والسجون العرفية وحياة الطوارئ التي لا يعلمون متى ستنتهي، لقاء العاشقين في المقبرة يعمق من مفهوم الرغبة في الحياة الآمنة، والموتى هنا يشكلون الطوق الآمن بالنسبة لسالار ومريم، الإقبال الكبير على صنع التمثال بعد موت حافظ الأسد، وعيون المخابرات المنتشرة في الأروقة والمحلات، صعّد من موجات التأثير والجاذبية في الرواية جاعلاً من المشهد المكاني يتجسد داخل المتلقي على نحو خاطف، السجن ترسخ في الحياة وبات لسان حال الأفراد، إحصاء أخطاء السلطة وموبقاتها بحق الناس، الجرائم السياسية تتفاقم، والرواية تسلط الضوء على ما

يوده المؤلف ويشـغل اهتمامه، سواء وصـف المراميز المكانية وعلاقتها بتموضع الأفراد وعمل الشـخوص في إنضاج الرسائل والمواقف وتقديمها للمتلقي بوصفه كائناً حساساً ومرهفـاً، ويود معرفـة تاريخ الحقبة المؤلمة التي عاشـتها الجماهير، وبات في مخيلتها الخوف والتعذيب، فالاغتيال بوصـفه أداة لجم شـديدة التأثير توغل في نفسية الفرد، وأحالته إلى كتلة من تشاؤم، فكيف يتم التعامل مع الإحباط حينما يتسلل لدواخل المرء ويربكه أو يجعله ضحيَّةَ دوَّامة تكاد ألا تنتهي.

يمعن حليم يوسـف في تجسـيد المكان انعكاسـاً لخراب الروح وأفـول الأمل، يدني الشمعة إلى جوانب معتمة في حياة المعتقلين والمكبلين بسلاسل التماثيل والحياة الباردة والممتلئة بالجمود، فالابتكار في نحت التمثال إشارة إلى ارتهان الإبداع واحتضاره على مسـرح العبث به، وقدرة سـالار على تبصـر الوجع ومحاولة إخفـاءه عبر الحب، كان الطابـع المتفاءل الوحيد على مسـرح رواية تعج بالحركة والشـخوص الذين يتحرّكون حول خيال الخلاص بغية الوصول إلى طرفِ خيطٍ رفيع.

يمارس الإرهاب الدولي على نحو مقنّن، ولا يتدخل الرأي العام العالمي بما يحدث من انتهاكات داخل دولة تمارس فيه السـلطات قمعاً لا محدوداً، فأحوال حقوق الإنسان في خطر، وآلاف المعتقلين يعانون، ولا أحد يتحدث عن أحوالهم، وما من قوة تدين إرهاب الدولة الممارَس على الأفراد الخارجين عن نظامها والمناهضـين لها، فالمصـالح ألغت المبـادئ وجعلت الأخلاق التعاملية موجودة حسـب مجموع المنافـع التي تجمع الأنظمة بعضـها ببعض عبر تحالفات واتحادات سياسـية تمت لعالم المصالح الاقتصادية، فلا أحد يأبه بالإنسـان وكرامته، الانتهاكات داخل السـجون البعثية السورية كما التركية الإيرانية والعراقية ومن على شـاكلتها، وما من جهة تأبه لذلك أو تقيم وزناً، ولم يكن رهـان التغير يوماً منصـباً حول تحسـين هذا الملـف، إنما ميزان المصـالح يعد الأكثر تـداولاً من أي مفصـل أو جانب متعلـق بالحالة الأخلاقية، حيث تتغـير النظم وتنهار

الاقتصـادات بفعل التناقضـات الربحية لا أكثر، لأن العنف هو خبز الدولة الشـمولية المركزية وأسـاس انتعاشـها ورسـوخها، فالإرهاب الذي يعنيه حليم يوسـف في روايته هـو الجانـب الغريزي للفرد، الإنسـان كائـن إرهابي، يثـير الرهبة، حين يتـم إذلاله وتعذيبه وتغذيته بأسـباب الظلـم والمعاناة، ليتحول إلى وحش، كمـا أن الحيوان يمكن تدجينه ليصبح أليفاً ومسالماً، فإنه في الآن ذاته يمكن جعله أكثر شراسة وضراوة حين يتم ضـربه وتجويعه، فداخل كل كائن إنسـاني أو حيواني ثمَّة وحش رابض، والسـلطة القمعيـة لا عمل لها سـوى إخراج الوحش داخل الإنسـان وإطلاق العنـان له، لينتفض ويقتلع الأخضر واليابس، حيث يتم تطويع الإرهاب ليكون وسيلة لترسيخ النفوذ المادي عبر ثبات السـلطة في مكانهـا وتفعيل منظومتها الثقافية داخـل النخب الإبداعية من كتاب سلطويين وفنانين مرتهنين يقدمون الولاء مقابل الامتيازات الوقتية التي تمنحها السلطة لهم، حيث تغتصب السلطة مقومات الإبداع وتسلب الطاقات الواعدة وتحيلها إلى رماد، وتسـهم في خلق بذور الغرور والتسـلط لدى مثقفي السـلطة المنتفعين، ممن تركـوا الابتـكار وعززوا دافـع الاحتكار المادي واللهـث وراء ما تلقيه لهم السـلطة من بهارج خادعة تتعلق بالشـهرة والأضواء، فالسـلطات تقدم الفوضى بديلاً عن نظامها وتهدد به، كي تبقى وكيلة على مصالحها باسم الشعب.

يحـاول الروائي من خلال إضـاءة بعض جوانـب عيش الناس والشـباب على نحو خاصَّ أن يترك الكثير من الدلالات والرموز المقتضبة التي ترمز إلى تصرّفات السلطة والأجهـزة الأمنيَّة، كي يتمكن الناقد الحصـيف من إخراج مـا في الجعبة من تأويلات هامة تلخص جدية إرتباط الأدب بالفكر، هكذا تنطلق الرواية الواقعية في تدشين آفاق رحبة من الجمال المرتبط بوصف الواقع المعاش، وما يتضمنه من إرهاصات ومخاضات تتسم بدلالتها النفسيَّة والفكريَّة المتصلة بحاجات المجتمع للانعتاق والرفاهية.

لِمَ يلجأ المعرفي للعزلة دون الانغماس والإيغال في صـلب الحركة وممارسـة مهامه

الحثيثة في مناهضة القوالب وسوءات التفكير المتمخضة عن علاقة السلطة القمعية بالمجتمع؟

سؤال يطرح نفسه في سياق بحثنا عن معضلة التوحش المستشرية تحت تأثير ضغط أجهزة الأمن على المجتمع بكامله، والتي أشار لها الكاتب حليم يوسف، بكونها أداة تبلع الإنسان داخل المعتقل وتسلبه كل أسباب البقاء، الحياة الأسيرة بيد المنظومة تفقد المرء كل دوافع العمل داخل المنظومة أو خارجها، كون الحراك قاصر ولا يحقق أثراً في لجم الخوف وصنّاعه، إننا امام أزمة ضآلة إنتاج الافكار الجديدة، حيث طغيان العلة لن تخلق الأفراد ذوي التفكير الجديد، وإنما سينصب عملهم حول متاهة فرضتها تلك السلطة، مثالاً : نجد أن المفكر الشرق أوسطي يخوض ملياً في موضوع تأليه القائد، ويكرر كثيراً خوفه، معاناته من تفاقم مرض القطيع، ويظل يخوض تلك الدوامة دون إنتاج شيء ذي معنى، هذا يجعلنا ندرك مدى فعالية جهاز السلطة في جعل مناهضيها يسقطون في عزلتهم الفكرية أكثر فأكثر كونهم ظلوا أسيري مناهضتهم لشيء لم يتقلص، إن إمكانية جهاز القمع السلطوي في تجهيل الجماهير أكبر من إمكانية ذلك المفكر، أو تلك المفكرة الساعية لإنبات زهرة الإبداع في عقول الأطفال، والوقوع في شرك النظري جعل القعل في محنة والإنسان في عزلةٍ وانفصام.

فتلامذة الشيخ وأتباع القادة الملهمون يخوضون نشوة الحلم، ويبتعدون عن حقيقة أن السياسي قد يكذب فكيف يتم تأليهه، والشيخ صاحب الطريقة قد يخون الله في سره، فكيف يهبه الناس الهبات والأعطيات، لقد نادوا قبلاً بموضوع فصل الدين عن السياسة، وبقي الإشكال قائماً، فلا نعتقد أنّه سيتم فصل القائد عن الشعب، على اعتبار أنَ الاقائد وثن والشعب حقيقة.

إن استماتة قوى السلطة في السيطرة على الموارد والامتيازات ووضع اليد على مناحي الحياة، قادها إلى نمط من الجمود، وجعل التصحر الفكري هو القدر الجامع الذي تستظل تحت فيئه فئات المجتمع، والسيطرة يلزمها جهاز رقابي دقيق، يعتبر كل

مناهض عدواً أولاً. هذه حال الشرق الأوسط في ظل سقوط أنظمة ومجيء أخرى، حيث لعبة تبديل الأدوار وإحداث بعض التعديلات لن يساهم في أي تغيير جوهري يفتح المجال أمام أصحاب المواهب والمدركات الحرة، إنها منطقة غنية من حيث الموارد، وتخضع لسلطة أوروبية أمريكية عن بعد وبوكلاء سذج ينشرون التجهيل والتصوف وإخضاع العقل عبر حقن الدين المذهبي والقومية التفاخرية والديمقراطية الواهنة.

لقد حددت المنظومة السياسية البعثية طبيعة المجتمع وأدوار فئاته ورسمت معالم اغتراب أفراده، من خلال عزلة محكمة بسلاسل الرهبة، وأسلاك الحذر، وقد جعل حليم يوسف عبر رصده للجوانب النفسية للبطل شكلاً تجسيدياً لحياة القلق المسيطرة على الناس، حيث أودعتهم لحالة من القلق إزاء الحاضر المعاش والمستقبل المنتظر: "كلما داهمتني الكآبة، كانت ذقني النابتة تساعدني على تحمل تلك اللزوجة الثقيلة التي تتركها الحياة اليومية خلفها، ربما كان ذلك وهماً، لكنني بإطالة ذقني كنت أحس بأن الكآبة تتسرب من داخلي عبر مسامات الجلد إلى تلك الشعيرات الكثيفة التي تغطي وجهي، وكنت أختبأ خلف تلك الشعيرات الدقيقة التي تخبأ فضيحة الحزن المستقر في ملامح وجهي، وأشعر بالسكينة في روحي القلقة". للذقن رمزية باهتة تتعلق بالحزن، حيث نجد حليم يوسف يرصد محدداً وقع تلك الخطى المراقبة لخطوات سالار كما في سياق توهم موسى لوقع خطوات وراءه وفق رواية خوف بلا أسنان، فما بين الحالتين رابط مشترك يتعلق بالخوف والرغبة المستمرة في الانقضاض عليه، الإحباط مقيم في المكان والزمان، رغبة العديد في الهجرة تكاد تصبح الوجه العام لتلك الأحاديث التي يتبادلها سالار مع أصدقاءه، حالات الفزع من وجود رجال أمن وجواسيس يتبعون الناس، ويسألونهم عن كل شيء، جو العزلة والانكماش الذي جسده حليم يوسف يثير التساؤل ويجعل قلمنا يسير باتجاه التعريف المكثف لطرائق عزل

السـلطة القمعية للمجتمع، إن تلك العزلة الاجتماعية ولدت مفاهيم مضطربة تشربها الأفراد عبر تقاليدهم وعاداتهم.

السـلطة الاستبدادية أعاقت تلك القدرات الذاتية لدى الإنسان وحاربت المعرفيات والمعرفيين بكافة الوسـائل الناعمة والقسـرية، فتتبع الأفراد وتحري شـؤونهم اليومية هـو لتذكيرهـم بحقيقة سـوداء، وهـي أنهم في السـجن، سـجن كبير اسـمه الوطن، وطـن أفراده يمتهنون تكرار ما سـوقته السـلطة من حياة غير واثقـة، وملامح الذات المنكسـرة ما هي إلا عبارة عن تفاصيل غامضة تبوح بها علامات الوجه، تفتيت الفرد عبر مراقبة حركاته، وتتبعه بشـكل دائم عرقـل المناخات الإيجابية فيما بينه والناس، وباتت النظم فيها طائفية محكومة بالفشـل والإخفاق، تتربص أجهزة أمنها بالنفوس والعقول لتقودهم نحو مستقبل مظلمٍ.

تعتبر مجاورة الموت تعبيراً رمزياً لطلب السـكينة والراحة والتحرر من القلق، على اعتباره عاملاً يشل حركة النفس، ويلزمها على الركود والتقوقع في دوامة ساكنة، لهذا اسـتدل الكاتب عبرها نشدان الإنسـان المقموع لحياة رحبة خالية من المعاناة الذاتية، حيـث تفـكك المجتمع وتفتته جعل الفرد يشـعر بعزلته الخانقة، قصـة الحب معلنة في سـاحة هادئة سـاكنة، حيث القبور تهـب الحكمة، كما تفتح الأفق نحـو معرفة النفس ومـا يجري في القلب من سـجالات وجدانية، عالم الأحياء مخيـف ويبعث على الرهبة ولاسـيما أن الأحيـاء المتنفذون والمتحكمـون بالناس وأقدارهم، وضـعوا نظام الموت في الحيـاة وأسسـوا للكراهية لتبقـى لأمد غير معلوم، وهكذا انتهى حال سـالار لتأمل تلك القبور حيث نجد حبوره باتجاه نظره المسـلط للأمام، لنجد صـمتاً خانقاً مفعماً بالحسرة: "تناولت المفتاح من يدي بعد تردد، خبأته في جيبها وهمّت بالمغادرة، شعرت بأن لدي الكثير مما سأقوله لها، لكن الكلمات لم تكن تخرج من الفم، كان هناك شيء ما يتحرك في داخلي وأعجز عن وصفه، راقبتها حتى خرجت من القبور، وبدأت أتذكر

شيئاً فشيئاً ما أود أن أصارحها به، لكن الوقت كان متأخراً لإسماعها أي شيء، وبقيت أفواه مئات الحيوانات الجائعة عاجزة في داخلي تبحث عن لقمة حب صغيرة تسد جوعها المزمن وسط هذه المقبرة الممتدة على امتداد هذا العالم الموحش."

تلك العلاقة المبهمة تشي بالكثير من الدلالات النفسية للعاشق في ظل منظومة الخوف، منها:

حاجة الفرد للاستقرار، والمفتاح هنا يمثل حلاً منطقياً للخروج من بلاد تفتقر للحب وتطلع واعٍ للحرية عبر بوابة الهروب من الوطن.

فهم الحياة الوجدانية بزهد عالي يبعث على التساؤل والإيغال في صفاء العلاقة لتكون نموذجية غير محصورة في بهارج شكليَّة خاوية.

الغموض الذي يكتنف الوجدان في ساعات البوح والخلود إلى الصمت كوسيلة لإعادة مراجعة الحسابات الداخليَّة.

وقد أوجد الكاتب هذا الفضاء بهدف دفع المتلقي إلى فهم طبيعة المجتمع وحاجته الكبيرة للتغيير وعسر إيجاد ذلك، حيث التفكير بالهجرة أبداً مثَّل الخلاص الوحيد من سوء الحال.

◆ شهوة السلطة القمعية وتصاعد نمو الشخصية المستلبة:

في ظل لهاث أصحاب النفوذ والامتيازات السلطوية نحو المنافع والمزيد من المكاسب، يجدر تنامي القبضة الأمنية وسلوكها المباشر في التحري والمراقبة، لاسيما وأن الإبداع يسعى للبروز عبر الحب، وغاية الفرد من التحرك في بوتقة الوطن المعتقل هو لأجل إنقاذ الحب من مخالب الخوف، وما السعي إلى الفرار إلا نتيجة لإفلاس المجتمع روحياً بعد عزله وتصاعد إنطفاء شعلة الانتماء للأرض فيه لصالح الرغبة المحتدة في عيش الإغتراب الخارجي، فيستغرق حليم يوسف في فكره ملياً حول التمثال وظله الذي أخذ يطبق على خيال سالار، ويجعله في حالة من خوف أثناء النوم، فالشوارع خالية والتمثال يزداد تطاولاً وضخامة، ولابد من إثرها حصول ذلك التصادم ما بين شخصية مرهفة وأخرى سلطوية تنهش المخيلة والمستقبل على حد سواء، إنها معركة غير متكافئة بين التمثال الضخم والرجل مكسور الرأس، وعلى الرغم من اختفاء الحب يغدو الفرد على أرض الواقع ضحية الظروف القاهرة والموانع القسرية، لنجد هنا التخييل ينفذ مهمة فنية في استعراض الفكر بيسر، فعلى الرغم من قسوة الواقع وبطش السلطة في التعامل مع الخصوم والجماهير وأخصها الشريحة المطالبة بالتغيير والعاملة لأجل ذلك الهدف، نشهد تجاسراً واضحاً لبلوغ المبتغى، ففي رمزية الرجال ذوي الملامح المتطابقة ثمة إشارة للنمطية التي رسختها المنظومة الشمولية في حياة الناس التي ما فتأت تربي طاعة ولي النعمة في ذائقتها، وهكذا فهي في حالة اعتياد تاريخية لعبادة الأشخاص المتألهين وذلك مستمر وفي تصاعد، بغض النظر عن طبيعة تلك المناهضة ووسائل تحركها، بيد أنها تبحث عن مهدي منتظر أو مسيح مخلّص ينقذها مما هي عليه، وسرعان ما يتحول ذلك المخلّص إلى مستبد، وتعود الجماهير إلى مربعها الأول، كونها تدين بالاستبداد وترعاه في لاشعورها فتصطدم

به مراراً، فيجب أولاً التخلص من التمثال وكاريزما الشخصية المخلِّصة واستبدالها بمحاولة إيجاد جيل مخلّص وجماهير واعية تصنع حريتها وطموحها عبر بذل الجهود المشتركة بغية إيجاد قويمة لمجتمع معرفي يحقق العيش المسالم.

يشير حليم يوسف إلى معاداة السلطة الساذجة للمتنورين ، كونهم أعداء الاستبداد والفساد: ,,دخل الرجال الثلاثة ذوو الملامح المتطابقة ، بقي أحدهم متسمراً أمام الباب كمسمار صدئ، وكان أضخمهم ، لفت نظري القصر الفاضح في قامة أحد اللذين قلبا البيت رأساً على عقب، باحثين عن أشياء ممنوعة، عاد القصير بصيد ثمين، فرد أمام الرجل الضخم، ستة كتب: الغثيان لسارتر، العقد الاجتماعي لروسو، فاوست لغوته، مم وزين لأحمد خاني، شرفنامة للبدليسي والمسخ لكافكا، كانت تلك كتبي المنتقاة، قال الرجل الضخم بلهجة حازمة موجهاً كلامه إلى أبي:

نأخذ ابنك معنا، المعلم يريده."

إن عداء رجال السلطة مع المستنيرين تاريخي وقائم بذاته كحقيقة واضحة غير قابلة للبس، وإن تطوير الإقصاء والقمع من عملها الكابح للإبداع والابتكار، فأحد غاياتها هو القمع الوحشي وتثبيت الخوف كنظام حياتي، هنا أمكن فهم نضالات المعرفيين على أنها البديل الحضاري والوقائي القائم إلى جانب بطش الإرهاب الدولي أو الحزبي، وإقامتهما سلطتين كبرى وصغرى تعملان بالتنسيق فيما بينهما، للحد من تطلعات الفرد للإرتقاء.

ثمة مقاربة أراد الكاتب إيضاحها في علاقة الحلم باليقظة، فاعتقال سالار كان وراءه منام محتواه حالة صراع غير متكافئة بين التمثال والرأس المعطوب، حيث الاصطدام، فلا بد من فهم حقيقة أخرى تتعلق بصيرورة كفاح المدركين لحيوية التغيير، وهي أن الاستمرارية في سلوك نهج التمرد والمقاومة لقي في كثير من الأحيان ردود قبيحة من نظام السلطة الصغرى "الحزب المناهض"، لغايات تتعلق بالتمايز السلطوي والرغبة

بالبروز الانتفاعي الأناني حتى ولو على حساب المبادئ والمصالح الشعبية، ولذلك تأثيرٌ بالغ على كفاح المعرفيين لتحقيق التطلعات الجماهيرية في الحرية والاستقلال، هكذا نجد أن الحسابات السلطوية لا تتوافق البتَّة مع الغايات المثالية، بل وتتعارض على نحو فج ومباشر، فتحالف السلطتين الكبرى والصغرى فيما بينهما كان لكبح أداء المعرفيين ودورهم في تنبيه الغافلين، لهذا نشهد تشابهاً مقيتاً بين الأنظمة القامعة المحتلة لكردستان، وتنظيمات كردستانية سلطوية تكبح من جماح النخبة الشابة الواعية ممن ترفض الارتهان والمساومة على دماء الذين سقطوا لأجل كردستان.

◆ المنظومة الشمولية تجدد نفسها:

يرمي الضغط السلطوي بثقله على ميادين وصعد الحياة برمَّتها، ليخلف جيلاً مكبلاً بخوف ممنهج تربوياً، وقادر على أن يلتف حول مطالبات المعرفيات والمعرفيين، دعاة التغيير، لإحداث قفزة نوعية في مسار العملية السياسية، فجيل الزنازين لم يفلح في الخروج من بوتقة الإنكسار التي أحدثها السجن والاعتقال، لهذا بقيت مسارات التغيير محدودة محصورة في الأفق، الجماهير دخلت ألعوبة هذه السلطة ومارست دوراً خائباً في السير بخضوع لألاعيب السلطة عبر اختراقها للتنظيمات المناهضة، وجعل الجماهير تتفتت عبر عقليتها الانشقاقية، وفعلها للخلاص وإن دعت إليه نظرياً، تبين للقاصي والداني أن عداء المنظومة السلطوية القائمة مع قوى التغيير متفاقم ويتصاعد ويتعمق، عبر الأجنحة السلطوية المشتقة عن النظام "الدولتي" الحاكم، بمباركة استخباراتها، إنها وراء صنع تنظيمات منبثقة عنها عبر التقاليد وتشابه النظرة وعقلية التسلط والتعنت الإيديولوجي، أما عن كيفية الخروج من تأثير خطابات السلطة الشمولية وطبيعة تحركاتها ضد نهضة المجتمع، فهذا رهين الوقت والتغيرات الإقليمية المتصلة برغبات ومصالح الدول الكبرى الفاعلة والمؤثرة.

لقد كرس حليم يوسف للتنديد بالعقلية الشمولية وقتاً مهماً، وشكلت رواياته معبراً سهلاً لقول ما لا تقوله البحوث والدراسات عبر تسخير شخوص رواياته لتتهكم وتزدري وتعمل، وما ميله للسوداوية وضياع البوصلة سوى تجسيداً لحالة الأفراد في ظل النظام المركزي الشمولي، فشدة القمع وقوته حالت دون صناعة التغيير، بيد أنه أبرز المرهفين ممـن يحملون راية الفن والحب وأوكلهم صـناعة الحياة على نحو جدير بالعيش، وقد أشار الكاتب إلى قوة تلك السلطة عبر رمزية التمثال الذي يتعاظم ويغدو عملاقاً أمام سالار، ليعبر عن شـكل الصراع وترجيح كفة الأقوى، فالسلطة ملكت صكوك التخوين وإعطاء أوسـمة الوطنية لمن تريد، وعمقت الهوة بين فئات الشعب وأعراقه وانتماءاته، فالفوضى التي خلفتها باتت حجر عثرة بطريق الأفراد المدركين، لذا عززت تلك العثرة انبـلاج المجتمع التصـادمي غير المتجانس والمتميز بعـداءه للتجانس والتعايش، مفرق مقسـم، ويعيش حالة من الغبن والتكاسل والاعتماد على الغيب وخليط الأفكار الدينية والبدع الميتافيزيقية، هذا النمط من الحياة سـبَّب عطالة في الفكر وبطالة في الذهن، خلف أمماً متهالكة تكره القراءة وتنغمس في السياسـة على نحو مراهق وعاطفي، وفي الآن ذاته، ونظراً لكونها محرومة من ممارسـة السياسـة بمعناه الهادف فإنها تنزوي في أوحال الشعارات وتمجيد أولي النِّعم.

الحديث عن مجريات الذهاب إلى فرع الأمن للتحقيق يشكل باعثاً وجدانياً مرتبطاً أشـد الإرتباط بعلاقة المنظومة السياسـية مع الأفراد، لغة البطش وبث الخوف لابديل لهـا، وهي بمثابة الطوق الأمني الذي يحافظ على هيبة الدولة وجبروتها، يلزم الأفراد قسراً على الانصياع وقبول الدولة كحقيقة لا تقبل اللبس أو الشك، دولة البعث التي لا وجود فيها سـوى لعرق واحد متعالٍ على بقية الأعراق والملل والانتماءات، وضـمن تلك الدولـة حكم طائفة الرئيـس وأقاربه ومن لف طائفته، حكـم طائفي قومي فئوي وجد ليخدم أصـحاب الجيوب الفضفاضة المشاركة في قمع الفرد وملاحقة لقمة عيشه قبل

أن تنزل لمعدته الخاوية، هكذا وفي ظل هذا الجو المضطرب، يحتضر المرهف والمعرفي والمبدع، إذ أمامه درب وعرة للخروج من الأسلاك والعثرات، ومواجهتها بمنطق المخاتلة أو بمنطق المجازفة، ولحظة المسير إلى التحقيق نجدها مفعمة بسيول الأفكار والهواجس، ينجح الكاتب في تحقيق التجانس ما بين سحنات الموجودين المتحلقين حول سالار والمكان: ,,كان من المعروف عن المغني الأعمى أنه يغني ويسمع كل ما يقال، لذلك غيّر أغنيته لنفسه: -دخان دخان دخان يغطي العالم "وأراد تنظيف المرسم عن بكرة أبيه، قدم إلي سورو معتذراً عن ملاحقته لي في الشوارع وإخافتي، أفهمته أن ما فعله لم يكن سوى مزحة عدت على خير ولا تستحق أي اعتذار، الوحيد الذي كان شديد التأثر بوضعي ذلك المساء هو المعلم آرام، كان يبحث عن حل سريع ينقذني مما أنا فيه، وهذا ما كنت بحاجة ماسة إليه، إلا أنني فوجئت بمدى علو جبال العجز في عينيه الضيقتين، وخفت عليه في تلك اللحظات أكثر من خوفي على نفسي".

يقيم الكاتب عالم من المتناقضات بين فن يحارب وسلطة تقارع الإبداع، وحب البقاء والإرادة التي تدين للحياة، حيث يخوض العقل الإبداعي عدة صراعات داخلية وخارجية مع السلطة الكابحة لطاقاته، وعلى الرغم من أن مصير سالار مهدد في ظل استدعاء الأمن له للتحقيق، إلا أنه يواجه ويأخذ زمام المبادرة في الحد من حالة الرهبة المزروعة بداخله عبر الاجتماع بأصدقاءه، ليلقي نظرات حميمة على المكان، غناء الأعمى، مرسم سليمو، مرح وظرّف سورو، كل تلك الطقوس الجميلة المشبعة بالحياة إلى جانب الخوف من القادم، وسّع من دائرة التصادم، حيث المعلم آرام يحاول بشتى الوسائل مساعدة سالار وتخليصه من هذه الورطة، حياة تستمر وأفكار تقبع في زاوية الذهن كمدّ وجزر لايهدأ، أوجد الكاتب لهذه المعاناة الرابضة قيمة جمالية تجسدت بصخب المكان وألفة الصداقة وروح تعانق الإنسان مع الحياة بكافة ألوانها وصورها.

◆ **توحش الأمن وحيونة القطيع:**

يودّ حليم يوسف عبر دقَّة تصويره لقصة دخول سالار لغرفة التحقيق عقد صلات بين الإنسان والحيوان ومدى تشابههما في الملامح، إذ ثمة حيوانات أليفة وشرسة والإنسان أيضاً ما بين آخر أليف وهادئ، وآخر شرس أو لئيم ويميل لارتكاب الموبقات، يشير الكاتب إلى تغير الإنسان حينما يقع في قبضة رجال الأمن في دولة بوليسية كالبعث: „ذكرني الرجل العجوز الأصلع الذي كانت نظارته تستقر على أرنبة إنفه بفأر هرم، يقضم الورق القديم من الملفات المتراكمة أمامه على الطاولة" أو هنا: „ -أحضروا لي هذا الحيوان على الفور. أنا أعرف شغلي معه " وهنا: „جاوبني يا حيوان ، ألا تسمع ؟" وكذلك: „ ولك ياحمار كنت تقول لنا إنك أطرش "وتداراك الأمر قائلاً لنفسه: „ والله فعلاً أنا حمار ، كيف رح يرد علي وهو أطرش وأبكم".

حيث تعبر الشتيمة هنا عن الغضب والنقمة والاعتياد على ممارسة العنف وحده، التصارع بين جهاز الأمن والمعتقل السياسي وغير السياسي، حيث يبرز الكاتب كم العنف والخروج عن الحالة الإنسانية إلى الاستشراس الحيواني، وخروج الإنسان عن المنطق عبر إطلاق العنان لشحناته في اللاشعور وتدفعها لتعبر عن حالة التوحش تلك، حيث تسود القوة الباطشة مقابل أصوات خافتة لم تملك قوة مضادة، نتيجة إحكام سلطة البعث قبضتها على كافة مفاصل الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والتعليمية، لن نتفاجأ ببروز معارضة هشة وضيقة الأفق، تتشابه مع السلطة المناهضة في كثير من النقاط الجوهرية، وهذا ما يحاول الكاتب بيانه عبر روايته، معاينة المشهد السياسي بحنكة روائية مفعمة بالدلالات السيكولوجية، هدفها فهم المرحلة وطابع الحياة السائدة في ظل توغل أجهزة الأمن في مفاصل حياة الأفراد، ورسوخ العنف كمذهب عدائي يقوض طموحات الناس ويرسخ التفتيت والتشرذم والضياع بين السلطتين، المناهضة والقائمة، ويتبين ما يلي:

- حجـم الصـراع السياسـي وضـراوته واسـتماتة السـلطة في قمـع المعرفيات والمعرفيين، لما لهم من خطورة على المنظومة في صميمها.
- حرب سلطة البعث لكل المدركين بضرورة إسقاطها، واتخاذهم تدابيراً قاسية في قمع كل حراك.

لذا نجد أن الاعتقال السياسـي يعتبر عملاً مثار اهتمام بالغ للسلطة القمعية، وإن اهتمامهم بملفها أكبر مقارنة مع الجرائم والجنح الأخرى.

×كذلك نشـهد تواطئ رجل القانون مع رجل السـلطة في القمـع عبر أجهزتها التي تتعامل مع المعتقلين بمزاجية مفرطة، ففي كثير من الأحيان تطلق سـراح المعتقل حين يقوم ذويه بدفع المال مقابل خروجه، وقد كشـفت المذبحة السـورية، "الثورة"، الخلل البنيوي في طبيعة خطاب المعارضـة وتشددها الديني وخضوعها للأجندات الإقليمية، كما فعلت سلطة البعث التي راحت تفعل كل شيء وتفتك بكل شيء لأجل بقائها.

ولاشك إن الكاتب يتدرج عبر رواياته في الحديث عن مراحل تفسخ السلطة وذهاب هيبتهـا مـع الوقت، وتصـاعد الجرأة الشـعبية في الحراك وتسـلط القـوى الاقليمية والدولية لتحريك هذا الطوفان الجماهيري بما يتناسـب ومصـالحها الاسـتراتيجية في تلك المنطقة المتحقنة سياسـياً والبعيدة عن حالـة التعايش والتجانس، والتي عاثت السـلطة البعثية فيها فساداً من خلال تأصيلها للشوفينية القومية في نفوس الجماهير ، وهكذا نجد أن المنطقة المسـتعرة تنقل أزماتها خارج الحدود مع دول تتشـابه معها في عقليتها وكرهها للديمقراطية.

عداء رجل الأمن للمعرفة متأتية من سذاجته وكرهه للفنانين والمبدعين المشاهير، وهو مرموز يشـير أصـلاً إلى احتقار سـلطة البعث، حالها كأي سـلطة مخابراتية لكل الذين يشكلون مصدر قلقها، وهم أصحاب القلم ممن يمتلكون القدرة على التحريض ومعاينة الأورام الثقيلة المستوطنة روح الناس المتعبة، ومع توغل السلطة يصبح تماسكها

أضـعف وضـبطها لتجاوزات الأفرع الأمنية أقل، فيصبح البطش وليس سواه، غاية في حد ذاتها، حيث لا معاينة ولا تمحيص في ماهية من يتم اعتقاله، وإنما تمسي القضية تخويف الناس وترهيبهم، فحينما يتصرف المحقق بمزاجية بحتة وسلوكيات مضطربة تنم عن جهله وسـذاجته، عندها يمكن القول أن الإنسـان في خطـر فعلي والقانون قد مات، هذا بدوره ينعكس على نفسية المجتمع وإحباط أفراده، عدم قدرتهم على تجاوز فوبيا الخوف الذي يتضـخم باسـتمرار، فولاء رجال الأمن والجيش هو لنظام العائلة وطائفتهـا، وما البعث سـوى عباءة ومنبع وأسـلوب عمل يتم عبره الحكم والتصـرف كراع أوحد تحت يافطة حماية مكتسـبات الثورة والدفاع عن الاشـتراكية وماشـابهها من شعارات، لهذا نشهد مظالماً لا تطاق بحق الناس وتفنناً في تعذيب المعتقلين وإمعاناً جليـاً في خلق تنظيمـات وميليشـيات لها ذات التوجـه، وإن لم يكـن ذات التوجه فلها ذات العقلية والأسـلوب في التعاطي مع الجماهير، حيث احتكار الوطنية لصـالح حكم العائلة أو الطائفة يمثل رأس حربة بمواجهة الديمقراطية والتعددية، لأن احتكار القيم والموارد يقود أوتوماتيكياً لبناء نظام الاستبداد، وما يحدث في سوريا هو تحول كل حزب عسـكري الطابع إلى نظام مشابه لنظام السـلطة القائمة، إلى جانب تربية الجماهير على مذهب الخضـوع والولاء للحزب والتوجه الإيديولوجي على حساب الانتماء للوطن والتفكير بنهضته وبناءه.

إن مرحلة الثورات المسماة بالربيع العربي هو حصاد ما زرعته السلطة الإستبدادية مـن عبوات وألغام موقوتة تنفجـر على التوالي، ولن يتغير هذا الحـال إلا عبر التدرج البطـيء وبالتزامـن مع عمليـة رفع الطـوق أو العزلـة التاريخية عن تلـك الجماهير المغيبة، عبر الإكثار من بناء المحافل والمؤسسـات الثقافية المربية للعقل وتنميته، وهذا بالضـرورة سيتيح المجال لإرسـاء النقد ويفتح الطريق لمناقشة التابوهات والتقليل من سطوة رجال الدين والحزب الشمولي، الأمر الذي سيتيح المجال لقيام الثورة المعرفيَّة.

◆ **الوحش الذي بداخلي من زاوية علاقة الأدب بالفلسفة:**

ينقل لنا حليم يوسف أحداث روايته برموز يسقطها على السياسة وطريقة تعايش الأفراد والجماعات وكيفية حياتها، محاولاً نقل المعضلات الفكرية والنفسية والسياسية بطريقة تنم عن ذكاء ودراية بالمجتمع، وقد أخضع حليم يوسف شخوص الرواية أمام مجهر التأويل والتنقيب عن المناخ السائد وطبيعة تحركات الأفراد، إذ أراد أن يمارس مختلف الفنون الفكرية في عرض الرواية الشيقة، الكاتب حليم يوسف يحذو حذو كل الأدباء الفلاسفة في إرسال رسالته للآخرين لسان حال المعري وأحمدي خاني وملاي جزيري، وإن كان هؤلاء شعراء وهو روائي، ولا عجب في ذلك، فاختلاط الأجناس والفنون هو نتيجة ميل طبيعي من المبدع للتعبير عن أكثر من فكرة وجانب من خلال لون يحدده السرد، لهذا فإنني أرى أن كافة الفنون والأجناس الأدبية في حالة اقتران تامة بتساؤلات الفلسفة ومعضلاتها، لأنها تتمركز حول الوجود وإشكاليات الإنسان مع الذات والآخر والعالم ككل، وقد ارتأيت في النهج الذي يقول بالعلاقة بين الأدب والفلسفة لبيان قيم الفن إلى جانب الفكر، إذ كلما تشعبث الأفكار واتسعت فإننا لا نر سوى الرواية وسيلة لاحتضان الفكر والوجدان في آن، وحالة السرد هنا مضمخة بالعقلانية ونقيضها، تشبهاً بالحياة وتقلبات الإنسان النفسية ساعة الاعتقال والتعذيب، لغة الكاتب لا تفارق الشعرية كما لا تفارق المناخات الفلسفية، وهو يشتغل على أكثر من حقل وجانب، وهذا يعطي للسرد حيويته وسلاسته، فما يجمع الأدب والفكر هما البيان، جودة الإسلوب وروعة اللغة، إذ بدونهما لن تستطيع الأفكار أن تجد نفسها على الورق، ففي حواريات شخوص الرواية، أصدقاء سالار، وتلك الومضات البريئة والقصيرة من غرام سالار بمريم، نجد حيوية الانتقال السريع بارزة على أشدها، حيث السرد الأدبي دفاق بالصور والانزياحات التي تستمد ألقها

وأدواتهـا من الوجود، في حين تذهب الفلسـفة إلى معاينـة هذا الوجود على ما فيه من عـلات وجماليات، ونجد حليم يوسـف مواكبـاً لتقنيات الحداثة ومحافظـاً في آن معاً على المقومات الكلاسيكية لبناء الرواية، وهكذا نجده توافقياً في مسألة جمع كل شيء في خابيـة الرواية، لنجد أنفسـنا أمـام حقل بهي المنظر، فالكتابة وسـيلة لنقل الحياة وفهـم المرحلة، وكذلك تسـليط مركَّز على إشـكاليات عدم التكيـف أو الاغتراب، فلا قيمة للفكر أو الفلسفة إن انسلخ عن الوجدان، ولا قيمة للأدب إن تعرى من الفكر وبات بذخاً لغوياً، وقد نجح الكاتب في اتخاذ خيار التوسط ما بين الوجدان الأدبي والتساؤل الفكري من خلال الوصف والتساؤل ضمن حيز منطقي يحول دون طغيان الفكري على الوجداني أو العكس.

◆ **نظرة في آليات التعذيب وآثارها على المعتقل:**

التعذيب الجسدي والنفسي للمعتقل يستخدم بوصفه رادعاً يحول دون تحقيق الفرد لأهداف مناهضة للسلطة، ويستخدم كوسيلة للدفاع عن النظام السلطوي إزاء فئة تدحضه وتحاول هدمه مراراً، وهو عمل رئيس للدولة البعثية الطائفية في أنها تولي أهمية للتعذيب والتفنن به كوسيلة تردع الفرد وتجعله خائفاً بعيداً عن أفكار التغيير والعمل لقلب النظام القائم، ومما لاشك فيه أن أصحاب العقائد الدينية والوضعية يستخدمون التعذيب كوسيلة للمحافظة على السلطة والعقيدة والبقاء، فالإكراه والقسر شائعين في مذهب السلطة، ولكي يتحقق الرسوخ للنظام، يجدر أن تحارب المختلفين والمخالفين لها، وقد استخدم التعذيب لمزعم البحث عن الحقيقة ومعرفة المذنب قديماً، في اليونان وفي عهد الإسلام وما قبله، وكذلك في العصور الوسطى واستخدامه كوسيلة لحماية الكنيسة الكاثوليكية، حيث في الستينيات من القرن المنصرم قام العالم النفسي «ستانلي ملغرام" بإجراء اختبار في جامعة «يايل" لفهم ظاهرة التنفيذ الحرفي لعمليات الهولوكوست والتي قام بها الجنود النازيين في الحرب العالمية الثانية، وقام عالم النفس الأمريكي فيليب زمباردو بإجراء اختبار في سجن ستانفورد، حيث خَلُصَ زمباردو إلى نتيجة مفادها أن الأشخاص المقدمين على التعذيب معرضون للخضوع للتعليمات، كونهم مسلّمون لنظام إيديولوجي يحظى بمكانة اجتماعية ومؤسساتية، والإنسان بطبيعته ميال للتأقلم غريزياً ضمن المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه، فهدف نظام البعث القمعي هو الحد من المبدعين والمفكرين، واستسلامهم فوراً إثر التعذيب والمهانة التي يتعرضون لها، حيث يشير حليم يوسف إلى نمطين من التعذيب يكملان بعضيهما بعضاً: « ستظل هذه العصا معلقة في الهواء ومستقرة بين مؤخرتك وبين الحائط، ولفتت نظري الحفرة الصغيرة في الحائط والمتناسبة مع

رأس العصـا، شعرت بوجع شـديد يجتاح مؤخرتي، لم أكن أسـتطيع التقدم ولو قليلاً نحو الأمام أو التحرك، لئلا تسـقط العصـا، فتكون العواقب وخيمة، لم أصمد طويلاً، سـقطت العصـا بعد دقائق معدودة تخيلتها سـنيناً، جاء إلي صـاحب العصا مهدداً، متوعـداً بأنه سـيريني الويلات، تدخّل أحد زملائه الذي بـدا عليه التعب والإنهاك: „ اتركه اليوم، لم تعد لدي رغبة في الاستمرار، فلدينا الكثير من الوقت للتسلية به لاحقاً „ كانت الجملة الأخيرة شديدة الوضوح، وهو أنني سأظل بين أياديهم لسنوات ولديهم الكثير من الوقت لتحطيمي، فكرت بالانتحار، ووجدته أيضاً عصياً علي، أعادوني إلى الحجرة، كان الألم شديداً في مؤخرتي، والأفكار متزاحمة في رأسي، حاولت المستحيل لأنام، فلم أستطع وعندما كففت عن المحاولة، غرقت في نوم أثقل من الموت".

لمـس العصـا للمؤخرة يعكس دلالتين للتعذيب، نفسـية وتتمثل بالإحسـاس بالمهانة والـذل الشـديدين، وجسـدية تشـبه ألم الخـازوق العثمـاني، وقد أراد حليم يوسـف الإشـارة إلى أثر التعذيب الجنسـي على الفرد، مجريات التحقيـق وتداعياته تنعكس على ذات الشـخص المستجوب وتؤثر به لتجعله يتقلب في حساباته، تجعل جوه مشحوباً بالاضـطرابات النفسـية والتشـنجات الكارثية العاصـفة في مخيلته، وتدوي صرخات المعذبين والمتوجعين في أعماقه، وهو ينتقل من مكان لآخر، من محقق لآخر، فقد طغى إرهاب الدولة على كل إرهاب آخر مضـاد، وبات يتصدر مشهد التاريخ بفظاعة، فلكي تنقذ السـلطة نفسها من السقوط، تسـتخدم البطش لأقصى حدوده، تتقاسم صناعة الإرهـاب تلك الـدول والأحزاب والجماعات الصـغيرة، والجمعيات السـرية، المافيا، العائلة، كل في حقله، حيث يبدأ الإرهاب من فكرة في الذات سـرعان ما تتبلور لتصبح مبدأ أو قانوناً، إذ لطالما بدأت المنظومة في تأسـيس وجودها انطلاقاً من مسـاع فردية غير منتظمة لتصـبح مع الوقت نظاماً حديث النشـأة، إنه الفرار من الموت والتلاشـي أو الاختفـاء القسـري، كما جرى للعديـد من المعتقلين الذيـن تم تغييبهم، وبذلك فإن

السيطرة الأمنية التي تفرضها سلطة البعث تعمد إلى بث الخوف وجعله يتحكم بالأفراد، كي لا ينهضوا، وإن نهضوا فإنهم سيخرجون من هذا النهوض مكبلي الأقدام بسلاسل غليظة وثقيلة، ونعني بالسلاسل، تلك العوائق والعثرات التي تجعل من أي حراك مضاد ومناهض مخصياً، بليداً محكوماً بالفشل وعدم الاستمرار عبر زرع السلطة لأدواتها وأفكارها ومناهجها، هكذا لا يمكن الصحوة من هالة الغشاوة السميكة التي أحاطت العقل المعتقل وزجته في صدامات نفسية لا تكاد تتوقف، فالإرهاب الدولي المفروض على الجماهير، إرهاب يستمد جذوره التاريخية من عهود حكومات وسلطات قديمة، حال الأفراد في هذه البلاد السجينة، ينقلها آرام هنا: „كل ما جرى هنا هو إما ان تهرب كالجبناء أو تسجن كالأذلاء، أو تموت ميتة الكلاب أو تبقى في هذه البلاد وتعيش على طريقة الحيوانات، وأنا ياحميدو الحيوان البائس الذي في داخلي بدأ يفقد القدرة على التحمل وبدأ يتوحش ويأكل رأسه، ما أقسى هذا اليأس يا الله "، يمتلك آرام روح الإنسان الشاعر بعظمة المسؤولية الملقاة على عاتقه في مساعدة الآخر، هذه الرهافة جعلت إحساسه ينطوي على حزن ويأس عميقين، إزاء حال لا تتغير بل تتفاقم معع الوقت، وتحت ضغط هذا الإحباط والظلم الذي ترسخ في ماهية التماثيل المنحوتة. كان القرار الأخير، وهو الانتحار تعبيراً عن الرفض والتجلي بصورة حرة خارج الحياة، حيث العدم، ترك آرام لحميدور رسالة صغيرة مفادها: "لا تبك علي ياحميدو، إذا التقيت بسالار ولو بعد سنوات طويلة، قل له بأنني كنت أود أن أفعل له شيئاً لكنني لم أستطع، فليسامحني وسامحني أنت أيضاً، نحن نعيش في بلاد لا قوانين عادلة فيها، لذلك فإنني أردت اليوم أن أكون عادلاً مع نفسي على الأقل، لم أعد أتحمل، هذا كل ما في الأمر، وادعاً ."

في بلاد لا عدالة فيها ولا قوانين، يمسي فيها الفرد سجيناً محبطاً يواكب الصدمات الواحدة تلو الأخرى، ولا يجد في صمته العزاء الأكيد، فيختار طرق باب الموت لضآلة

احتمـال وجود حياة أفضـل، خرج الوحش الذي بداخل آرام بهيئـة الموت ليتجلى أمام أنظار الأحياء فاتحاً فمه، تتحقق عدالة الفرد اليائس من خلال الانتحار، وفق تراتبية الأحـداث المؤلـة المعاشـةهنا، أراد آرام التحرر من روتين المأسـاة والوقت فأقدم على الانتحار، لقد رغب في تحدّي جبروت الظلم والاستبداد فوضع حدًّاً لحياته.

◆ الانتحار بوصفه دعوة للحرية:

قصـد حليم يوسـف المعنى المرموز وراء انتحار آرام وهو الانتفاضة ومواجهة الموت القائم بشراسـة ودون توقف، أراد الوجه المجازي التحريضي المتأت من فعل الانتحار، حيـث أن قـرار الانتحار يجيء بعد عدة مرات وأشـكال من الموت التي يعايشـها الفرد المحبط، حيث الروح يلجها البرد والجليد من كل حدب وصـوب، ومع إحسـاس الخواء والعبث، يتضـاعف الإحسـاس بوجوب الموت وضـرورته، ومع انعدام لحظات السعادة الحقيقية والطويلة يصبح المرء في حالة من فقدان لأعصابه وتوازنه، ثم تراوده تخيلات هنـا وهناك، فالموت لم يعد مخيفاً بالنسـبة للذين يسـتعدون لملاقاتـه، بعد أن وجدوا في وجودهـم بالحياة مضـيعة للوقت، واقع تـزداد فيه المعاناة باطراد، ولاسـيما ذلك الموت الذي يسـتهدف الأفراد والنخب الشـابة، تلك التائقة لتلمس التغيير، لكنها تتوج أبداً بالإخفاقة والفشـل، نجد ذلك العزم الأكيد لمناهضـة سلوك النظام الاستبدادي الذي أخذ يحاصـر المجتمع منذ مراحل مرور الإنسـان بالطفولة فالشـباب والرجولة مـن ثم الكهولة، ليؤسـس له نظام حياة مبهمة وممتزجـة بالعزلة والخوف من التطلع للأمـام، على الرغم من أن قـرار الانتحار هو قرار أناني، لكنه أتى كنتيجة عن إهمال ممنهـج لقيـه الفرد ووجـد في التأقلم عملية معقـدة في ظل غياب الأمـان والرفاهية، وذلك الحصـار المطبق الذي فرضته السـلطة المهيمنة على الناس في مختلف ميادين حياتها وعملها بغض النظر عن ذلك التهور والانفعال الذي قد صاحب الانتحار، إلا أن

غياب أسباب التمتع بالحياة كامن في قرار إنهاء الحياة والخروج منها، أي الإستقالة، حيث تتفاقم معدلات الإنتحار في البيئات المعزولة سياسياً، ويصبح الإحباط عنوان كل الحياة الأسيرة لقوانين السلطة وتفسخها البنيوي والظاهر والذي يقود النخب المبدعة للهروب والتخلي عن الحياة عجزاً ويأساً، كون هرم الرعب المفروض من لدُن تلك السلطة مهيمن بضراوة ويصعب مناهضته بشكلٍ فرديّ.

خروج المعلم آلان من السجن، تبعه مشهد مشي حميدو خلف جنازة المعلم آرام، وتأنيب شديد أحسه حميدو إزاء تماثيل نحتها بيديه وكانت سبباً ووسيلة في إعدام معلمه، ساءت الأحوال وتصاعدت أعمدة دخان الأحزان في كل الأزوقة والشوارع، تكشف عن وجه بلاد ليس للإنسان فيها كرامة أو وزن، نظام البعث قوّض كل حركة وأربك كل فعالية للفرد، وجعل الحياة تراجيديا صامتة، أمام هذه التغييرات الجمة التي تعترض حياة الأفراد، تصبح الحياة في حد ذاتها كابوساً متنقلاً بين ساحات الأمل الهش، فما بين سعادة غائبة وتعاسة متثائبة يقف الألم، وتصبح الحياة أمواجاً ثكلى بأحزان البشر في بقاع كل ما فيها فجائع وأحلام منتهكة، فبرمجة الفرد على الخوف معناه أن يترسخ لديه الخضوع على نحو آلي ولا ينظر للأعلى، بل يجب أن ينشغل أبداً بلملمة نفسه وبقاياه بصورة نمطية ومتكررة، حيث تغذية الفرد على الخوف والألم يولد لديه دوماً رغبتين متناقضتين، إما الانتقام لحد أن ينقلب الضحية لوحش، يعيث الفساد في كل شيء ولا يتوانى عن نهش كل صالح وطالح ليغدو أنموذجاً عن الوحش الحديث الوليد من رحم الاستبداد، والرغبة الأخرى هو الميل للزهد والعيش في دوامة الاغتراب والشعور بالظلم لمدى طويل، وهنا يختار الفرد مازوشية حمقاء تحيطه وتكوي أعماقه على مراحل، فالخوف يسهم في إنشاء الفرد حسب مقاس السلطة ورغباتها في امتصاص الجرأة في ذوات الجماهير، واستفادة السلطة البعثية من وجود تابوهين عقيمين وهما الأصولية القومية المرتبطة بأصولية الإسلام السياسي في ذهن

ولاشعور الجماهير، جعل النظام القمعي سهل الجلوس والبقاء طويلاً، كون بديله يعني الفوضى والتشرذم والانقسام الطائفي والصراع العرقي لا محال، هكذا تعبث الأنظمة الشمولية في مستقبل شعوبها، بعد تشربها لإفلاسها، مما يجعل الغموض شبحاً يخيم على كافة مناحي الحياة، والتصدي لهذا الخوف والقمع المتصاعد غير جدير بالوقوف عنده، لضمور آليات المواجهة وكساد فكر دعاتها ومنظريها، خيار الانتحار أوضحه حليم يوسف، وكذلك لحظة خروج آلان من معتقله الغامض بغياب أو اختفاء سالار تلميذه وعاشق ابنته، شخوص محكومون بالخيبات، بين يد تبني تماثيلاً، وآخرون يموتون أو يخرجون بالمصادفة من قبورهم، لا قوانين منصفة، وإنما ثمة أشخاص مهيمنين على كل شيء، يشبهون الحيوانات في سحناتهم وأصواتهم، ينشرون العنف والفساد في كل الأرجاء، وقد اصطف السلطويون خلف المقدسات عبر التاريخ وقاموا بتحقيرها بمنهجية قادت الناس إلى المجهول، وجعلت الألسنة تكرر ما تريده السلطة البعثية، وحدث أن تم إخصاء الدين وتطويعه قومياً وحسب رغبات الحكم الفئوي ذي النزعة الطائفيَّة المقيتة.

يتحدث حليم يوسف في باب آخر عن تزييف السلطة البعثية للفن وتشويهها للنحت، ليقتصر ذلك الفن على نحت القائد، وبقاء تماثيله عثرة بوجه كل شيء جميل: „ كان قد بنى حياة كاملة في هذا المرسم بطريقة لم يتصور حميدو بأنها ستستمر من بعده، واستيقظت في روحه قوة خفية تجسدت على شكل وحش هائج، دخل إلى غرفة التماثيل وبدأ يمعن التحديق فيها وكأنها أجسام حية أمامه، يكرهها، يخافها، انتابه شعور أم تجاه أولادها الذين ولدوا نتيجة اغتصاب مستديم غطى على كل عمرها، الحب والكره خاضا صراعاً عنيفاً في داخله، الحب تجاه ما أنتجته يداه والكره تجاه رمز الخراب والخوف والأسى، هذا عدا عن تسببه المباشر في دفع معلمه وقدوته في الحياة إلى الانتحار والغياب الأبدي. „ فعلى الرغم من أن الفن يخوض مسلكاً مختلفاً عن

السياسة، إلا أن السلطة تضع يدها عليه بغية تحوير الذائقة والتحكم بالجمهور من خلالها، لكنه في الآن ذاته يستخدم على الطرف النقيض من أهواء السلطويين، ليعبر عن الصحوة والامتلاء بحب الحياة والذود عنها قدر المستطاع، حيث يعتبر الفن فرعاً من فروع التفكير ورفع المستوى الجمالي للحياة وفهماً مغايراً للوجود والإنسان، الحرب الجمالية ضد قوى التشويه مجدية ومهمة، إلا أنها معطوبة منذ البداية، حينما تحول النحت عن وظيفته إلى تمجيد للطغاة، لقد فهمت سطلة البعث خطورة الفن، فوضعت رقابة مركزة عليه، ولاحقت الفنانين واعتقلتهم وشردتهم، كون الفن من أدوات فهم الحياة والدفاع عن الإنسان.

لم يكن ثمة أدنى تعاقد مبني على احترام الفن ما بين سلطة البعث والفنانين، وإنما هنالك خوف ومحاولة الزج بالفن في الخصومات السياسية والأجندات الحزبوية، ليتقولب ويتعفن ويصبح نشازاً أو تفاهة، وقد بدأت صحوة حميدو من خلال كسره لتلك التماثيل التي نحتها بيديه، وهنا رمز الوحش الذي بداخله إلى الثورة ودك حصون المسترقين المعاصرين والخروج من سبات الخوف القهري، الذي أدى بالنفوس إلى ضياع وانفصال عن الواقع، إذ يدرك الفنان المتسامي بفنه أن ليس من عدو للفن إلا تلك السلطة الشمولية المتطية لكل جمال وإبداع، والتي أنشئت بدورها نظام العبودية الحديث واكتفت بتهديد دعاة التغيير والمبدعين، إما بمحاولات شرائهم واستعبادهم، أو من خلال زجهم بالمعتقلات وممارسة فنون التعذيب في حقهم، وهذا يؤلب الوحش الذي في الدواخل لينقض على العدو الأكبر للأصالة والفنون.

يسيطر الخطاب السلطوي المتعالي على ذائقة عموم الجماهير، ويطغى هذا الخطاب على كافة الأوساط والشرائح ليصبح وجه الحياة المعيشة، وقد فرضت السلطات قوانيناً أشبه بكوابيس القضاء على روح المجتمع ونهضة أفكاره، وهذه السلطة عدوة الأخلاق وحامية الفساد وصانعة الوحوش في المكامن، لهذا أحسن حليم

يوسف في تسمية روايته، لأنه يعي جيداً أن السلطة البعثية هي الوجه الواضح للوحش الذي سيدمر كل شيء، وستفتح الطريق نحو الشروخ والانقسامات الكبيرة داخل المجتمع المحتقن على مراحل، انحياز حميدو إلى السامي في الفن، مثّل ذلك الانتفاض والهيجان ضد كل ما يشوه الذات، ويقتلها جوهراً، وقد أراد التخلص من العدم وإبداء موقف بطولي ينتصر للأخلاق والواجب، فحين تبدأ المعاناة في طريقها للنفس، فإنها تترفع عن الإيذاء وعن كل مقيت وتتصرف بحكمة المتألم لتقتص الجميل في النفس.

وما الحرية سوى وحش أخرجته السلطة القامعة من نفوس معتقليها وجماهيرها الغاضبة، حيث تنطوي النفس الغاضبة على حرية وحشية تقتحم المسكوت عنه وتنفث من أحشاءها نيراناً حمراء تحرق كل شيء، وهذا ما ينبه إليه حليم يوسف في معرض هذا الجنون السلطوي في اقتلاع كل شيء في طريقه.

الوحش الذي بالداخل يرمز إلى الهدم كما إلى الخلق، ويمكن أن نصفها بالثورة التي تحتمل أيضاً المعنى الإيجابي والسلبي، ويحصد المجتمع ريع انتفاضته، ولا ضمانة من انتقال السلطة من حال لآخر إلا من خلال تحكم المعرفيات والمعرفيين بمفاصل الانتفاضة وإدارتها بما يخدم الأفكار الجديدة وتطويرها بالتزامن مع نبرة الرصاص أي الانتفاضة المسلحة: ,,تبلّد الإحساس بكل شيء وخاصة الزمن، لم يعد هناك معنىً لليل أو للنهار، لهذا الرقم من السنوات أو لتلك، فكلها سواء، ولطالما أنها تمضي متشابهة رتيبة، لا لون لها ولا طعم، لاشيء يمكن التخطيط له بين تلك الجدران، ولاشيء يمكنه أن يجلب الفرح طالما أن البقاء هناك بات قدراً، لذا فقد مرت تسع سنوات، عشر، إحدى عشر، لا أعلم!".

يتميز الحديث عن تجربة السجن بكونه حديثاً شفافاً مرهفاً ينمّ عن قدر هائل من المشاعر النفسية المختلطة، وتصوير الأدب لها يمثل في دلالته معلماً حياً على مواكبة الكاتب للحدث مهما بلغت حساسيته، فالتعبير عن محنة السجين مثّل غوصاً إيجابياً

في حياة الإنسان المقهور وتصوراته المليئة بالمغازي والكثير من العبر، لهذا وجب على المتتبع لحالة المعتقل أن يكون مرهفاً بما فيه الكفاية ومواكباً للتجربة بكل حيثياتها الداخلية النفسية، حيث عالم السجن المترامي بشحوبه انتقل إلى الورق ليتجسد كوجدان معطوب ومتألم حتى النخاع. يسلط حليم يوسف الضوء على سعي الجهاز الأمني المشرف على تعذيب المعتقلين إلى تحويلهم لوحوش يمكن استخدامهم فيما بعد وإفلاتهم ليمارسوا تشددهم الديني وليكونوا من كبار اللاعبين على الساحة المنتفضة على نظام الحكم، فتجسيد الممارسات إشارة إلى الغريزة السلطوية المباعدة بين الإنسان وإنسانيته، والمفسحة المجال للتوحش أن يتقمص داخل المرء ويستحوذ عليه، كما أن خروج هذا الوحش من الداخل هو مطلب النظام البعثي المستميت في البقاء حاكماً مطلقاً على جغرافية وطن مصطنع، نشأ وليد اتفاقية استعمارية بين الإنكليز والفرنسيين، فما ترسخ واقعاً إثر ذلك قاد إلى إيجاد تركيبة نظام سلطوي اتخذ البطش بلا حدود كوسيلة للبقاء والديمومة، فأمام ذلك الحيز الزمني الطويل والرتيب للمعتقل، فإنه يستحضر الكثير من الأحداث المتعلقة بماضيه بدقة لا متناهية، إلى جانب محاولته لتخيل ما سيكون مستقبلاً، حيث اعتمد نظام البعث على الاعتقال والمجازر في البقاء لغاية ذلك الانفجاز الحتمي، والذي انبثق عنه خراب آخر لا يقل إجراماً ووحشية عنه، أراد حليم يوسف التمعن فيه ليؤكد على فكرة رئيسة مفادها سعي النظام الأمني من خلال وحشيته إلى إخراج الوحش داخل معتقليه ومعارضيه ثم إفلاتهم ليمارسوا ذلك التوحش لاحقاً، الألم المدوي في أعماق الذات تحت رحمة الوقت الذي يمضي ببطء، زمن يتميز بفظاظته وصعوبة مروره كأنه وزن زائد، فالأفكار الناتجة عن فهم الحدث ومواكبته، تتميز بواقعيتها وقربها من النفس واستحواذها على الذهن بيسر وتشكل القاعدة الأساس لتبني فكرة أو رأي معين.

فهم الحدث لا يقدم فناً فحسب، إنما يساعد على فهم سلوكيات النفس البشرية ويعمد لاكتشاف التفاصيل المتعلقة بصناعة الخوف والنظام السلطوي الذي فهم تاريخياً أن السبيل لبقاءه هو الإمعان أكثر في البطش والإيذاء، ذلك ينقلنا للتاريخ الذي يعكس جملة من الحوادث المتعلقة بطبيعة الصراع الذي يواجه السلطة الاستبدادية كل حقبة، وأدوار الفرد في خضم الإضطرابات الناشة عن ذلك الاحتكاك والتصادم المؤلم.

◆ سلطة البعث وحربها ضد الإنسان:

إنها تنتقم إن ناهضتها فئة أو جماعة أو فرد وتجيد اقتناص الإنسان المناهض في الصميم، ولا تدخر جهداً في أن تخلق منه فتات لحم متطاير إثر سياط ملتهبة تدع خطوطها على الجسد عميقاً، لتموت العملية السياسية لصالح تشعب الخوف وتغوله، أجادت الرواية التعبير عن مخرجات الوجدان الإنساني الواقف أمام التعذيب والتغييب، تود السلطة إيجاد الفرد المنطوي العصبي النرجسي الغارق في عيشه مع نفسه ومعاناته داخل المعتقل، تريد فرداً يائساً محبطاً بعيداً عن السياسة، وقد نجحت سلطة الأسد الأب والإبن في خلق هذا الأنموذج بالتقادم والتدرج، فها هو سالار يلتحق بركب آلان في المكوث معتقلاً، ليقضي حقبة الموت الذي يتخلله الوجع والانتهاك للوجدان والكرامة، وقد استطاعت سلطة البعث السوري كما العراقي الامتطاء على البشر على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم، ونجحت في تفتيت المجتمع وتأليب بعضه على بعض، فكان ما يسمى الوطن معتقلاً كبيراً يتزاحمه الخوف، إلى أن غاص في مستنقع الفوضى اللامنتهية والذي عرف بالربيع الدموي، التوحش الذي تعتني به السلطة الفئوية داخل معتقلاتها ظاهرة ليست بجديدة تاريخياً، لكن يتم تطويرها مع الزمن عبر ابتداع أساليب التعذيب لحصد ردة الفعل ضمن إطار ممنهج يخدم السلطة نفسها لمواجهة خصومها الألداء، حيث إطلاق سراح الإسلاميين من السجون والمعتقلات أجهز على تلك الهبة الشعبية من بداياتها، عبر شعار الله أكبر وانطلاقة

الجموع المنتفضة من المساجد في كل جمعة، لم يكن ذلك محض مصادفة، وإنما خطة تم الإعداد لها بغية وأد الحراك وإخصاءه، أشار لها حليم يوسف في روايته: „اشتعلت الحروب الصغيرة في كل زاوية من زوايا البلاد، وكشرت الوحوش عن أنيابها وتسابقت على نهش أجساد من تبقى من البشر، وأبدعت الوحوش في أساليب تعذيب خصومها وقتلهم بطرق مبتكرة، وعلقت الرؤوس البشرية على عواميد أسيجة المدن وغطت مناظر الصلب والذبح وسلخ الجلد على المشهد، بدأ بعضهم يتحدث عن بطولات أجدادهم الذين كانوا يطبخون رؤوس أعدائهم ويأكلونها، فأكلوا هم أيضاً أكباد البشر وقلوبهم أمام عدسات الكاميرا".

"أيضاً أكباد البشر وقلوبهم أمام عدسات الكاميرا

فالهتاف العكسري الذي كنا نردده في معسكرات الصاعقة يثير الانتباه ويتعلق بتمجيد الرئيس على وجه الخصوص لنتأمل هذا الهتاف الهستيري: نار نار نار """كلنا ثوار نفدي الوطن """"" نفدي العلم """ نفدي الفريق بشار سوري سوري سوري „ """الجيش العربي السوري """ أسود وحوش """"" بشار بشار بعث

في هذا الهتاف نجد أن بناء الإنسان يعتمد على التوحش واتخاذ الوطن وثناً، وكذلك اعتبار الوطن وشخص القائد على ذات المرتبة، والتي يجدر على الجنود أن يفتدوه بأرواحهم، وكذلك فإن هوية الجيش عربية صرفة، وتابعة تماماً لحزب البعث العائد لشخص واحد يحتكر الدولة والمجتمع، وكل شيء، فعلى الجندي أن يتوحش وأن يكون أسداً ولاشيء خارج هذا الشعار يعنيه، تربية الجند على أن يكونوا وحوشاً هو جزء متمم من التوحش المنهج الذي يستخدم بوصفه وسيلة لتعطيل القيم وترسيخ سلطة البعث المتمثلة بسلطة القائد الرمز، وبقاءه في الحكم، أمثلة العنف تم استجلابها من الكتب المقدسة التي تصف الحوادث المتعلقة بمراحل نشوء الدين وترسيخه سياسياً، والظروف التي دعت لتبلور ذلك حياتياً، حيث عقل الفرد معبأ بمواد الانفجار على

الصـعيد الأسـري والتعليمي، وكذلك عبر اختلاطه بالآخرين، ومن الطبيعي أن تنتهز السلطة السياسية ذلك وتستعمل العنف عبر إدخاله في المنهاج التربوي التعليمي الذي تلقفه الطلبة منذ ذهابهم للمدرسة وانخراطهم في التربية والتعليم، لقد حمى النظام البعثـي نفسـه حين أخرج الإسـلاميين من المعتقـلات، ليتم بواسـطتهم تدمير الثورة وإزاحـة ذوي الكفاءات القادرين على تحريك الشـارع والرأي العام، واسـتفاد بشـكل أو بآخر من صـعود الإسلام السياسـي في تركيا، والذي سخر هذا الأخير الإسلاميين لبلـوغ غاياته في الدخول للملف السـوري واسـتخدام الجماعات الإسـلامية كوسـيلة للهيمنـة، وكذلك فعلت إيـران عبر تجنيدها للجماعات الشـيعية، وهكذا بدا التوحش عباءة إسلامية طائفية مشبعة بأسباب الحقد والكراهية، فباسم إسقاط النظام جرى إسقاط الشـعوب وقصـف منازلها وقطع رؤوس الناس تحت مسميات وذرائع عديدة، لهذا باتت الأصولية الإسلامية بمثابة الوحش المعاصر الذي يبقي على الاستبداد لأمد أطول، لقد تم تغذيته بأصـول القتل التاريخية وتطعيمه بالكثير من الأساليب الحديثة للإرهاب، لأن ذلك يسهم في الإبقاء على الهيمنة الأحادية على العالم، وكذلك التدخل بمصـائر الدول من خلال يافطة مكافحة الإرهاب الإسلامي، حيث يتعارض الإرهاب مع الأخلاق والقانون، يتعارض مع الحرية والديمقراطية وينتصـر للفسـاد، لكونه من مفـرزات التفتيت الروحي للمجتمع، فالمفردات النابية والقاسـية المحاصـرة للمعتقل السياسـي تتعارض مـع القيم والوجدان الإنسـاني، وتخلـق مآس فردية تظـل آثارها زمنـاً داخل الإنسـان، هذا التدمير المعنوي لابد وأن يقـود عبر مراحل لفقدان الحرية والكرامة، فقد تم الإطاحة بالله تحت بند نشـر شـريعة الإسـلام بالقوة، وتم الإطاحة بالقانون عبر الدعوة لإسـقاط النظام السياسي، إذ لا تتلخص الثورة بردة الفعل إزاء ممارسـات سـلطة معنية وإنما هي مجموع إرادات وأفكار تسـعى للولوج داخل المجتمع المقموع لتكون نواة للتغيير وليس مجرد تصـفيات حسـاب سـلطوية بين طرف يسـعى

للهيمنة على السلطة وهدفه إسقاطها واستبدالها بسلطة لا تختلف عنها، إن تلخيص الثورة بتبديل هرم السلطة بآخر هو تحوير فظيع للحقيقة الاجتماعية ومحاولة خبيثة للقفز على أحلام الناس في العدالة الاجتماعية والتحول الديمقراطي، هذه الإستماتة في الوصول للسلطة دون التغيير في بنيتها، جعل الفساد الاجتماعي ينمو ويزداد بإطراد على حساب مكافحة النخبة الواعية الباحثة عن سبيل للتغيير الجوهري وإيجاد مشاريع تنموية قادرة على تبديل الواقع القائم بخلق واقع أفضل، بيد أن الخراب الذي عمّ في كل مكان والتراجع الاقتصادي ودمار البنية التحتيَّة حال دون بلوغ الهدف المبتغى.

التبحر في الحديث عما يدور في أروقة المعتقلات يمثل نقطة الركون في متاهة الوجدان الفني ومدى ارتباط الفن بالمأساة، لاسيَّما أنها تعمد إلى الكشف عن مصادر القلق لدى المرء من المجهول، والغد الذي يوقظ في المرء شهوة التساؤل، حيث تجربة السجن توقظ لدى سالار الرغبة في الصراخ والتعانق مع الحرية من خلال ذلك الخروج المتوثب من الزنزانة للحياة حيث الناس والشوارع الواسعة وصوت الأزقة وما يعتلي ذلك من ضجيج وحياة تبعث على التدبر والخلو إلى النفس واستحضار صور ومشاهد تختزل الماضي بدقائق، الماضي الذي لا ينفك عن حياة المرء، بخاصة الحالمين، ممن يتدفقون أحاسيساً ومعاناة، ويلتزمون بمبدأ الذود عن أنفسهم مقابل هذه القتامة التي تترصد حياتهم بكامل لحظاتها، حيث يقدم الفن تلك العلائق اليسيرة بين الأحداث المعتمة والقيمة التي تتوارى وراءها وهي تتعلق تماماً بالإرادة ومعنى الغوص في الآلام لصناعة الجمال، لعل الاعتقال كحدث روائي يستدعي الإنفجار الإبداعي الناجم عن معاناة تحيط تواريخ الألم وتقدم تفاصيل تبحر المدرك للكون في عتمة الإنزواء في سجون القهر، فمع بروز القهر السلطوي تستمد الرواية الإنسانية قوتها حسب درجة إدراك الفرد لهول البؤس ومساعيه لدفعها بالقوة ذاتها، ولكن على نحو مغاير ومتحد بالفن وجمالياته، فهذا الصراع العقيم بين قوى السلطة القائمة والمناهضة، جعل

المجتمع في حالة من استنفار وتأهب ذهنية، وقاده لميادين الاحتقان ليكون الضحية أبداً، وهذا ما عمق ذائقة الأديب وجعلها هاوية لرصد الفجائع والإلمام بها وتداعياتها، إذ يعتمد المبدع على الذاكرة وكذلك التماهي بالتجارب المعيشة والمفصحة عن تجربة المجتمع في ظل تقهقر النظام الاستبدادي وإرهاصاته، حيث يقدم الاعتقال تجربة مهمة للمعتقل، وتجعله يمعن في الحياة من زاويتها الحادة المتعلقة بالألم، مفصحاً عن استماتة السلطة الشمولية في قتل الإنسان وتدميره بشمولية دون رحمة، إمعاناً في تدمير الحياة دون هوادة، وكذلك طمس معالم الصفح والنظر للاعتقال السياسي بكونه أحد المعرقلات الكبيرة الحائلة أمام نهضة المجتمع ومساره نحو الديمقراطية، إذ يتحول كل شيء لغبار ودخان متصاعد إزاء اختناق الكون وحصار النفس الحالمة وتخريب الملكات.

يتدرج حليم يوسف في الصفحات الأخيرة من روايته في الحديث عن مآلات الأحداث في غربي كردستان، بنشوء قوات الحماية الشعبية التي أخذت تسيطر على الوضع هناك، وتنشأ نظاماً وبنية تنظيمية ثابتة أخذت زمام الصعود رويداً رويداً، فحميدو هنا يستشرف عبر منحوتاته ظهور وحوش متعددة الوجوه، مختلفة الأحجام، ستسود الحياة عند نشوب حرب ضروس تدمر كل شيء، أما عن سليمو فقد انصرف هو الآخر نحو الإعتكاف وقراءة القرآن، وباتت هيئته غير مألوفة:„ كدت أموت من الضحك عندما كنت أقارن بين سليمو الغارق في دخان كثيف على الدوام في المرسم آنذاك، وبين سليمو الإمام الذي يعتلي المنبر ويحض المصلين على الجهاد" ونجد هنا في الصفحة التالية، يستكمل حليم يوسف دلالة تصرفات سليمو وتطوارتها:" كان سليمو يقود في تلك المنطقة تنظيماً ملتحياً يتسابق الجهاديون من كل أصقاع العالم على الإلتحاق به وقطع مئات الآلاف من الكيلومترات لخوض تجربة الذبح وسلخ الجلود البشرية وقطع الرؤوس، كثيرون منهم أصابهم الجنون وهم في طريقهم إلى

أرض المعركة، وقد تضخمت أجسادهم وتحولوا إلى وحوش مهيأة للانقضاض على كل من يقف في طريقهم" هنا يتحدث الكاتب عن التوحش المتبادل، حيث القتل والموت والدفاع عن البقاء، وهو في دلالته الحية والبعيدة توحش متبادل وصراع محتدم، حيث القوة تستوجب ذات القوة في ردعها ولجمها، وهكذا يسود العنف العالم الداخلي للمجتمع وتواكبه الرواية التي تستشف حياة بمنتهى الضجيج والقسوة، إذ يهتم الكاتب بالمجمل بحياة الشخوص ومآلاتهم، لكنه يحتفي أكثر ببطل الرواية من الناحية الوجدانية وينحاز لها، إذ يواكب ذلك الحدث الوجداني المتعلق بعلاقة الرجل والمرأة وتلك الظروف القاسية المحبطة لعلاقتهما مع مرور الزمن، يعود بنا إلى علاقة الحب بين سالار ومريم، وكذلك سعي سالار للبحث عن أخبار حبيبته المتزوجة والمهاجرة إلى ألمانيا، نلحظ تتبع الكاتب لظاهر وباطن تلك العلاقة بما تحمل من أحزان وخيبات نفسية، لعل استقصاء اللغة الدرامية هنا بالأمر الماتع والمليء بالأسرار الفنية والتي لا تنوء الرواية عن حمل مقاليدها، هذه اللغة الموغلة في قلب المغترب عن عالمه وكونه ومجتمعه، وهذا العبء الجغرافي الذي يحمله الإنسان الكردي جزء من أزمة سلطوية متفاقمة في عموم الشرق الأوسط الرازح تحت هيمنة السلطات القومية والمذهبية، وقد تقصَّد حليم يوسف إيجاد حب في المقبرة، حب يموت في بدءه ويتعفن في نهايته، ليغدو مصدراً للمشاعر المتناقضة والتي يسودها نقيض من الشوق والألم والغضب:" فتحت الصندوق، بدت الأوراق قديمة، مصفرة مهلهلة كروحي، لفتت نظري ورقة صغيرة كانت لا تزال تحتفظ بنضارتها، كانت مريم قد خطت عليها جملة وحيدة يتيمة: "أحببتك كما لم تحب امرأة رجلاً من قبل ,, تحركت في صدري مشاعر مختلطة، هي مزيج من الغضب والحزن والخيبة والفرح، سررت بهذا الإعتراف الصريح وأحزنني الشك بمدى صدقها في هذا القول، قفز إلى مخيلتي هذا السؤال: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تنتظر عودتي".

يبقى الحب حاضـراً وشريكاً في لعبة البناء والهدم، فالرواية الواقعية لا تنفك عن الرومانسـية والذاتية ولا تسـتطيع لجم ذاتها حينما يكون التعبير عن الوجدان عارماً، وبطريقـة ذكية يتـم الولوج لعـالم الأفكار والتـزاوج ما بين الحسـي والمعنوي لتركيب العـالم بفنية، تمزج ما بين الواقع والخيـال، لتحقيق قدر بالغ من التأثير على القارئ، ليكتشـف الحياة في قالب فني، ذلـك الاقتران الماتع ما بين اللغـة الوجدانية والفكرية للكاتـب يسـهل الطريق للمتتبـع والمنقب للإحاطة بجوانـب الرواية ويدفعه للتسـاؤل، فكل التحولات التي يعيشـها سـالار بعد خروجه من السـجن باتت تنصب ضمن دائرة تحوش الناس واغترابهم عن حقيقتهم الاجتماعية شيئاً فشيئاً، لقد أراد الكاتب نهاية تراجيدية لروايته شـبيهة بأحـداث ما بعد 2011 وما تلتها من قصـص مفجعة، إذ تغير شـكل النـاس وتغيرت نظرتهم للواقـع، اختلفت الحياة واختلطـت عبرات الناس وتقاسيم وجوههم بشـحوب الحدث، ودائرة الاغتراب النفسي اتسعت وتشعبت وقللت بذلك من فرص العثور على السعادة والطمأنينة.

فلسفة الوجع في رواية
الطيران بأجنحة متكسرة

تمهيد:

ليس سلوك المرء انتهاج فهم الألم وتعريته مبنياً على رغبة ذاتية يميل لها ذوق وخيال المبدع أو الحالم، فيلسوفاً كان أم فناناً، وإنما لصوق الفرد بمعاناته المقترنة بالجماعة ألزمه قسراً للتحليق في متن الألم، من هنا فالرواية باتت تتصدر العناوين المتحدثة عن وحدة مصير المجتمعات أمام محاولات إبادتها وطمس هويتها، وقد سلك حليم يوسف دور المتصدي لتلك الهجمة التاريخية التي يتعرض لها الكرد، فأخذ ينقب عن مشهديات الوجع، مستمداً رؤيته من الحوادث الإنسانية المشبعة بالتساؤلات وخيارات الذود عن الذات ، إذ نحن أمام رواية توثق حقيقة الجرح والصمود بوجه مسبباته، فتجسيد البطولات الفردية يعدّ عملاً ذو خصوصية، تؤسس للغة روائية كرديَّة تدوَّن مسيرة شعب نابض بالحياة على جغرافية تم تهميشها وطمسها، رقعة مناوئة لحدود ملغمة يتخللها وجع كثيف تعد منبعاً ثراً للرواية الوطنية التي ترصد ثقافة وآمال شعوب بوسائل عديدة، منها السلاح والإعلام وليس آخرها القلم، ففي ذروة الحروب يتنامى دور الحب في المسير بمناوئة الموت والخراب الحاصل، وكاميرا التشخيص الأدبي والفني تجوب معها، كي تحقق في آليات نكران الفرد العاشق للوجع الكامن راصدةً ذلك عن قرب، فالآلام المدوية في زمن الحروب تحتاج فناً كالرواية لفهمها واحتواءها، كون الرواية تمتلك رؤية خاصة في فهم الحوادث الوجدانية، ولأنَّ الوجدان يحيد عن الموضوعية ولا يستطيع إلا أن يعبر عن حالات الفرد وذاتيته المفرطة، لهذا فللفن نزوع خاص لفهم الوجود مغاير للفلسفة، ولعلها في ذاتها فلسفة تغوص وتجسد، تغرق في سردية الشقاء، وليس هدفها فقط إثارة العواطف، وإنما فهم

ما تسـقطه الحوادث المؤلمة على النفسـية الاجتماعية، إنه ذلك الصـراع الضاري بين التعلق والفراق، بين التطرف الديني والحب العميق، بين التشـبث بالأرض ومغادرتها، إننـا أمام ثنائيات متقابلة أخرجتها الحرب الأهلية السـورية مـن دفتيها، حيث القلق وتفاصـيل الموت اليومية، صـراع نفسي يعيشه الفرد، يقاسـي محنة الخوف، ويحيطه مـن كل جانب غريزة البقاء والدفاع عنها بوسـائل بدائية كامنة في تحديق الفرد بمن يتعلق بهم ويخاف ألا يراهم، روائح الفناء المنبعثة من المكان، تليها احتمالات الهزيمة والانكسـار ومقابلهـا مشـاعر تتعلق بالتحفيـز والنصـر المحقق، فالألم خبـز الوطن المغتصب وشراب المجتمع.

إن الـذات تبـذل مجهوداً في ظـل الحرب كي تنهضـ بأعباءهـا وأثقالها وتتخطى الاكتئاب، لكنها ما تلبث أن تصـطدم مراراً بصـخرة العائـق، غريزة البقاء المدافعة عن نفسها، والحديث عنها شجي في فن الرواية ومثير كلوحة درامية تستدعي تساؤلات الفرد ورؤاه الفكرية في فهم العالم المحتقن، فالموت حدث مؤثر في صناعة الفن وعنصر حيـوي يدفع الفـرد لبذل مجهود بغية فهم مـا يدور في الحياة من صـراعات ومنافع، وبالتمعن في عنوان الرواية نجدها مؤلفة من الطيران، والإنكسـار، رغبة وعائق، حلم الطـيران وتحقيـق الحرية، مقابل الألم الفاقـع الظاهر بفجاجة أمـام الأعين وطريق الساعين للحياة، أما الإصرار على الطيران بالرغم من أن تلك الأجنحة متكسرة، فذا يـدل على غلبة العنـاد والإرادة الحية على المعاناة الكبيرة، وكذلـك إيحاء آخر يقودنا لفهم حقيقة مجموعة من الناس لا تمتلك تلك الإمكانيات التي تؤهلها لعيش الحياة ولا تختار خيار الإستسلام بل المواجهة لانتزاع حقوقها في العيش الطبيعي.

في ظل أجواء الحرب ومناخـات الموت الكثيفة تأتي الرواية لتتناول حوادث الأفراد مستقصيةً الإثارة في الألم، وفهم رواية تتحدث عن صراع الحب مع الموت، مع التطرف، ورائحة الفناء السـارية في الأرجاء، يكون الموقف النفسـي ها هنا متوتر وقلق، وكذلك

موغـل في ارتباطه بالأرض والمرأة، رودي هنا مثال الحالم المتوقد حماسـة وحب، وهو الراوي لحقيقة ما سيجري، ومن ثم سيكون أحد الضحايا الذين اصطادهم الموت، لذا يوغل الكاتب هنا بشـجن في تناول هذا الحدث الذي تنعقد خلاله الألسـنة والأذهان، ففهم النفس الإنسانية نابع عن مدى تمترسها بحب الحياة والالتحام الشديد بالرغبات والعواطف والطموحات الإنسانية، ولعل حقيقة الصراع القائمة ترسخ مفهوم الأضداد القائـم على إحقاق حق الحيـاة كبديل عن ثقافة الموت والتطـرف الديني، وأهم ثيمة لاسـتمرار ذلك الصراع هو عشـق الأرض وتمثلها في العاطفة والوجدان الذاتي من ثم العـام كقيمـة جمعية، بعيداً عما تقوله الإيديولوجيات السياسـية، وإنما بغية تأسـيس وعي إنساني، لذا فلزام على المبدع أن يخاطب الأذواق المختلفة بنداء الوجدان الواعي، وليس بما تقوله الخطابات السياسية التدجينية.

إن جملة المؤثرات اللغوية الإنسـانية في حقيقتها تذهب لحل مشـكلة الوجود، ولعل مأسـاة الفرد في تصـور الأديب، أو المفكر، تذهب إلى أبعد من أن تكون مجرد حدث، فكثيراً ما تكتظ الكوميديا بالمأسـاة، وكثيراً ما تذهب الرواية منحى أرشفة آلام الفرد والمجموع انطلاقاً من وعي الفرد المبدع لدواعي الألم ومسبباته، فالابتكار ثورة معرفية وسـبيل لمعالجة المشـكلات الإنسـانية المستعصـية على الفهم للوهلة الأولى، فنظرتنا للكوميديا أنها مزيج مركبات شـعورية من سـخرية وتهكم وألم وغضب، يجعلنا ندرك أنها آلية نقدية لمعالجة كل رواسـب الحياة وتصـدعاتها، فليسـت الشتائم إلا ردة فعل نفسـية نابعة عن طغيان جانب الغضـب والحيرة في شخصـية الفـرد، لنذهب لعوالم الروايـة التي تعالـج آمال وآلام المجتمـع ، نراها تقوم بتكوين الوعـي الثقافي الجديد للـذات المنتهكـة، أكـثر من كونها عين راصـدة، فالكاتـب هنا يوثـق روح الأمة ووعيها القومي من خلال دراما الواقع المتجسد كرواية، انطلاقاً من مسؤولية القلم في مواجهة كل ما يتصـل بالإبادة الثقافية ومحو الهويات المقاومة للصـهر والانقراض، ولتشـكيل

وعي الأمة تذهب الرواية أبعد كي تحرك خيال وفكر المتلقي، لتأكيد حقيقة ذلك النفور بما فيه من إرهاصات ومخاضات جمة.

ليس نقل الواقع كما هو من عمل الروائي هنا، وإنما المهمة الأكثر تعقيداً ومسؤولية بهذا الصدد هو تجلي كل حدث بمظهر فني وفكري يخوض عميقاً في أزمات الإنسان ويلقي ضوءاً هائلاً على مسيرة الصمود والتحرر في كردستان الغربية ما بعد 2011 وصعود موجة ما يسمى بالربيع العربي الذي أحال المنطقة إلى خريف لا ينتهي، ليس ثمة نقل تسجيلي للأحداث، إنما هناك استعانة ذكية بها لتمرير الأفكار الإيجابية المنعشة لروح المتلقي الشرق أوسطي عموماً والكردي خصوصاً، فتوثيق الدفاع عن هوية الوطن والمرأة أساس ارتكازي لرواية تحمل في معالمها سمات النهضة الكردية من أوحال وأخاديد السبات والخضوع والاستلاب، حيث ارتباط تلك الهوية بالتاريخ القائم على الركون للأصالة والتجذر كوسيلة للتشبث بالحقوق المسلوبة، فالمذبحة التي شهدتها مدينة كوباني خلفت ورائها العديد من الضحايا والآثار النفسية الصادمة التي تأثر بها الروائي، لاسيما وأنه كان على تواصل مع ضحاياها قبل أن يلقوا حتفهم ويصبحوا شخوصاً رئيسيين في روايته، ومما لاشك فيه، فإن تجسيد المأساة وتوثيق الحدث لأخذ العبر منها يعتبر رسالة قيمة على ضوء ما ينشده الإيمان بقضايا الأرض، فكان لهذه الرواية دوراً في الحديث عن اتحاد الكردي بأرضه وعشقه، إذ لم تلعب على الوتر الإيديولوجي ولم تتطرق لذلك بتاتاً، وإنما انحازت للإنسان الضحية، وقد ربط بين ضحية اليوم وضحية الأمس على نحو يبعث على اليقظة بالآلام التي ما برحت ذهن المجتمع الكردي ماضياً وحاضراً، هنا الرواية تترفع عن كونها مجرد شجون خاصة بالكاتب، وإنما راحت تلامس الوجدان الجمعي على نحو يبعث على التساؤل وكذلك الرسوخ في حالة الإيمان بالانتصار على ما من شأنه أن يقف في وجه الإنسان العاشق والمفكر المتطلع للسلام والخلاص، فهنا رودي يتحدث: "إحساسي

قـال لي، أن زلزالاً قوياً سـيحدث في هـذا الوطن، زلزالٌ ليس كتونس، ليبيا، ومصـر، وليـس ربيعـاً كربيعهم، من جهات الدنيا الأربع تكالب علينا أصـحاب الرايات السـود وأخذوا أماكنهم حول كوباني، تم التطرق لنوع مختلف من الكائنات، لم يكونوا بشـراً كونهم كانوا يقطعون رؤوس البشـر، ولم يكونوا طيوراً وحيوانات، فلم يكن لهم أجنحة أو ذيولاً، البعض قال أنهم نوع من الطيور أشـبه بالغربان، إلا أنهم كانوا غرباناً هرمة وأعمارهم تناهز ألفاً وأربعمائة عام، وعملهم تدمير وأكل لحوم البشـر، والبعض قال عنهم أنهم جند الله وعملهم هداية الناس إلى دين الإسـلام الصـحيح، من انكلترا، ألمانيـا، بلجيكا، فرنسـا، هولندا، اسـتراليا، كندا، وأمريكا مـروراً بتونس والجزائر، المغرب، مصـر، الأردن، ليبيا، الصين، الشيشان، أوزبكستان، أخذوا يمهرون جوازات سفرهم في مطارات البلدان المجاورة قبل دخولهم أفواجاً إلى المدن الحدودية".

بهـذا المعنى مـن الألم والتبصـر بفداحة الخـراب، أراد حليم يوسـف أن يخوض مغامرة السـعي لفهم الإنسـان الكردي في خضم تحديه لأشـكال البلاء والموت، فنجد تجسيداً لقوافل المتربصين بالحياة تأتي من كل حدب وصوب لتقتلع الحضارة، ولتفتك بكل ما هو حي ونقي، تلك ثنائيات الأضـداد، فالحب وجد ليذود عن نفسـه في حياض الحرب، وكذلك الدمقرطة جاءت لتكون مناهضـة للاسـتبداد والتطرف والعودة إلى الهمجيَّة البدائيَّة.

اسـتطاع الكرد في غربي كردسـتان (سـوريا) وجنوبها (العراق) تحقيق النصـر علـى داعش بمـؤازرة التحالف الدولي عـبر تغطيتها الجويـة وضـربها لمواقع داعش وطـرق إمداداته، بالتزامـن مع تقدم القوات، ولابد بعد النصـر العسـكري أن يتعزز ذلك معنوياً داخل الناس، لذا تلعب الرواية دوراً في ترسـيخ المنجز العسكري كي يتوثق أدبياً ويصـبح أحد القرائن الهامة في ذود الإنسـان عن نفسـه، ومـا كان ذلك لينجح لولا الحافز المعرفي المتجسـد بوعي المقاتلين بسـلبيات التطـرف ونتائجه الكارثية على

الإنسان وحياته، هذا الوعي الدال على كفاح المعرفيين الشاق في سبيل المعرفة والحياة والإعمار، مقابل قوى تعمل على التدمير والقتل بلا هوادة، حيث صياغة بطولات الأفراد روائياً يمثل تعزيزاً لروح الأمة الساعية لخلاصها وتحررها من التبعية للنظم القمعية المستعمرة، إذ يعد التطرف بشكل عام وبالاً على الفكر، المجتمع والجيل الناشئ، ومعادياً لكل نهضة اجتماعية معرفية صحيحة، فكان لابد من تعرية المقدس وفهمه جيداً ومناقشته بطرائق أخرى، إحداها اللجوء للرواية لما فيها من آليات شفافة ومرنة قادرة على الإيغال في النفوس والأذهان، وتحطيم ما في العقول من أوثان، كي يتم وضع قضية الخلاص المعنوية للفرد على قائمة القضايا الإجتماعية، فما الحروب والنزاعات الدينية الطائفية إلا وسيلة لقهر المجتمع واستنزافه، وهذا يدخل في سياق تجهيل الفرد، والآليات الدينية تسهم بسلاسة في تعميق الهوة بين المجتمع والقراءة في مختلف الإتجاهات الفكرية، وأحد الأسباب المعطلة لمكافحة التطرف الديني فكرياً هو سعي الجهات السياسية الدولية في استخدام الجهاديين كورقة ضغط على بعض الدول والجهات السياسية المتصارعة معها، وبذلك تتجاهل الاهتمام بالمكافحة الفكرية للتطرف، كونها ترى الأولوية في مصالحها ومنافعها، فضراوة الصراع هو نتيجة عن تواطؤ دولي واضح في مكافحة الإرهاب الجهادي، حيث لم تلقى مكافحة الإرهاب فكرياً أي اهتمام ، فباتت شعوب الشرق الأوسط من ضحايا هذا الإرهاب، وطغت لغة المصالح الاحتكارية لدرجة تواطؤها مع الإرهاب ذاته، فليس الإرهاب حكراً على جماعات معينة بحد ذاتها وإنما تمارسه دول ترعى الإرهاب.

◆ **الإرادة المجتمعية في مواجهة الإرهاب:**

يولي الكاتب الاهتمام هنا لموضوع التطرف الديني وتبعاته الكارثية على المجتمعات، فنيرانها تتسع وتتشعب تبعاً لحاجات الدول الإقليمية للإسلام السياسي، فالتعصب الديني المذهبي سريع الولوج للمجتمعات التي تعرضت للعنف الدولتي، فالأنظمة القمعية تهدد دوماً بأن بديلها هم الإخوان وتشكيلاتها المنتمية لجوهر فكر القاعدة، يُظهر الكاتب جانب المأساة الصادمة في حيثيات أحداث الرواية، ليؤكد على أهمية التآلف الاجتماعي، والصمود بوجه الملمات، والظهور بمظهر المتسلح بالحب والإيمان بالأرض، فتفشي التطرف الديني تلا إرهاب الدولة بحق المواطنين، مما يشهد في كثير من الأحيان تواطئ الدول القمعية الإقليمية في دعم التطرف الديني لأغراضها المتعددة، إذ ثمة صلة طبيعية بين إرهاب الدولة الذي يفسح المجال لفوضى حروب أهلية تسهم في تدفق الإرهابيين وكذلك السلاح، كما في أفغانستان والعراق، وأخيراً اليمن وسوريا، فالمدن المدمرة، غياب الأمان وموت الشباب، كذلك تجنيد القاصرين ، كل تلك الأوبئة الناتجة عن الحروب الداخلية، تنتج عنها روايات لا تنتهي تتميز بمأساتها وشجونها، شرعنة الجنون كامنة في حقيقة التنظيمات المتخذة للمقدس ذريعة للتمدد والاتساع، مستفيدة من كم التجهيل الذي رعته النظم القمعية طيلة عقود متتالية من الإنقلابات العسكرية وحالات عدم الاستقرار التي رافقت القمع السلطوي وفياب العدالة والقانون، وتحول الوطن لساحة فوضى يتقاسم مساراتها المسؤولون ورجال الأمن والمخابرات، في ضرب الإستقرار النفسي للفرد وخنق الأصوات المطالبة بالتغيير ورفع الطوارئ والأحكام العرفية، الأمر الذي ولّد احتقاناً شعبياً وتجهيلاً حقيقياً اتسع بتفاقم الفقر والبطالة وانتشار الفساد والمحسوبيات وتسلط العادات والتقاليد الذكورية، لقد مر حليم يوسف في معالجة تلك القضايا عبر رواياته الأولى

وانتهـاء بالروايـة التي أمامنـا، فنتيجة كل ذلك هو ما نراه الآن من إمعان في تصـوير النأساة المجتمعيَّة.

يعود رودي لاسـتعراض المشهد السياسي منذ بدايات الأحداث والحرب الأهلية في 2011، حين انسحبت القوات الحكومية من المناطق الكوردستانية في شمال سوريا، متوجهـة للمـدن الكبيرة ذات الثقل، حيث بدأ سـكانها بملء الفـراغ حينذاك وتنظيم أنفسـهم من خلال قيام حزب الاتحاد الديمقراطي بتأسـيس مؤسسـات أشـبه بنواة دولـة، وهكـذا وفي غمرة تلك النزاعات الوحشـية تارة بين النظام والمعارضـة، أو بين فصـائل المعارضـة نفسـها، ناهيك عن وجود فصـائل متسـلحة بفكر تنظيم الإخوان المسلمين السلفي، فأمام مسرح الأحداث المتلاطمة، يروي رودي قصة حبه ونموها مع بروين، هذا التدرج الدرامي يتميز بشـجونه وواقعيته وبسـاطة لغة الكاتب بدت أقرب هنا للروح الشـعبية المواكبة لتلك الحداث حينذاك فلسـان حال رودي يسـتولي عليه القلق والأمل والفضـول لما ستؤول إليه تلك الأحداث والمتغيرات المتسارعة، المشهد بالغ التعقيـد وحرائق النفس المنتهكة تسـتعر، ومقابل ذلك فاتـورة الدم، لابد من أن تدفع والأقلام تحدق بذهول وتواظب على الكتابة وتوثيق ما جرىن أما النقد فغارق ومتورط بمآسي المجتمع ورؤى المبدعين الحالمين بالأفضل على جميع الصعد، فما يتم نقله على ألسـنة الناس كفيل بأن يخدش ذات الروائي ليدفعه لصـياغة ذلك فنياً، لاسـيما وأن الموقـف هنا يتمايز بحساسـيته وخصوصـيته على الذات المتلقية لمآسـي الغير، وذلك الغـير يتميـز بحساسـيته و خصوصـيته على الذات الأخـرى، وتلك الـذات المتحدثة سرعان ما تنتقل إلى عالم الموتى، ليصبح تأثيره على الكاتب أقسى وقعاً، فالحديث عن حدث مفهم بالدلالات والمعاني الإنسانية، حدث مواجهة الموت والتماهي مع المتغيرات، فالمنطرفـون وإن أدركـوا انحسـارهم قريبـاً إلا أنهم لا يتراجعون عـن قتلهم وبترهم للرؤوس، لأن ذلـك وارد في صـلب عقيدتهـم، فالكارثة حتمية ولها سـياقات مرتبطة

بتفتت المجتمع الكوردستاني ومعاناته سياسياً بسبب ذهنية السلطة التي تمارسها الزعامات على نحو إيديولوجي مقيت يتسم بالتفرد وإقصاء المخالف، وكذلك وجود أزمة في ذهنية المعارضة، فهي ترتهن لأجندات الأعداء على نحو مباشر ، كل ذلك يمثل ثقلاً على كاهل المجتمع، ويجعله بمعزل عن الأمان الذي ينشده ويسعى إليه، حيث النزوح والموت والاشتباكات والحواجز على الطرقات، أفضى لمشهد مأساوي، فداعش حين تبطش فهي تستلذ، والانتقام لذة مستترة تخفي سعي المتطرف الغريزي إلى التوحش والإجرام كإرضاءٍ لاضطرابه النفسي، فالعمل الأدبي يقيم المناخ الشجي الهادف للتأثير على المتلقين ودفعهم لفهم الحقبة والزمن وخصوصيته، وما صدر عن الأفراد من ردود فعل تنم عن كراهيتهم للتصعيد وابتعادهم عن الخطر رغم وجوده المحتمل في كل مكان.

وليس هنا الموت بمعزل عن أماكن الآمنين، لذا وجب فهم المعضلة المتمثلة بتخلف أدوات مواجهة التطرف الديني، وكذلك الإبادة الثقافية والابتعاد عن الروح القومية الجامعة عبر التحليق في أوهام المشاريع التي تخفي في جوهرها نكهة العبودية وإقامة سلطات انقلابية جديدة هي بالأصل نتاج النظم القمعية المحتضرة، إلا أن الرهان الوحيد هو روح المقاومة النابعة من إرادة شعبية فتية تكافح لأجل بقاءها ونوعها العرقي ولونها الحضاري، لاشيء آخر غير ذلك، فرغبة الشعوب في المقاومة والتشبث بإرثها الثقافي والوجودي أقوى من مؤامرات النظم القمعية التي تسعى لتكون مكانها، فالحب هو المعادل الحقيقي للوجود الإنساني في ظل الحروب والأزمات التي تطال الشعوب، وتناول الرواية للحب في زمن الحرب الأهلية تعبيرٌ عن ذود الإنسان عن نفسه بغية تحقيق الأمن الذاتي والاجتماعي لنفسه، لذا نجد كل ما يتعلق بالأحاسيس والأفكار متصلة ببعضها على نحو وثيق، ذلك الترابط ما بين الضحك والحزن والجنون والغضب والبكاء، من ثم التفاؤل، كل تلك العواطف المتأرجحة في واقع مجتمعات

النزوح والحروب الأهلية، إشارةٌ إلى نوع من المقاومات يتم إبداءها بغية احتمال أطول للمأساة، حيث تربية الغباء من عمل الساعين لتسعير الحروب الأهلية وتعليب المجتمع، وبالتالي يسهل على الجهاديين اختراق المجتمعات وسحبها لمعاقلها، فالجهاديون الدينيون واليساريون يكادون يلتقون على قواسم مشتركة مرتبطة بتأليه الزعامات، وكذلك الاهتمام بالمجال الدعائي تحت مسمى التدريب أو الدورة الشرعية (غسل الأدمغة)، وقد أثبت الإسلام السياسي، كما أثبتت الإشتراكية السوفيتية ومشتقاتها في دول أخرى، أنها بؤرة لخلق أنظمة استبدادية مخابراتية غارقة في الفساد والاستبداد وعداء المعرفيات والمعرفيين، وكذلك إنشاء مجتمع قوامه الخوف والاغتراب والعزلة الخانقة، حيث نجد الاشتراكيين الشرق أوسطيين قد انقسموا إلى قسمين، قومي وآخر مؤمن باليسار، وقد تقوقعوا حول أنفسهم في بدايات الحراك الشعبي المسمى بالربيع العربي، فكانت رؤاهم ومشاريعهم موارِبة ولايهمهم سوى الوصول للسلطة، ولم نكن لنعثر على فروقات بينهم وتلك النظم، وبالتالي عزف الإسلاميون على اسطوانة إقامة نظام إسلامي ومحاربة العلمانية، فأودوا بالحراك الشعبي إلى الهلاك والاحتضار، وباتوا بيادق بيد الدول الإقليمية الداعمة لهم كالسعودية وقطر وتركيا وإيران، وبنظرتنا لطبيعة المجتمع الكردي في غربي كردستان وتحديداً كوباني، نجد أنه وعلى الرغم من روح الإقطاع والذكورية السائدة كان ثمة حراكاً شبابياً متطلعاً للخلاص ريادته المرأة الكردية هناك، إذ أن طبيعة الحصار إثر احتلال داعش لتل أبيض خلقت ظروفاً لنقلة مهمة على الصعيد الاجتماعي في تعبئة الناس بمواجهة الاجتياح الظلامي، ونجد بالمقابل استعداداً من شابات وشباب المنطقة للذهاب إلى جبهات القتال، ليسود ذلك المناخ مكان المفاهيم الذكورية الناظرة للمرأة أنها الحلقة الأضعف، وفي اتجاه محاربة المفاهيم المضطربة للمجتمع الإقطاعي، كان انضمام المرأة بمثابة تحد قطعي لاحتكار الرجل للسلاح والهيمنة على القرارات المصيرية،

وقد أشـار حليم يوسـف بمعرض تجسـيده لحديث جيهان في المشـهد الذي تلا حديث رودي عـن بدايات انبلاج الوعي الأنثوي في الخروج عن عرف الرجولة التقليدي "أبي كان يذهب عند كل صـبيحة إلى قبر فيان ليقرأ القرآن، بينما أخوتي كل منهم منشغل في شـأنه، بينما أواصـل تعلم اللغة وأحذو حذو فيان، شـيرين أخذت تتعلم اسـتخدام السلاح مع الفتيات الآخريات، بينما علت أصوات الغربان السوداء، العجوز والسفاحة قرب أذني، وشـدت حصـارها، لاسـيما وأن الحدود التي تجاوزت مئات الكيلومترات باتت مفتوحة بطريقها، حيث نصـب المسلحون وجند الموت خيامهم في جهات مدينتنا الأربـع، ولا أحـد يعلم ماذا أمامنـا وأمام هذا البلد، كثوب قـديم كل فترة يخرج منه خيط حتى يتهرَّئ نسجه ويتفكك".

تصـوير روائـح المـوت المنبعثة من طول الحدود، يضـعنا أمام مشـهد تسـري فيه المفاجـآت الناجمة عن ذلك، سلاسـة في تصـوير الموقف دون تكلـف أو مبالغة، وبلغة بسيطة قادرة على الوصول للمتلقي، وهو يتهيأ بكل حواسه لالتقاط المشهد بتلك العفوية.

خيارات الحروب الداخلية مريرة، سـواء كانـت متعلقة بالهرب أو البقاء المؤقت أو الذود عن الأرض، لاسـيما وأن علاقة الناس بالموت تغدو قريبة وواضـحة، والمفاجآت القادمة سـتكون قاسـية ومتعبة على الروح والذاكرة، تغدو الأماكن مدعاة لتفكر أكبر واغتراب أعمق يطال صـميم الذات، ويكون مصـدراً لفهم الحقـب التي يتعرض فيها المجتمـع لتغييرات نفسـية وجغرافية تطال مفاهيمه ومسـاراته المعرفية أيضـاً، والتي قـادت لجيل غير متعلـم، أميل إلى العنف واستشـعار الأخطار، وكذلـك متطلع لحياة أكثر أماناً رغم ضـراوة الأخطار المحدقة، حالة القلق من المستقبل القريب، شيء على التضـاد مع الترتيب النفسـي ويجعل الفرد مقيماً في الخوف، المسـتقبل الغامض يلف المنطقـة ككل، والوقائع الأليمة السـائدة في جغرافية تم نهب مواردها المائية، الغذائية والنفطيـة على مراحل، وحـدت من تطلعها للتنمية، ونتيجة سياسـة الإبـادة الثقافية

والتغيير الديمغرافي المستهدفة للهوية الكردية، مروراً بالأوضاع البائسة واضطرارها لمواجهة التنظيم المتطرف بمفردها، جعلت مكونات المنطقة تعيد تنظيم نفسها وإخراج طاقاتها في المواجهة، مما جعلتها تدفع فاتورة باهظة في مواجهة ذلك، وهنا مكمن المأساة، فالتصدي لخطر الإسلاميين مثّل تحدياً لمكونات المنطقة، ولاسيما عزم تركيا العنيد في ضرب كل حالة تنظيمية كردية ساعية لحياة حرة ديمقراطية، فنجد تعقيداً مستولياً على المشهد بالتزامن مع المعارك والاشتباكات المتلاحقة.

لغة الكاتب هنا جلية يستسيغها الذهن عبر رصد الوجع ووصف المكان والشخوص وتنقلاتهم، سحناتهم وأوجاعهم، كان بمثابة الكاميرا ذات الجودة والصفاء العالي الذي مكن الرؤى من فهم ما يجري، وكذلك نفسية الإنسان العاشق في ظل هذه الحرب الداخلية وكوارثها، الموت إلى جانب الولادة، العشق إلى جانب الرحيل، ثنائيات مجاورة لبعضها تنقل لنا واقعاً يتشرب البؤس، وكلما حاول أن ينفض الغبار عن ملامحه تهدَّم جانب من داره.

شجرة الجوز تتحدث عما يحطيها من أشجار وأشخاص يتغيرون كل حقبة، زيادة أو تناقصاً، تتحدث عن سعادتها في أنها أنها كانت من نصيب بروين، ساردةً بدايات الحب التفصيلية بين بروين ورودي، ونمو ذلك الحب بالتزامن مع اشتداد الخطر وقرب هجوم داعش على كوباني، أنسنة الشجر كأنسنة الكلب بوزو وأنسنة الباب الحديدي في رواية حين تعطش الأسماك، وهنا يميل الكاتب لتوظيف الأشياء خدمة للحكاية التي يرويها، وذلك يزيد الإحساس بالواقعة ويضفي عليها مسحة درامية وينقذ السرد من الرتابة والركود التقريري، كذلك يشرك خيال المتلقي في فهم روح الحدث، فأجزاء المكان برمّتها تنطق ما يريده المؤلف وتدير بوصلة الرواية، لتجميع زخم الأفكار وتوجيهها على نحو مركز لإدراك القارئ وتصوراته بغية مخاطبتها والإيغال في التأثير بمكامنها، فكل ما هو مرتبط بقضية انتصار الإنسان على قيم العنف والاستبداد ولواحقه، متعلق

في لغة الرواية ومساراتها السردية والحوارية معاً، فالمنهج التأويلي يحقق في جودة النص وقربه من النفس المتذوقة، متحرِّياً في الجماليات، وكذلك في عملية التأثير اللغوي وجماليات الأسلوب، فمثلاً مشهد القبلة بين بروين ورودي عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، يرمز إلى التفوق العنفي الحاصل في المجتمع الذكوري بسبب تلك الرهبة الاجتماعية التي تعتبر العلاقة الإنسانية من المحظورات المعتادة في الحياة، وبصدد التأويل فإننا ندرك حجم المعضلات الإجتماعية العاصفة بالمجتمعات القبلية، وسبب انعدام الحرية الأساسية مرده استبداد النظام السياسي وإبقاؤه على التخلف، الأمر الذي يجعل من المجتمعات تواجه مصيراً مجهولاً في حال انفكاك العقد السياسي وتشرذمه وبروز التحدي التالي المتعلق بالفوضى والحروب الداخلية، مثالاً على ذلك مواجهة تنظيم داعش الإرهابي الذي يستخدم منتهى القسوة تجاه المجتمع، إذ لطالما تم قتل أمثال بروين بسبب محاولاتهن في أن يعشن كعاشقات ويتزوجن بمن يحببن من خلال جريمة الشرف التي يدخل الجاني بعد ارتكابه لها للسجن مدة ستة شهور ويخرج بعدها بطلاً يعتد به، فحوادث الذبح لا تختلف عما ارتكبته داعش لاحقاً بحق السكان الآمنين العاشقين لأرضهم وحياتهم، من هنا نجد نجاعة فن التأويل ومدى قدرته على التحليق والاستطراد بعيداً لفهم الواقع المجتمعي في كوباني، ومن ثم فهم الكوارث الإنسانية المتلاحقة جراء غزو داعش للمدينة وارتكابه للمجزرة بعد تحرير المدينة بعد شهور، فالعنجهية العشائرية والأحقاد المناطقية الكامنة في روح المجتمع، تخفي في دلالتها تخلفاً طبيعياً تم تقليصه بشكل نسبي بعد 2011، حيث تغير واقع المجتمع اثر انخراط المرأة بشكل كبير إلى جانب الرجل في حماية الأرض والمكتسبات.

تميل الرواية إلى الأنسنة كما تميل الكتب المقدسة لذلك، والقاسم المشترك بينهما هو توجيه الإنسان المتلقي لخيارات محددة، ورسائل مرموزة تجسد ما يجب أن تكون عليه الأفعال والتصرفات الإنسانية، وتخاطب جوهر الذات لكونها المستهدفة في أي

خطـاب أدبـي أو ديني، حيـث طبيعة العنف المجتمعيـة وتقدم العنف الأكـبر، قلّل من مناعة الأمان والشـعور بالثقة، ومجـرد طرح خيار المقاومة فإنه بات ثمة سـبب وجيه للتصـدي والكفـاح والتغيـير الاجتماعي، حيث التغيـير يمثل هنا أسـلوب درء الخطر الوجـودي وتجـاوز حقبة الضـعف والتفكك والنهوض بمسـتوى الوعـي بحقيقة الواقع المتبـدل كل حين، وهنا تلعب الرواية دراماتياً في التحدث عن المأسـاة وحالات السـقوط التـي تواجههـا مجموعة مـن الناس تعيش في جغرافية خطرة، وهم علـى خط النار، حيث تشهد اضـطراباً لا يتوقف، وفي تلك الأجواء المشحونة يقف القلم منبِّهاً لضرورة التلاحم المجتمعي ذاك ووحدة المصير القومي في مواجهة الأندثار والإبادة.

لا يمكـن للمجتمعـات التي لم يكن لديها تجربة في خلق تنظيمـات عنيفة أن تواجه الأذى الذي من الممكن أن تتعرض له، حتى النظام السياسي يحدد مستويات الاستعداد للعنـف لـدى المجتمعات، فحين يتم تجريدها عن العمل وابـداء الرأي والتعليم الجيد، فإن ذلك يولد عندها حالة من النفور والاستعداء ومن ثم التهيؤ للعنف إذا ما توافرت لها الأجواء، وهي تنشط بوجود الفوضى وتتغير تبعاً لتلك العقائد والتقاليد والعادات، ويصبح من الصعب لجم فورة الجماهير والتحكم بها إذا ما وجدت مساحة للتحرك من خلالها، ففي حين تنشغل السلطة بمواجهة التهديدات الخارجية الموجهة ضدها، تقوم الجماهير الغاضبة والمعارضة لها باستجماع قوتها لتقوم على نحو شرس في محاولاتها لتغيير طبيعة النظام، ورغم تلقيها القمع لأوسـع نطاق، فإنها تحارب ولا تدخر وسـيلة للإبقاء على فوضـاها لحين البت بفي شـكيل سـلطة جديدة تنوب عنها، وهكذا نجد تعدد الأصابع الخارجية المتحكمة في ذلك لتقوم بوضع ثيمات لنظام سياسي جديد وليد عن الأول، ويحاول أن يكون جامعاً في قوانينه بين النظام المتهالك والقائم.

لقد عمّق الإسـلام السياسـي المتحالف مع النظام السياسـي القومي في سوريا من الفجـوات الاجتماعية وجعل العنف خبزاً للحياة والشـتائم قاموسـاً لغويا، ففي فهمنا

للروايــة نتلمّــس رموزاً عديــدة تنقلنا لمتاهات الإشــكالات وتدفعنا دفعــاً لفتح الأبواب الصدأة لما خلفها من غصص وسجالات لم تنتهي، فرسوخ الحل عميقاً يكمن في حالة التصــالح المبنية على تعرية الأزمات والوقوف عليها، فالعمل الأدبي وسـيلة للتحليق في فضاء الأفكار، كما أن مد الجسور بين الفنون والعلوم الإنسانية هو غاية النقد الأدبي، وبنــاء الإبداع النقدي بمحاذاة الرواية هو إعداد للوحة مصــقولة بالحكمة والفلســفة والفن، حيث يتجنب حليم يوســف التعقيد والشــعرية في تناوله للرواية، كي يقارب بين الكلمة والروح الشــعبية ويحقق الوصول للمتلقي، لا سيما الكردي الذي بالكاد يستطيع القراءة بلغته الأم، بيد أن الاهتمام باللغة تزايد بعد ثورة غربي كردستان عام 2012، إذ اســتطاعت الشــريحة الشــابة وكذلك الأطفال تعلم لغتهم في المؤسســات والمدارس التــي تم تأسيســها، بينمــا بقي غالــب الكبار في الســن أميين في لغتهــم ومغتربين عن ثقافتهم، نظراً لعدم وجود مناخ لتعلم اللغة بسبب المنع من قبل النظام البعثي الحاكم ، فــكان تأثــر الغالبية بالثقافة العربية والغربية واضــحاً لدى الكتّــاب الكرد في غربي وجنوبي كردستان، فيما طغت الثقافتين الفارسية والتركية على الجزأين الآخرين من كردســتان، حيث برزت الرواية في الفترة الأخيرة بعد الشــعر، وشــعَّ نجمها، بخلاف الدراســات النقدية والبحثية، حيث نجد أن وجود النقاد والباحثين يكاد ينعدم، ومردُّ ذلــك قلة الإلمام باللغة والاهتمام بها والدفــع بها للأمام، بمعنى تطويرها، ناهيك عن عــدم وجود دعم مؤسســاتي لها، إذ لم تضــع الأحزاب والقوى الكرديــة اللغة الكردية محــور اهتمامها، وإنما كان همها الوصــول للجماهير وبناء قاعدتها الشــعبية وتحويل إيديولوجيتهــا إلى عقيدة، مهملة في ذلك القومية واللغة، عدا عن بروز ظاهرة المثقف الشــكلي في الأوســاط الكرردية وهــو ذلك المتبجح بكــم الكتب ورؤوســ العناوين التي تلقفها ظاهرياً، فميل بعض الشرائح النخبوية إلى الكراهية يفضي إلى التقوقع والمزيد مــن الانعزال، إذ كلما تشــعبت علاقاتنا مع مختلف الناســ ذوي الاتجاهات والأعراق

والعقائد، كلما تخطينا داء المناطقية والتزمت العفن ونهضنا بقضيتنا ورسالتنا، فإن كان عمل نخبتنا المثقفة تقليل شأن بعضها الآخر، فحريّ بالشريحة العادية أن تتنف بعضها نتفاً ولا يجب حينئذ لومها.

نقد الآخر إبداعياً يعني الإشارة لمكامن الخلل والإبداع بمنهجية، وليس مجرد إطلاق أحكام تدل على التملق أو الكراهية المبطنة تجاهه، فمن لديه عقدة كراهية الآخر أو استصغاره، لن يكبر مهما حقق من نجاحات، فكل تلك الرواسب المتجذّرة في ذهنية الإنسان المعرفي ليست إلا نتاج بيئة تم تهميشها وقمعها على مراحل، فالمجتمعات المضطهدة مجتمعات تربي الكراهية وتنقلها كالأمراض المعدية، وقد وجب في مضمار تناولنا للرواية دراسة ما يحيطها والإلمام بظروفها وأساليبها في معالجة الواقع، إن ذلك عمل مضنٍ وممتع في آنٍ معاً، لكنه يفيدنا في الذهاب لأبعد مما تتناوله الرواية وإن كانت منطلقاً رئيساً للعمليات الفكرية متعددة المسارات والاتجاهات.

نعني أن يتحول النقد إلى ضرع يدرّ المعرفة والاستكشاف، وألا يحيد عن وظيفته الأصل المتصلة بكشف المبهم والدخول لمنعطفات السرد والخروج منها بنتائج جلية تجذب المخيلة والإدراك معاً، وتخيط من الحدث وشاحاً من الإبداع والتحليل العميق، فكمال النص أكذوبة رسخها رجال الدين وحماته، وأغوت بعض المبدعين النرجسيين ممن نعتوا أعمالهم بالمقدسة! وقد ذهبوا مذهباً قائماً على اتهام كل من يتعرض لهم نقداً بالازدراء والشجب، فلو أتيحت لهم السلطة لفاضت سجونهم بمن أرادوا توجيه ملاحظة أو تقييم لم يرق لهم سماعه، فالمبدع الكردي مطالب في هذا الصدد، بالقراءة المكثفة والإبداع المتأني وتخليه عن الغطرسة وضيق الأفق.

وفي بمعرض دراستنا نبحث في مختلف الرؤى والقضايا والمسائل طالما اتخذنا النقد والتمحيص ميداناً تأملياً مركزاً، إذ نفهم من مسلك الولوج لمعتقدات الناس وأفكارهم معانٍ خفية، تبرز حين نستخدم البعدين الجمالي والمعرفي في تفسيرها،

يحدثنا الكاتب عن تلك الاعتقادات الشعبية في مياه النبع وشجرة الأماني في أعلى تلة مشتى النور، نفهم مدى رغبة الناس في الطمأنينة ونشدان مستقبل أفضل، فالروح الميتافيزيقية صلبة وراسخة بدعم ديني ثبته العرف: "النساء اللاتي لم يحبلن كنا يذهبن لسنوات يشربن من النبع، أملاً في أن يرزقن بأطفال، الأمهات كنّ يغسلن رؤوس أولادهن البكم والصم بتلك المياه كي يشفوا، ومن لديه أمنية كان يذهب ليشرب من المياه منتظراً تحقق مراده، رويداً رويداً باتت شجرة التوت في أعلى تلى مشتى النور شجرةَ أماني، كل شخصٍ يستنجد بها ويرتجيها."

هذا الاعتقاد بوجود ظواهر خارقة تسود حياتنا، وأشياء يمكن من خلالها معرفة المستقبل، يخبرنا بأهمية الميتافيزيقيا في حياة المجتمعات الشرق أوسطية، فلطالما ظل إصرار الإنسان على فهم الغد وما سيحدث أو ما يجب أن يحدث قديماً وتاريخياً.

ذهاب الأب إلى قبر ابنته الشهيدة، مشاعر الهيجان المنبعثة من روح رودي وهو مولع داخلياً ببرفين، الأنثى البكر لعائلتها، وأخبار عن تجمّع الآليات العسكرية في قرية حدودية، مشاهد كاملة ترصد كل شيء، الحب وأخبار الحرب إلى جانب فجيعة الفقد، من يقرأ الرواية يجد التكثيف والازدحام في المشاهد، ومعظمها يلامس المخيلة وتذكي في الذهن تشويقاً للمتابعة والإحساس بالمشاهد، كون أغلبها معاش، فالحياة لا تتوقف رغم الموت والاستشهاد، مشهد الجنرال العجوز شبه المجنون وهو ينضم للعسكر وهم يمشون مشية عسكرية على أطراف أحد الشوارع، إنها حالات تبعث على الشجن، الأبنية المهدمة وحكايات الرغبة في الحياة والصمود بوجه الجهاديين، رغم خراب المدينة وبناها التحتية بعد غزو داعش وتحرير المدينة.

بغياب الدولة والعدالة تتحول البلاد إلى فوضى متسلسلة لاتكاد تنتهي، نحن أمام حياة مضطربة، لاشيء فيها طبيعي، الطبيعة النفسية غير مستقرة والعنف يستولي على الملامح ويذهب الإنسان باتجاه أحد الخيارين، إما أن يكون بمنتهى الرقة

والرهافة، أو أن يتحول إلى السادية والقسوة، وكما أن نهاية كل نزاع هي الصلح ولهذا قيل أن الصلح سيد الأحكام، فكذلك نتيجة الحرب مهما طالت هي الاحتكام للسلم، إلا ان ذلك يتوقف على القوة المرجحة لأحد أطراف الصراع، أما الوجع فيطال الأبرياء والعزَل وحدهم الذين يجنون حصاد النزاعات، تقوم الراوية بتغليف ذلك، وينصرف الأدب إلى أرشفة الحوادث وتداعياتها على المجتمع والأفراد، بينما يقوم النقد بإخبارنا بنجاعة الفعل الأدبي وتعددية الأعمال الأدبية والفنية، فيقتصد في شرحها ويسهب حسب جودة وقيمة تلك الآثار الأدبية وتقاطعاتها مع الماضي والمستقبل، بمعنى أن الناقد يهتم بأنماط التفكير وسبر الأساليب، لتمييز جيدها عن رديئها، فالأعمال الجيدة تحصد أثراً محموداً بالغاً، فيما الرديئة تصبح مغمورة وتذهب طي النسيان مع الوقت، فأكثر الأعمال خلوداً هي أكثرها محلية ولصوقاً بقضايا الإنسان والمجتمع ومعاناته، وأكثر الأعمال رداءة تلك البعيدة عن الوجدان والإدراك العميق، تكاد تكون أشبه بالنكات أو الجرائد الإسبوعية، لهذا حري بالمبدع الحصيف التأني والتركيز وزيادة الاشتغال على النفس بغية صقل الإمكانات ووضعها في خدمة الإنسان وتطلعاته لحياةٍ أفضل.

يرى جان جاك روسو أن طبيعة الكون تقتضي وجود صراعات دائمة، هذا يعني أنّ هناك فسحات رحبة لولادة روايات وأعمال فنية وفكرية، كون الإبداع وليد الحرب، والأفكار وليدة الصراعات، كما يرى توماس هوبز أن حالة الطبيعة هي حرب دائمة، الأمر الذي يفسر وجود الموسيقا والفنون الأخرى، كما وجود الأبحاث والروايات والشعر، فطرح الأدب والفن كبديلين تقويميين لرغبة الإنسان الدائمة بالهيمنة على المقدرات والتصادم لأجل الاحتكار، وهذا يفسر ما ذهبت إليه فكرياً بوجود هذا الصراع العتيد بين قوى الإبداع وقوى الاحتكار السياسي الربحي، على الرغم من أن جهود الغازين تركزت على التوسع وإلحاق ممالك وممتلكات وأقوام لخريطتهم

التوسعية، كانت جهود المعرفيات والمعرفيين تتجمع نحو البناء وترميم ما تم استهدافه، كتطلع حضاري حاول النهوض أبداً بالإنسان رغم من الحروب والنزاعات المتفاقمة التي أثّرت على مجموع القيم التي يؤمن بها الناس والبسطاء ممن التزموا بالاعتدال وطلب الحياة بحذر دون إسراف أو إفراط في طلب المغريات والسعي إليها بنهم، فواقع غربي كردستان إبان إنسحاب قوات النظام السوري منها بات مسرحاً للصراع الوجودي بين أبناء الوجود الوطن، والجماعات المتطرفة، ذاك الصراع ولأهميته بات سجالاً أدبياً معرفياً، أعدّ اللبنات الأساسية لنهوض المجتمع الكردي وريادته في مواجهة التطرف والأمراض الفردية الناجمة عنه، مسؤولية المواجهة تضع الأدب أيضاً في مسؤولية توثيق ما جرى ويجري ومن ثمَ البناء عليه لاحقاً.

تفسير المبهم وتعرية الغامض رحلة ممتعة في أدغال العمل الإبداعي، وما يخفى على المتلقي لا ينبغي أن يحتار أمامه الناقد، هنالك متسع من الوقت يمكّننا من أن نقرأ ونقلّب الأوجه ليتسنى لنا فهم الأدب والعالم المختزل في متونه، مشاهد الموت تتدحرج في المخيلة كبانوراما متحركة، وقع الانفجارات على النفس وملامح الشخوص من مريض تكاد حالته تزداد وجعاً وتراجعاً إثر سماعه عن الضحايا فيما إن كانوا يتصلون به بالقرابة، وكذلك حالات التنقل والهروب من الأزمة النفسية العاصفة بالنفس وهي تضفي على الملامح صفاراً ورهبة، هذا الصخب في الأحداث يعكس ما في الداخل من آلام ومفاجآت، كاميرا الإحساس بالحدث تواكب تلك التفاصيل وتدمن الإيغال في أجزاء المكان، تستثمر اللوعات المنبعثة من الدواخل، وهي تروي غمارها حينما تتحول لمشاهد فنية تنقلها الرواية، لتفك شيفرات الوضوح المنساب لتفتح مسامات الألم الذي ينتشر في الأروقة والشوارع، مشاهد الجنازات العشر الخارجة من الانفجار كحصيلة أولية، ترافقها قسمات الباكين المنعقدة ألسنتهم، تلك الحوارات القصيرة التي تصف الحدث استطاعت أن تتحدث عما يعتمل النفوس في تلك الحالة مشاعر

مضـطربة، وحديث عن الموت والفقد بين أناس يعتليهم الذهول، أراد حليم يوسف من هذا التكثيف السـردي تحريض السـمع والبصـر داخل العقل الباطن للقارئ ليتماهى مع المشـهد ويتأثر كـي يعرف حيثيات الحوادث الناجمةعن المعـارك المحتدمة اليومية في جبهـات تل أبيض، إبان احتلال تنظيم الدولة الإسـلامية لمسـاحات من الأراضـي والقرى في ريف تل أبيض، فبعد استشـهاد فيان، حملت شيرين لتنضم لميادين القتال، وتحمل مسيرة عشق الأرض والدفاع عنها استكمالاً لمسيرة اختها الشهيدة، وقد انحاز والدها لفكرة السـلاح بـدلاً من القلم، على عكس ما أرادت الوالدة لشـيرين وهي أن تكـون معلمـة للغة الكرديـة، هذا النقاش الهـادئ والحار في آن بين جيهـان ووالدتها، يؤكد انحياز الإنسـان بطبيعته للحياة أكثر من المسـارات المتصلة بالشهادة والرحيل، تلك الآلام المتصـلة بالفقد يعيشها الناس بلوعة وحرقة قلب، وتواكبها كاميرا الرواية بكل اهتمام وشـجن، مكثفةً حقيقة الواقع الذي يعيشـه الناس في غربي كردستان إزاء مواجهتهم الإرهاب وكيفية قيام المجتمع بواجباتهم بشكل طوعي تجاه العائلة المنكوبة، تقاسـم الوجع ومشـاطرة الأسـى يعبر عن مقدمـات لتغيير المجتمع وتشـربه لمفاهيم جديدة تنعشـه وتسـهم في تبدلهم، وقسـم الأخت شـيرين بدم اختها الذي سال على الأرض هـو بمثابة تجديد للعهـد في الانتقام من القتلة، كل ذلك يعمق من الإحسـاس بضـراوة الحدث، الفاجعة الكبيرة المتصـلة بالموت، فمشهد الانفجار عبّر عنه الكاتب بانسـيابية، كان الوصـف يجري بسلاسـة: "لم تنقضـي مدة على انقضاء الاستراحة حتـى ارتفـع دوي انفجار عالٍ من تلك الجهات الأربعة، سـقط كتابـي من يدي، قطعة حديدية صغيرة مرت قرب رأسي كرصاصة من نار، بيني وبين الموت شبر واحد، ودون أن أشـعر بنفسـي، هممت أنزل من على الدرج نحو الأسـفل، في الأسفل راحت بريفان وكلستان تبكيان، وجفلت أمي من وقع الانفجار، أخذت أعبُّ الماء من وعاء أبي، حملته وشـربته دفعة واحدة، أبي وعند كل صـباح باكر قبل أن يقرأ القرآن، كان يملئ الوعاء

بالماء ويضعه عند رؤوسنا، وإن ارتعد أحدنا وجب أن يشرب من ذاك الماء، استردت أنفاسي بعدما شربت، هرع أخي عدنان صوب الداخل سائلاً أختيّ حينما رهن بهيجان وعينين مليئتين بالدموع، احتضنهنّ:

وقع انفجار كبير قرب مركز الشرطة القريب من الهلال الأحمر، أحدهم قال لي أن أختي راحت في هذا الانفجار، لهذا عدت للبيت على الفور."-

هذا الموت الفاتح فمه يؤجج ما في النفس من احتمالات السقوط والنهاية، كل المشاعر والمواقف تتراءى في مخيلة عدنان الذي رأى مكان الانفجار وجثة ماهر ملقاة على الأرض على نحو يثير الخوف والحزن، هذا التلاحم الطبيعي بين الضحايا وأهلهم، متأتٍ من حجم الهلع والألم وضرورة مواجهته معاً، فمقابل الموت تتجمع الفئات الاجتماعية بمختلف ألوانها ليبذلوا ما بوسعهم في تقديم التعازي والالتفاف حول من لقوا حتفهم، هذا الاهتمام بالضحايا يفسر الانتماء للجماعة والتشارك في أوجاعها ومآلات مصائر أفرادها، حيث يستخدم الكاتب هذا السرد والتفصيل المركز على نقطة التحلق حول الحدث الدموي لما يتخلله من تقلبات نفسية، تمثل الواقع، تركيبة المجتمع، نفسيته وكيفية مداراته للأزمة على نحو يفصح عن تحولات المجتمع وتغير مفاهيمه واعتماده على نفسه وفهم للواقع دون تهويمات وأحلام واهنة، وإنما استناداً للمتغيرات القائمة عند الحرب، ورؤية الناس حين يموتون ويحتضرون، تتشقق لحومهم وأضلاعهم على نحو يثير الداخل ويبعث على الإغماء والتقيؤ وكذلك الوجوم، كل شخصية تتحدث على حدى وتعطي رسالة معينة للقارئ وتسعى أن تكون الأبلغ أثراً في الذهن، نجد الشخوص هنا مثاليين، يميلون للوداعة والطيبة، وكلامهم يدور حول الحرب وتبادل الشجون والأحزان، ففهم مأساة الآخرين وظيفة الرواية من الجانب النفسي، ويسهم في الدخول لعملية إبداعية ممتعة غارقة بالتساؤلات الفلسفية اللاذعة التي بإمكانها أن تجعل من الحدث قيمة ومغزى من الناحية التأويلية، وترشدنا بحكمة

لمواضـع الانقياد للفهم الجيد لمسيرة الناس في ظل تفاقم الأوضاع الإنسانية ورداءتها، فالكـوارث الناتجة عن الحـروب الداخلية تعكـس في منظورها دعوة لفهم مشـكلات البشر ومآسيهم وأحلامهم المنتهكة.

◆ قراءة الموت وفق سياق الحدث:

أوجـه المـوت ومعانيه المرتبطة بالصـراع، تترجـم في الحوادث المنقسـمة المتعلقة بالقدر أو بالدفاع عن قضـية محددة، إذ يقتنص الموت الناس دون أي فوارق بين هرِم أو فتيّ، لذا يعبَر حليم يوسـف عن ذهوله على لسـان شجرة الجوز: "الشيء الذي كانَ أقل اسـترعاء من قبل أهل البلد هو الموت بمشـيئة الربّ، موت العجائز والمسنّين، حين راح هذا الكلام لمسـمع رجـال الدين قالوا: هؤلاء الذين يموتون أليس بمشـيئة الرب؟ يردّون باستهزاءٍ: لا ... هؤلاء يموتون بمشيئة البشر الذين يقتلون بعضهم البعض."[1].

يميـز الكاتب بـين هذين الوجهـين الواضـحين للموت، المـوت القـدري الطبيعي، أو المـوت إثر التنـازع الدموي بين البشـر في المعارك والحروب، إلا ان الشـكل الباعث للأسى هو ما ينجم عن الاستشراس الدموي بين الناس، ممن توزعوا حسب موالاتهم واتجاهاتهم السياسـية، فالأدوار توزّعت بشـكل تلقائي، المتطرفون يتجمعون في حلقة واحدة وضـمنهم قمة فرَق تتخذ من الفروقات المذهبية وسـيلة لممارسة العنف، وذلك ينطبـق على الجماعات الأخرى، لا يعدم الناس وجود المسـوغات التي تفتح لهم الباب للتصـعيد والتنازع، وبوجود الإمداد المادي والتجييش الإعلامي يسـتمر ذلك الصراع لتسـعير المنطقـة، وتوريـد السـلاح بكـثرة، والهدف من ذلك السـيطرة علـى الموارد والخـيرات وإعـادة توزيـع الأدوار والأراضـي، فتجديد الصـراعات الدينيـة وإعادة إحياءهـا تقف وراءهمـا بقوة كل من تركيا وإيران، وهو تجسـيد للأحـلام القاتلة في الهيمنة على المنطقة التي تعاني السبت المعرفي.

فلكي تستمر صفقات السلاح وتتحقق الأرباح ويجني تجار الحرب ما يريدونه، على المدن أن تتدمر وعلى الإنسان أن يموت، هكذا تتم صناعة المخاضات والأزمات لتتعمق وتتأصل، لترتفع مقابلها يافطات حقوق الإنسان والأمن الدولي، تتوطد الروح المذهبية والقوموإسلامية لصالح زلزلة القيم وتفتيتها، لنشهد موجات النزوح نتيجة تدمير البيوت والمنازل على رؤوس قاطنيها، وملاحقة الإنسان الأعزل ومحاصرته، لانتزاع لقمة عيشه، كل ذلك على مرأى العالم المتمدن، يتدفق المتطرفون في كل مكان من شتى أنحاء العالم، ليمروا بتركيا ويختموا جوازاتهم هناك فيدخلون عبر الحدود المفتوحة لذهابهم وإيابهم، كل ذلك لأجل إبادة الشعب الكردي ومحو وجوده عن الخارطة لصالح توحش التعالي التركي برائحته الإسلاموية، فالحلول المكتوبة بالحبر لا مكان لتطبيقها في واقع هش يشهد خراباً وسوء في الأوضاع، لتغدو الديمقراطية حلماً مزيفاً، وتغدو الحقوق المنتهكة يافطات معلقة في الهواء، يتم عقد صفقات باسم حماية اللاجئين، فيتم توطينهم في بيوت ممن نزحوا عنوة عن أرضهم ومثال عفرين التي بيعت إثر صفقة روسية تركية مقابل تسليم الغوطه واضح، تتم تصفية الحسابات الربحية المتعلقة بالنفوذ على حساب الضحايا، إخراج الناس من بيوتهم، دكها بالبراميل المتفجرة، نهب وسلب الممتلكات، رواية الحرب تصف وتواكب كل ذلك، لتكشف التواطؤ الدولي لصالح الإجرام المتفق عليه، وبذلك يمكننا أن نعي صلة الأدب بالفكر، صلة المنتوج الإبداعي بالنقد، كل بناء يحتاج إلى ترميم، وكذلك إلى إصلاح بين كل لحظة وأخرى، فالنقد يقوم بتجسيد ما خفي وكان مبهماً، يقدم رؤى من باطن النص، يتعامل مع المعاني كرموز تختفي وراءها دلالات شتى تنتمي لحقول معرفية متعددة، فمن أزمة المجتمع والسلطة، إلى أزمة الإنسان والقوى الربحية الدولية، ذلك يقودنا لحقيقة أن وجود نظم قمعية في بلدان الشرق الأوسط والعالم العربي تمت بموافقة دولية لدول كبرى تلعب دوراً اقتصاديا مهماً ولها مكانة عالمية وقواعد

عسـكرية محيطة حول العالم، تستفيد من بروز النظم المستبدة لتكون بمثابة مسامير جحا للتدخل بالشؤون الداخلية لتلك الدول، وليكون لديها القدرة على تبديل الخرائط إن اقتضـت الحاجة لذلك، هذا الانفجار الشعبي تفرضه ضعوطات السلطة الشمولية وعجزهـا عـن فهم الواقع الراهـن، تمويهها لذلك العجز وهروبها مـن أزماتها وعدم قدرتهـا على التحكم بشـبكاتها وأذرعها، مما يجعلها مهددة بالخلل والتشـظي، لهذا ولَّدت لدى المجتمع نفوراً منتظماً وهياجاً ممنهجاً سـيأخذها من ضـفة النقمة لضفة الهبة الوحشية الناجمة عن صمت مرقّع بخيوط من نسج العنكبوت.

هنـاك موت يبيـت له المرء سـواء كان في هجومه علـى الآخر أو دفاعه عن نفسـه ضـد هجمات الآخر المتسـلح بنظامه الخاص، وهنا يمكننا فهم العنـف الدموي على أنـه صـراع احتكاري يتضـمن اعتقـاد الفرد بنقـاوة عقيدتـه وأحقيته بقتـل المنافس علـى الجهة المقابلـة، فالأفكار بحاجة إلى مسدسـات وقنابل لكي تبقـى، وأقل الأدلة هو ما نشـهده عبر التاريخ من حروب مقدسـة وجماعات تقتتل وتخلق الإيديولوجيات كمبررات في القتل والنهب والسـلب، نفهم ذلك الواقع القائم على أنه استنزاف لموارد الوجـود بذرائـع واهية تتعلق بتفسـير الحق والقيمـة الأخلاقية ، حـروب لحماية قيم الله أو الوطن، ووراءها طالت يد المتصـارعين الذين اسـتعمروا وتوسعوا وبنوا ممالكاً وامبراطوريات مقابل تدمير ممالك أخرى قائمة واقتصادات، يقف الأدب هنا لنصرة الطرف المتصارع ضد نقيضه، وبارود التأثير البلاغي هنا هو جزء لا يتجزأ من معركة تفسـير الحق والذود عن المعتقد المتصـل بحفظ النقاء العرقي والإيديولوجي المرتبط بإرث الجماعة.

الانتصـار للإنسان وبقاءه، مرتبط بنظرة الأديب ونسـقه الإيديولوجي السياسي، الاختلاف في تفسـير الحـق، وكذلك الذود القومي ضـد الاستشـراس القومي الآخر، التجييش الشعبوي ضـد الهجمة القادمة من الجهة الأكثر نفوذاً وبطشاً وسطوة، أدب

ينتصـر لشعوب مهددة بالإبادة والفناء مقابل أدب سلطوي متغطرس يحمل في جعبته رائحة وشكل الجحيم والبلاء.

الحـزن والموت يحـددان طريقـة الحيـاة في زمن الحـروب الداخليـة، وبيئة غير آمنـة لا أحد فيها بإمكانـه أن يأمن حياته، وفي ظل حالة التأهب النفسـية نجد جموع الناس مضـطربة آخذة حالة الاسـتعداد لمكروه قد يحدث، تحول المدنيون إلى عساكر وتغـيرت مناخـات المجتمع، فلم تعد تأنس بالهدوء الذي يسـبق العاصـفة، فمراسـيم الموت باتت شـيئاً مألوفاً، المراسيم على صـدى الأغاني الحزينة الثورية، أضحى الموت احتفـالاً ومظاهر الموت تحولت إلى طريقة للتحدي والمشـاركة في الحرب والصـراع، ذلك طقس متصـل بالحرب والتماسـك بوجه مغتصـب الحق والمعتـدي على الأرض، الوسائل الدفاعية مباحة، والشعوب تقرر هنا أن تظل وتدافع عن هويتها لتظل راسخة بوجـه الانطماس والاندثار، فالموت هو ضـريبة الحياة الكريمة، وتجسـيد ذلك روائياً مهم، ويجعل الإنسان مؤمن ضمنياً بطريقة الصمود تلك، لذا يعد الأدب سلاحاً خلفياً للمقاتـل المرابط على الجبهـات، حيث تقوم الروايـة بتعزيز المناخـات المعنوية داخل المتلقي، وتضعه أمام المسؤولية الاجتماعية المتطلبة دوام الثبات وعدم التخاذل، فحين تتحقق الرفاهية ويتأصـل الاستقرار لابد وأن يتخطى المرء كافة التحديات والمصاعب الملقـاة في الطريـق المحفوفة بالمخاطـر والأعباء الجسـيمة، فالحرية تحتـاج لتدريب وتأهيل فكري وروحي حتى يضمن الفرد لذاته الروح الكفيلة بالعمل والنهوض، فالقيم الطبيعية ليسـت مجرد أقاويل نظرية تسـبح في بحور البيان، وإنمـا هي كيفية حياتية لإحقاقها وتجسـيدها حياتياً، كواقع لا يقبل المواربة والالتباس، والرواية الوطنية تقوم بتلخيص مجموع القيم المعرفية لتكون ترسـاً منيعاً بوجه التحلل والرهاب الذي تشـنه النظـم القمعية ضـد الجماهير كي تعريها من الثقة والتحدي الـذي يقف بوجه الآباء والأمهـات، برؤيتهم لأبناءهم وفلذات أكبادهم وهم يتسـابقون أفواجاً نحو الموت لنيل

وسام الشـهادة لأجل الوطن الحلم "كردستان"، وكذلك لانتصار قضية الديمقراطية كمعادل موضـوعي وبديل عن العبودية والظلم الاجتماعي، فسـعي الجماهير الهائجة هـو لأجل التحرر الطبقي والمسـاواة، إزاء فئة تحوز على الثروة والسـلطة مقابل فئات يفتك بها الجوع والجهل والفقر، إلى جانب الاعتقال والموت وتكميم الأفواه، فخسـران أعضـاء الجسـد نتيجة الحرب كانت ثمناً باهظاً لقاء تأمين قيمة التضحية وإخراجها كقيمـة لغوية ونقلها للواقع المعيش، وذلك بحد ذاته مثّل تفوقاً روحياً إلى جانب التفوق المادي، فسـليم الأعمـى المرتبط بمدينة كوبـاني يؤكد مراراً علـى أن علاقته بالمدينة ليسـت علاقة بصـرية حسـية كونه أعمـى، وإنما هـي علاقة روحية محضـة، تربطه بأجزاء المكان وضجيج الناس في مدينته التي هي مسقط رأسه وروحه.

قصة ارتباط المعرفي بوجوده الوطني تجسدها الروايات والملاحم القديمة تاريخياً، وهي حديث عضوي في الفلسفات، لهذا فتسليط الضوء عليها يعد قوام العمل الإبداعي الروائي، ويعطي للمتلقي باعثاً على اليقظة الروحية المرتبطة بقضـايا الأرض والدفاع عن التنوع والخصوصـية لمجتمعات متعـددة الأعراق والاتجاهات والمشـارب، الحرب المدافعـة عن الديمقراطية والمسـاواة حرب محقة ومهمة، ولا تتـم بمعزل عن التوثيق الأدبي والفني والموسـيقي، فالموت بالنسـبة للعاشـق هو بعده عن موطنه وحبيبته، وهو أحد أشـكال الموت الأكثر اسـتنزافاً لروح الفرد، فلن يسـتطيع بالتأكيد صـنع وطن في المنفى وإن كان الوجود واحد والمعركة واحدة، إلا أن للجغرافية خصوصـية روحية لدى الفرد المبدع بصـورة خاصـة، فالمنفى هو اقتلاع المرء من منبته، اقتلاع بذرة تنمو في أرض خصـبة ونقلها لمكان آخر غير موطنها ومناخها، فقد تنمو أو لا تنمو وقد يختلف طعمهـا إن أثمـرت، وهذا ينطبق على المرهفـين، إذ ليس بالضـرورة أن ينتجوا خارج بيئاتهم وإن كانت القارة العجوز مثالاً "أوروبا" تتمتع ببيئة آمنة وداعمة لإبداع المعرفي الشـرق أوسـطي، إلا أنها لن تسـتطيع تحقيق الراحـة الروحية له والشـعور بالارتياح

الاجتماعـي، كون الفرد يعيش في محيط غير محيطـه، إذن في تلك الحرب الداخلية، يولد تخوف طبيعي أن تفرض الهجرة على الكثيرين إلى جانب الموت في جبهات القتال، خسـارة أكثر من إحدى عشر ألف شـهيد في معارك أبناء غربي كردستان ضد تنظيم الدولة الإسـلامية الممولة تركياً وفطرياً، وهذا العدد يعتبر صـادماً ناهيك عن النزوح باتجاه الشـمال الغني، وكذلك اللجوء للدول المجاورة وخاصة اقليم كردستان العراق، فاتورة تلك الحرب الداخلية لعشـر سـنوات باهظة ومؤلمة، عـدا خراب البنية التحتية جراء ضـرب المدن، آخرها كان احتلال مدينة عفرين وريفها، وكري سبي "تل أبيض، وسـري كانيـه "رأس العـين" من قبل الإحتـلال التركي ومرتزقته، ممـن أطلقوا على أنفسـهم مسمى المعارضة السـورية بهيكليتها الأخوانية، لن تستطيع الرواية أن تتناول أبعاد المعضلة من كافة الجوانب عدا الجانب الإنساني المتصل بنوازع ووجدان المجتمع، ومآلات التدمير على النفسية والحياة الطبيعية للمجتمع، بيئة غير آمنة تكتظ بالجثث ورائحة الدماء، والألغام والدور الخربة، الأبنية التي باتت مقرات للقناصـة والجدران المتداعية التي تحولت لدهاليز عبور المقاتلين من ضـفة لأخـرى، بيئة تعج بالأمراض، وذلـك مـرده إلى حالة الاضـطراب المتكررة بين حـين وآخر والتأهب النفسـي الدائم لنزوح على الأبواب، أو عملية عسـكرية تركية وشيكة، مستقبل غامض، وأزمة إنسانية جلية أمام أنظار العالم وكاميراته.

إن ضريبة التوسـع والسيطرة على الموارد بفعل ضعف سيطرة المركز على الأرض، هي تهجـير الألوف وتوطين آخرين، وتبديل السـكان المحليين بآخريـن وافدين، حتماً ذلك يعود بالفائدة على الجهة المصدرة لأزماتها الداخلية للخارج، وتدار تلك الحروب بالوكالة من قبل الدول المجاورة لسـوريا وعبر سـكانها المحليـين المغرر بهم إلى جانب تدفق الأجانب من كل أصقاع الأرض.

يخيـل للمرء أن الشـخوص يعيشـون تلك العزلة النفسـية على حـدى، لكن في لغة السـرد الأدبـي نلحظ أن النماذج المعنية بسـبرها كلهـا تغدو على طاولة التشـخيص والمنهج النفسـي، هـذا يكفل لنا فهم الطبيعة الفردية وميلها للشـاعرية والانطواء إثر كل حادثة يموت عبرها آخرون، يكون لون الإنسـان إزاءها مخطوفاً، يعم الشـحوب في أروقـة النفس، وتخطـو الكتابة النفسـية خطواتها الأولى لمعرفـة الكوامن وما تحويها من غصـص وأسـرار تخص كيفية التعامـل مع الحدث في أول نشـوبه، حيث لابد من وجود عقيدة فلسـفية تقف بالضـد من مشروع الإسلام السياسـي بشقيه المذهبيين، فكانـت تلك العقيدة مسـتوحاة من فكر منظومة كردية لها باع في الصـراع الوجودي لأجل كردسـتان واسمها الأمة الديمقراطية، التي وضـعها أوجلان، ظهرت على غرار النظرية الماركسـية، مع عدم نفينا أن تكون تقليداً للاشـتراكية، إلا أن حرصـها على الظهور بطريقة مغايرة ومعاصـرة كفيلة أن تكون نداً للمشـروع الأردوغاني، مع تفاوت أكيـد في القـدرات التكنولوجيـة والمادية بين القوتين، ولا شـك أن أي قـوة ايديولوجية سياسية تتفرع عنها قوى أدبية رديفة ومناهضة للفاشية المستحدثة، حيث حرص حليم يوسـف على الظهـور كمناهض أدبياً، كي يكون نسـقه محاذياً ومتدفقـاً باتجاه توثيق نضالات الأمة وإشادة وعي معنوي لها.

للرواية دوافع مبطنة خلف العاطفية والنزعة الخيالية الطافية على السـطح، إنها تجسـد واقع الإنسـان دون أن يسـعى للتجرد من عواطفه ومشـاعره ورغباته، وسـعيه الدائـم أن يكـون بمعزل عن التصـادم العنفي، فالـذي يدفع الجهادي ليفجر نفسـه ويقطع رؤوس أعداءه ويسـبي نسـاءها هو تأثير العاطفة وغريزتي الغضـب والجنس، واللتـين تجعلانه يهرول كالثور خلف الرداء الأحمر، حيـث تعطيل العقل وإغفاله يعني المسير دون عينين والانقياد للعنف دون إدراك بفداحة القتل، يفسر حاجة صناع الموت لمغفلين يكونون وقوداً لمصالحها ومنافعها البعيدة.

كيف يتعايش المرء مع الفقد؟ كيف يظل يقاسي ولا يهدأ؟ وهل باستطاعة الرواية إيصال صوت الألم من فوهة الكلمات للآخرين مهما تعددت الأساليب المؤثرة وبرع المؤلف في رصد شحوب من فقدوا ضروريات وجوهم المتمثلة ببصره وزوجته، البصر، فقد الزوجة، الهرم، ثلاث أشياء تشجع الموت في الاقتراب من الإنسان، يعمد القلم في تفحص مكامن اللذة التي تحتوي الألم لما لها من مكانة في الذهن الإنساني المتذوق والمتتبع للعالم المنسوج في الرواية، كيف تقوم بصنع الأعمدة والجسور للواقع المعيش، وذلك بصنع واقع فني بديل، تأنس في سبره الأرواح وتستقيم عبره الأذواق، فالمرأة بالنسبة للرجل عمود المنزل، وبفقد الزوجة، يترقب الرجل الهرم أفوله لا أكثر، ببحثه عن المرأة، فإنه يقوم بإبعاد شبح الموت عن طريقه، فالعزلة تعني انتظار الفناء، سليم الأعمى يترقب أن يحل الدفء والأنس في حياته، كي لا يحس بالهامشية، ويدفعه هذا الإحساس لمزيد من الإنطواء والكآبة، دوماً يجد الكاتب لذة داخلية في إقحام المكان في نفسية الشخص: " بقينا أنا والجنرال لوحدنا، من كنت سأجد منه خيراً ذهب، ولن يعود مجدداً، مبكر أخي، كم هو مبكر، بكاءه أثقله، الجدران حول، حجارة الشوارع، الصفائح المجاورة لرؤوس الشباب في مقبرة المدينة، فروعي المتصدعة، أوردتي الغائرة بحزن الأرض، بكت جميعها معاً".

بهذه الطاقة المعبرة عن الحزن والتحسر على أشياء لم تتحقق، عم القلق أرجاء الأرض، باتت الكلمات تلتف أكثر حول أكثر المشاهد درامية، الجنازات معروضة في الشوارع، والألم يغطي بقتامه كل الأروقة والأزقة. بعيداً عن سجالات الأفكار وترهات الإيديولوجية والسياسة العاقرة، هناك تصور لمشهد يعبر عن الأعماق المتعبة، والموت المحيط بالمكان، انحياز الأديب للإنسان، الحوادث، مغازي التشبث بالحياة، وحالات الالتفاف الجماهيرية حول مصائبها، يعتبر ذلك مجدياً أكثر في رحاب السرد، والرواية لا تلقِ بالاً لأي شيء عدا الإنسان وإخراج مأساته للعالم من خلال النص

المشتعل حزناً وصخباً، والإسهاب في الإحاطة بالمشهد المأساوي يسلط الضوء على فداحة الفقد، وبروز الحرب في ميادين غربي كردستان، الرقعة الجغرافية التي كانت هامشاً والتي عبر عنها الكاتب في رواياته كافة، إنها المنطقة الحدودية الجريحة في صميم تاريخها المخضب بالدم، جغرافيا تشتعل بالمواويل، الأغاني، الجراحات وحكايات العشق المدوية، في تلك الجغرافيا المحتقنة لا حديث سوى حول الظلم واختفاء الأمن والطمأنينة، فلن تكون النفسية الفردية في ظل الاحتراب، إلا مغتربة وغارقة بالخوف والاحتراس، فالذات القلقة لن يكون بوسعها التفكير خارج دوامة تأمين أبسط الاحتياجات المتعلقة بالبقاء في الحياة، مجتمع محكوم بالذود عن نفسه وبالانتقام من مصادر الوجع والأذى، عالم يعج بالخوف والمفاجآت المتعددة، كونه فاقد للأمن الحقيقي، ومحكوم بلصوص يحكمونه وبمرضى نفسيين يكونون ولاة على نعمه ومصيره في شتى رقع الشرق الأوسط، ديكتاتوريات تستخدم العسكر والمخابرات ضد شعوبها لأجل تأمين بقاءها، ليستشري بذلك الفساد والاستبداد وتعم الفوضى في كل مكان من أنحاء البلاد في ظروف أشبه بكابوس ثقيل، يقف الحب منتصباً كرمح في منتصف القلب، يتراءى لـ رودي أن الحب ضعف كبير يحيل قوة المرء إلى يباب، يجعله أسير حلقة مغلقة، لا ينفك من الخروج عنها، فهو يتأمل بعمق حالات الألم واللوعة التي يقاسيها جراء ترقبه لبروين وتحرقه لرؤيتها والمضي معها، هكذا إلى جانب الكثير من الموت والجنازات القادمة من بطن الانفجارات الفجائية، يبعث الحب لوناً جديداً من العبودية والأسر المسمى بالتعلق، فحين يتحكم الحب بالمرء يستبد به ويضعفه، لأن الأسر بماهيته ركون وركود في غلالة ثقيلة تجعل الخطوات نحو الحياة العملية مصحوبة بالصعوبات والعوائق، يقاسي الفرد حينذاك الحواجز والموانع الحائلة بينه وبين الصفاء والاستقرار بمعناه المفعم بالهدوء، وعدم قدرتهم الطبيعية على مزاولة أنشطتهم الاجتماعية وشعورهم بأن الموت قد سطا على أرواحهم، إذ تركهم معلقين

في الماضي والذكريات، في الحقيقة يعتبر التحدث عن الماضي ومحاولات استحضاره إنكاراً للحدث الأليم وتغاضياً عن الغد الموجع الذي يتخلله المزيد من الانتظار وضعف التأقلم وعدم المقدرة في تجاوز المراحل، إلا أن ذلك لا يعتبر شيئاً جديداً، فلطالما يموت الكثيرون ويولد بعددهم مراراً، تلك دورة الحياة والفصول وتسير على الكائنات بأسرها، إلا أن الموت الناتج عن الحرب هو الأكثر فداحة وضرراً على النفسية الاجتماعية، إنها تفتك بالداخل وتنتهك الأرواح وتلقيها على مسارح الصمت والشجن، فتمعن في إغراقها بويلات الماضي والأحداث الغابرة، آلام يصعب تجاوزها بيسر، تلقي بظلالها بثقل فينوء الكاهل عن حملها، وتصبح الأعماق كهفاً مهجوراً سوى بأطياف الموتى ونداءاتهم البارزة في اللاوعي والراقدة في الداخل، حيث تبرز المنامات والمناجاة، هكذا يمعن الكاتب في الدخول لهلوسات المنكوبين وهذياناتهم المصحوبة بذكر ضحاياهم ممن أصبحوا أطيافاً في الذاكرة وشهوداً لحقبة الموت العبثية.

الفن المعبر عن تعددية السحنات، الكاشف لبواطن الشخصيات وطريقها عيشها غالباً ما يقترن بالجمال، حيث يخوض في طبيعة الأفراد ونزوعهم للخيرية، يسبر الأغوار عن مذهب الطبيعية وانغماس الناس في طقوس الدين والعادات التي تدفعهم إلى الانطواء، وفهم العالم على نحو بسيط لا يحتاج للكثير من فك الطلاسم، مستوى التفكير لدى العائلة المنكوبة عادٍ ككل عائلة تعيش بناء على قناعات بيئية ودينية، وأخرى مرتبطة بالحياة القبلية، حيث يعتبر الدين بمثابة المظلة العامة الوادعة التي يلتف الناس حولها على نحو مسالم وغير عدواني، حيث تحل الأوهام والأساطير الدينية في عقول الناس الذين لم يتسنى لهم الوقت بحكم ظروفهم إلا الاعتكاف على القراءة والبحث وتكريس النفس للمعرفة، فمن الطبيعي أن ينجذبوا للدين على نحو فطري دون أن يتمكنوا من قراءة كتابه جيداً، وإنما يمارسون تقربهم من الله على نحو عفوي دون منهجية، لا يميلون للعنف وليس لديهم مشكلة مع الآخرين، إذ بإمكانهم

التأقلم سريعاً كونهم لا يتعاطفون مع قناعاتهم الطبيعية على أنها إيديولوجية سياسية وطريقة تسوغ لهم العنف مقارنة مع البيئات العنيفة، فالذين نمى لديهم الدين بطريقة عنفية، حالت دون أن يتأقلموا مع غيرهم، مما يفسر استطاعة داعش أن تحتل بيسر المناطق ذات المكون العربي بيسر، كون هنالك حاضنة شعبية لهم وأساس عدائي يجعلهم قادرين على تشرب العنف واحتواء فكر القاعدة الجهادي، لذا فهنالك فارق بين التدين الكردي والتدين العربي، فأحدهما فطري غير مؤدلج، بينما الآخر عنفي مؤدلج مقترن في السلوك والتمايز بين المحيطين، ليتشظى ذلك التدين إلى فئة تحارب التطرف وأخرى تنتجه وتحتضنه، إلا أن التطرف الديني لا حليف له ولا حاضنة حقيقية، كونه يعتمد على ترويج القتل وتمجيده وإرغام الناس على رؤية مشهد قطع الرؤوس وبتر الأعضاء، كي يتم نشر الرعب والدماء وتلقين الجماهير الخوف على نحو فظ ومباشر باعتباره الوسيلة الأفضل لكبح جماح الناس وإلزامها بالخضوع إلى أمد، فالإرهاب يستمد فعاليته من منطق الإسلام السياسي التاريخي الذي ظهر في عصور مختلفة اتخذ منه الساسة السلطويون بالتحالف مع رجال الاقتصاد وسيلة افتعال للأزمات وتطويع النصوص الدينية لمآربهم بغية زج العقل الفردي في المعتقل وإلزامه على الصمت إكراهاً، بل والضغط على الفرد ليكون جزءاً مشاركاً في عملية الإرهاب، وهكذا يتم خلق الصراع ليستفيد منه الكبار ممن أرادوا ان تكون رقعة الشرق الأوسط ميداناً لتبديل الخرائط وكسر الرؤوس المرفوعة في الهواء.

الحرب الناشبة في سوريا أحالت كل رقعة جغرافية إلى ساحة تنافس وصراع نفوذ روسي أمريكي تركي إيراني، وبذلك لم يتعظ العالم المتمدن من تجارب الحروب السابقة التي أفضت إلى قتل ملايين البشر وتدمير بنى بلدانهم التحتية، وتشريد ملايين آخرين، ولعل الحروب بالوكالة تعد الأسوأ على الصعيد الإنساني، حيث لا

تتسع الرواية لقول الكثير من دراماها للناس، لاسيما أن هؤلاء البشر يعايشون الرواية ويدركون كل ما سيأتي.

لقد بدء عصـر الرواية بقوة، نتيجة ارتباطه ببروز الحروب والأزمات الكبيرة إلى جانب تعقد الإنسـان واضـطراب العلاقات الإنسـانية إثر طغيان الحياة الاستهلاكية في تركيبـة حياة الناس إجمالاً، وما يعكسـه وقع الانفجار على القلب، الإحسـاس وما ينجم عنه من حبور وهلع، ترصـده اللغة لتفهمه في سياقها الواقعي والمتصل بالنفسية وإشـارات الاقـتراب مـن النهاية، الواقـع الذي يتخللـه الحب، إلى جانـب الرغبة في التضـحية، الاندفاع لمقارعة الرعب عبر تقنية الشـجاعة والتشـبث بالقيمة الأخلاقية في توطيد الصلة المتينة ما بين الحب والواجب، العشق للحبيبة والوطن، رائحة البارود وشـواء الجسد البشـري، يشـيران لتغول الفناء وإحاطته بجوانب الحياة كافة، إيذاناً بمرحلة جديـدة عنوانها المواجهة وإبراز الهوية الكردية بوجه عوامل الطمس وضـياع الإنسان، الكاتب حليم يوسف شديد الإحاطة بالحدث وبيانه استناداً لمعاناة الشخصية ومعايشـتها لكل ما يجري، هذا في الواقع يسـهم في شـد الانتباه للحياة وسط مجتمع عميـق الصـلة ببقاءه، وقد وجد نفسـه بمواجهة العدو المهدد لوجـوده، فالجميع يأمل التغيير، ويأمل قطع المسافات بسرعة ومواصلة الجري، وشجرة الجوز سلطت وجودها المؤنسـن في الرواية لتشـارك المكان والزمان، حيث مواصلة سـرد التفاصيل الساخنة الراصـدة لغمار المواجهة المتحدثة عن الحقبة الزمنية لكفاح شـعب غربي كردسـتان بمكوناته الفسيفسائية الأخرى، ريما، بروين، إزاء الحدث تنفكان عن بعضيهما حينما يتعلق بالبحث عن مصائر المتعلقات بهن على حدة، أمام بروز حدث الإنفجار الدامي، شـجرة الجـوز لها معان تشـير إلى التجذر والأصـالة، تتفـرج بعين مهتمة لسـحنات الأشـخاص، لما في ذلك مـن إثارة وجدانية ترصـد طبيعة النفس الإنسـانية وإدراكها العميق لقيمة الزمن و للتبدلات المتسـارعة العاصـفة بالداخل الإنسـاني، وهذا بدوره

يؤثـر في الإدراك العقلـي للفرد والحياة وفقـاً لما يبرزه الحدث ويعطيـه للفرد المتأثر، وهكـذا فطبيعة الصـراع وأدواته محكومة أيضـاً بـأن تتغير حين يتعلـم المجتمع مدى حاجته للظهور بمتانة في مسرح الأحداث.

إن صـناعة الواقع الأفضـل عملية معقدة وصـعبة وتحتاج لهذا التكاتف والتشارك المصـيري في البروز الأقوى مقابل الغزو الوحشـي الذي تتعرض له، ليتبين لنا تصارع قوتين إحداها ماضـوية غارقة في بطون التاريخ وهدفها إعادة التاريخ المتغطرس لدفة الحاضـر وعبر الإجرام، والأخرى متشبثة بقيمها المستقاة من التعايش السلمي وعشق الحيـاة، الجنرال حمو وقصـة جنونـه، وتقاطع الآراء حوله، فمنهم من رأى أن سـبب جنونه هو شـكواه من العقم ولرغبته في أن يصـبح أباً، ومنهم من رأى أن سـبب ذلك هو تشـبثه برمزية الضابط العسكري مستنداً إلى صلة والده بالرئيس السوري السابق حسـني الزعيم، إلا أن شخصـية الجنرال حمو متصـلة بطبيعة الواقع وحالة الحرب الداخليـة، فكل الشـخوص هم ألوان مختلفة تقيم في صـلب لوحة فنيـة للحياة، حيث يجري ذلك الحديث مع الاستعداد لجولات قادمة من الدم والبارود والحب.

رائحـة الانعتـاق من العبودية تتعـزز بقيم الانفتاح المجتمعي على بعضـه الآخر في حقبـة الحـرب الداخلية المتجليـة في التفاف الأفراد حول مصـائرهم والـذود عنها، وتتجلـى أولى نزعـات الـبروز للأمام مـن خلال الخروج عـن نظام الدولـة القمعية، والخـروج بمظهـر المنتفض، لكـن ليس بنمـط عفوي وفوضـوي، بل بطريقـة منظمة وقـادرة على تحويـل الحراك إلى حالة راقيـة معرفية، ونبذ نظريـة الحاكم المطلق أو السـلطة الشمولية العاقرة والتي لا تنجب إلا الفوضى والدمار، وهكذا تنهض التجارب الإنسانية في ظل النزاع لتتحول المجموعات المؤمنة بالتغيير لنواة إصلاح، ويتعزز ذلك من خلال نزع فتيل الخوف من قلب المجتمع، بزرع الثقة في ذات الفرد واعتباره محوراً صحيحاً يمكن الاعتماد عليه في التغيير والبناء.

ومما لاشك فيه فإن الانتفاضة تتخللها مراحل تتضمن كبوات وانجازات تصب في النهاية لصالح المجتمع، مهما دفع من فاتورة باهظة في سبيل الاعتياد على التصادم مع قوى الغطرسة والجمود، لا بد من تطوير مفهوم الثورية وإلا كانت وسيلة لاجترار سلطة أكثر رعباً، فمعظم الاشتراكيين الذين تبجحوا بمفهوم الثورة، تسلقوا على رغيف خبز الشعوب وسطوا على أحلامها في الدمقرطة والحريات فأنتج أرباب الثورة، مجلس قيادة الثورة (صدام حسين) وأتوا بعد انقلابات "حافظ الأسد" واضطهدوا المعرفيين وزجوا الجماهير في عزلة خانقة.

إن حصاد الاشتراكية الثورية في الشرق الأوسط بائس، لهذا نجد أن غربي كردستان يمر بمخاضات جمة يسودها القلق من التهديد الخارجي والانقسام الداخلي الكردي بين معتد بتجديد التركة الاشتراكية، وبين مرتهن لقرارات الاستخبارات التركية، ولا نجد ضوء يلوح في الأفق، لربما يسنح الضغط الدولي الأوروبي الأمريكي لميلاد تجربة غربي كردستان على غرار جنوبها الفيدرالي الهزيل، حيث أن أعظم الثورات تتمثل في تحطيم صورة الإله الدموي في تنظيم الدولة الإسلامية، وكذلك عبر مناهضة معقلي الإسلام السياسي بشقيه السني والشيعي والمتمثل في دولتي تركيا وإيران، ذلك لا يقع على عاتق الكرد وحدهم، وإن كانوا رأس حربة التحالف الدولي في الشرق الأوسط، وإنما أيضاً شعوب المنطقة التي عانت تاريخياً من العثمانية والصفوية وذاقت سياط العبودية مراراً على يدها، حيث ها هي اليوم تنشب مخالبها بتوحش في كل مكان، بكل أحلام المجتمع ورغبته في رؤية هيكلية أفضل لحياته، تخلصه من واقع الاستبداد القومي، يبدأ المضي بلا توقف لأجل تحقيق هذا الهدف، إن تحول العالم لقرية صغيرة بفضل عبقرية المعرفيين التقنية، تساعد على نقل كل شيء أمام أعين العالم عبر الكاميرا ووكالات الإعلام المتعددة، ولا شك أن ذلك يحدث بالتزامن مع الثورات الذهنية والقفزات النوعية، فلا مجال للقوالب الشمولية إلا ان تنكسر أمام انفتاح

العالم على بعضــه البعض. المعرفيون عوليــون في روحهم ونظرتهم للحياة، وتنظيمهم يخلق عهداً جديداً من تبدل الخرائط والمفاهيم، إنهم الآن على الطريق الصــحيح في تدمير الوثن الحزبي والشمولي ووقف استشراش الرأسمالية المطلقة، حيث يثير حليم يوســف من حوادث بسيطة جداً تساؤلات جمة، لا يفك مرموزها سوى من خبر الإيغال في أدغال التأويل والتفكيك، وهنا نحاول أن نفهم لغة الكاتب، عواصفه، انتقاله المفعم بالانســيابية من حدث لآخر لتجســيد واقع كردي يؤســس نفســه ويؤرخ لمرحلة جديدة عنوانها نشدان الديمقراطية الجوهرية، حتماً وراء حديث الكاتب عن مواجهة المجتمع للتطرف الديني، الكثير من المراميز التي تقودنا لإيضــاح قضــايا عديدة عبر كشفها، فعلــى الرغــم من أن العالم قرية صــغيرة، إلا أنه ثمة من يغرد خارج ســربها، فيندفع بخيالــه التاريخــي لرؤية امبراطوريــات دينية وأخــرى قومية، غير آبــه بالواقع الذي ينــزع للأمان والحياة الأفضــل، فيجيش العواطف العنصــرية إعلامياً ويحيي خطاب الكراهية، أما شيوخ الفتاوي فقد أسرفوا في الإمعان في غسل أدمغة القاصرين والفئات المعانيــة للفقر والبطالة، وأخذت تمعن في زجهم في معارك دموية وحشــية، إلى جانب انتشــار بيع السلاح من قبل الدول الكبرى كروسيا وأمريكا وألمانيا، غير آبهة بالكوكب الذي يعيش عليه ملايين البشــر، إنها نتائج انعدام المسؤولية الأخلاقية لهذه الدول في تسويق الدمار والاستفادة من أزمات الشعوب بغية إشباع جشعها الربحي.

بنزق ذكوري يعبِّر رودي عن هواجســه بشــأن حبيبته، وخوفــه الدائم من أن تحيد بروين عن عشــقها له في يوم من الأيام، فيفكر في تركها وإدارة ظهره لها، على الرغم مــن حالة الــدفء التي يحس بها إزاء بروين، حيث ســرق منها قبلة تبــدو وكأنها أتت عنــوة، حيــث لم تبدي بروين رغبــة أو مانعاً إزاءها، لهذا نجد الحــب اختباراً للداخل ومسرحاً لتناقضات النفس الإنسانية المكتظة بالرغبات والغرائز، ومشاعر الإحباط أو الثورة ضد القتامة والرتابة في الحياة المعيشة، يرصد الكاتب بعين مرهفة حالة الحب

تلك داخلاً في حيثيات العلاقة على نحو عفوي وبأسلوب سلس واضح، يحيط بجوانب المكان، مستفيداً من ذلك المونولوج الدرامي الذي اختاره لكل شخصية لتتحدث على حدى بما يدور في أروقة المكان من حب وحروب وويلات وأفراد منسجمين ومتماهين مع البيئة والحياة العامة، رغم طبيعة الحياة المتأهبة أبداً لتغييرات متسارعة، بيد أن ارتباط الرجل بالمرأة ظل وسيلة مضادة للظروف والمعرقلات البيئية، حيث يتعرض الرجل لاختبار فكري في مدى تفكيره بماهية الحب وسد عقدة النقص، وسيطرة العوائد والتقاليد المربكة لصيرورة الحياة الخادشة لدينامية العلاقة بسبب التعلق والأدمان، ذلك الاعتياد يولد التشنجات النفسية ويزرع البلبلة في حال تعذر الوصال على نحو يأمله العاشق في أحلامه بالتملك، تفصحان عن حيرة عميقة تنتاب رودي، تعصف الهواجس في داخله، ويمتطي ذهنه ألف عفريت، يعيش في دوامة من تخبط، تقوده إلى متاهة تحتوي التناقضات التي تنحاز للغوامض الدفينة والعوائد الغريزية.

تجسد النفس الغامضة التائهة على مسرح الخيارات وصراع الرغبات المحتدم، إنه يحب ويتملك، يغضب ويرغب، تحيط به الغرائز الحسية وأمواج الغضب والغيرة إلى جانب القلق والضياع ونوبات البكاء، هنا يذهب الكاتب مذهب تفسير الحب، نشأته والسعي إلى فهمه، فهم القبلة وارتباك بروين، حيادية المشاعر في المشهد الحميمي، تصارع الأفكار والهواجس داخل عقل المحب، وكلما يقع الفرد المدرك في الحب، يتساءل ما هو الحب، كيف يغدو ضماداً للنزيف، سلاحاً في الحرب، حلاً للتخلص من العزلة والوحدة والاغتراب، إسلوب حياة، أو فناً يسحر الألباب ويثير القلوب ويحيط بتفاصيل النفس وأحلامها وقدرتها على الاعتكاف في مغارة الصفاء والتأمل المركز للعالم، فسعي الفرد للجمال والحب يحول دن تخبطه في قاع الهواجس والانفعالات، ويمثل نزوعاً حقيقياً لمحاكاة الوجود والتماهي به حد الغرق عشقاً، أما المرأة هنا

فوقود طبيعية بمواجهة الموت واندفاع للعالم، يتسم بنوعيته وتمايزه وانضباطه بالقيم المشتركة للمجتمع المنظم.

يقوم الإنسان بالتشبث بالمرأة الحبيبة، لأنها الرحم الثاني القادر على إيلاءه وإخراجه من السبات للحياة، لهذا نجد أن عملية البحث عن السعادة تمر بمخاضات عديدة، يسودها القلق من الموت أو زوال الشعور بالسعادة والغبطة، فخوف المرء من الفقد أزلي ويضعه بمواجهة ذاتية مع نفسه، ترغمه في أحايين كثيرة على التصرف خارج ما يعتقده صالحاً، لهذا نجد العاشق أكثر هياجاً ورغبة في محاكمة الأشياء والتدقيق في كل شارة وواردة فيها، فيتم إطلاق العنان للخيال بأن يسوس الروح ويقوض مضجع الإدراك والواقعية، حيث تختلط الأحاسيس والإدراكات، بعضها ببعض، ليكون المرء ضمن حلقة انشداه راح حليم يوسف يسبر أغوارها بحكمة الراوي في سرده للمعضلة النفسية، أخذ الحب كوسيلة جدل وفهم لما يجري داخل الإنسان، وما يعتمله من تناقضات فكرية تراوده وتكاد تنسج أحاييل هاجسية في ذهنه، هذه التناقضات بطبيعتها تسيّر الإنسان إلى عبودية الارتهان لأوهامه دون النزوع الإدراكي لفكره وسموه عبر الجمال والفكر والحب الأقصى، فالمزاج النفسي للعاشق يتسم بالتقلب المستمر تبعاً لحالة الشك التي تسترعيه، وسرعان ما يهدأ بعودته للثقة المحفزة وحسن البصيرة والاجتهاد على التحكم بالهواجس والأوهام وكذلك التأمل للذات على نحو متوازن وصحيح، بهذا الإيمان بالنفس والثقة بها أمكن للحب أن ينتصر وينهض بالإنسان لينقله من طور التفسخ والأذى النفسي إلى طور الإرتقاء والنماء الفكري، فالعبودية ليست قدراً وإنما تحد يقف بوجه الإنسان المعرفي الواهب المنتمي للوجود، وبعناده الفكري وتجاوزه للحواجز فإنه يبصر وجوده نوعياً مختلفاً وفاعلاً ضمن المحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه، هذا الإيمان بالمعرفة والحب يرفع النفس ويجعلها في منأى عن الضياع والاغتراب.

إن الانتصار على الوهم والعبودية يمثل مرحلة تشافي قصوى، تمكن الموجود الفاعل من التحرك بيسر ومواجهة الظروف الصعبة، تجعله يتجاوز ويرتقي دون أن يحيد عن الأخلاق المقترنة بالمعرفة، كون القيم تشغل مساحة عميقة ورحبة داخل النفس الإنسانية وتجعلها قادرة على إتمام مهامها في التنوير والتنمية العميقة للآخرين الساعين للانعتاق من أسر الذات للذات، ومما لاشك فيه فإن النظام السياسي الاستبدادي هو من يجعل النفاق والبؤس والكراهية ألواناً تشوه روح المجتمع التوّاق للحياة الجيدة، والرفاهية المنشودة، وعليه فإن الانتصار الحق كامن في التماهي مع الجماليات، لتصبح جزء من كينونة الفرد الفاعل والمؤثر، مما تنفتح الآفاق شيئاً فشيئاً على عملية الخلق والإبداع وفهم الحياة.

يجسد حليم يوسف واقعاً بائساً من صنع توالي النظم السياسية الشمولية المعظمة للقائد المستبد والملهم، ومجتمعاً يعيش تأليه رموزه بتصوف، ويظهر مظاهر مثيرة للشفقة وبعضها يبعث على الفخر بإرادة الحياة الموجودة في المجتمع، لكنه ينتصر للجانب الصامد فيه ويظهر جوانب الحياة ومآسيها جراء الموت المحيط بالأفراد، هذا التنقل بين المشاهد يحفز الأفكار وينعشها ويدع المتلقي الباحث يحلق ويكتشف فاحصاً نمط البؤس وتركيبته الخانقة، ولعل ذلك مدعاة تفكر وتدبر في أزمات الأفراد ومآزقهم، حيث يجسد الكاتب ويلات الحروب التي يعانيها فقط المدنيون دون سواهم، نتيجة فداحة أخطاء نظمهم المركزية، داخل بلاد منغمسة في عبادة الأوثان الاشتراكية و التي رأت في حقوق الإنسان تآمراً وفي اقتصاد السوق خطأ فادحاً وفي الليبرالية انحلالاً وجوراً، شأنهم شأن الإسلام السياسي الذي بات يستعدي كل ظاهرة ديمقراطية ويعتبرها جسماً غريباً مكتنزاً بالخطايا.

يقف الكاتب وسطاً بين تفاؤل ما مشرع في الذهن وعبثٍ يخيم على مشهد الموت والجنازات، يليه الوقوف على عاطفة رودي المتقلبة تجاه بروين، وسط أنباء عن تقدم

أصحاب الرايات السود واحتلالهم للقرى الواحدة تلو الأخرى، هذا التسارع في الأحداث تلاه تسارع في نبضات القلب والدخول في رهبة هذا المشهد، تدفق الآلاف من الناس الهاربين من قاطعي الرؤوس إلى الحدود، حيث بات الناس واقفين مذعورين بين تقدم التنظيم والجنود الأتراك المرابطين على الحدود، حيث يعبر الأدب هنا عن هذا الخوف والقلق والشعور بدنو الموت من الأرواح الخائفة، وعن طبيعة التصرفات والأفعال المصاحبة لحالة الرهبة تلك، وحديث القسمات والملامح عن الحرب لما لها من وقع على النفسية، وفي ظل أخلاق القطيع، نلحظ تشابهاً في الأمزجة وكذلك ندرة في وجود خاصيات جديدة للمنطق الاجتماعي بسبب تشابه العقول، هذه النمطية العدوة للإبداع والاجتهاد أفسدت روح المجتمع، وعطلت إحساس العامة من الناس بضرورة التحلق حول الأبناء والاهتمام بهم بدلاً من أن يتفرد كل فرد بخياره الخاص دون الرجوع لأحد، وبدء المضي نحو التحرر أو التلذذ بكونه شعاراً يروق للمرأة المضطهدة في الشرق الأوسط، من فوهة السلاح وتحديداً قتال التنظيم المتطرف، للتعبير عن الكينونة المستلبة واحتجاجاً على احتكار الرجل للحرب، شكّل ذلك الأمر تغيراً في منعطف الحقبة المعيشة، ودعت الحاجة حينها لإعادة التفكير بالحياة والأدوار، وبيان دور المرأة الحقيقي في بتر الذكورية الكلاسيكية واستئصالها كورم قاتل، فبدأت حرب التحرر النفسية من خلال مواجهة التطرف وخطره، نبأ شيرين استرعى ذهن جيهان، حيث رن الهاتف لتخبرها: "اسمعيني جيهان نحن في القتال، قولي لأمي، من سيخرج من كوباني ليخرج، أما أنتم فلا تخرجوا"، هكذا بنبرات انفعالية شُجاعة تتحدث بتحدٍ، تأمر وتعي مؤكدة ضرورة التشبث بالأرض كجزء من الصراع ضد مغتصبي الأرض والقيم الإنسانية، فالزمن في تغير مستمر، والحرب الدائرة تصبح ضروس وحامية الوطيس، حيث يتسابق فدائيو الأرض لنيل الخلود مقابل صيحات الجهاديين الذاهبين للموت للقاء بالحوريات، حيث هم عبارة عن مخلوقات بهائمية مدجنة

مهووسة بالعنف والجنس، وفجأة إذ باتصال آخر من شيرين: " أمي متعبة وشيئاً فشيئاً سينشب القتال في كوباني، أمي والأطفال والذين لا يستطيعون القتال ليخرجوا، حسناً جيهان، القتال يشتد يوماً إثر آخر، انتبهوا لأنفسكم، بلغي سلامي لأمي، أقبّل أياديكم"، هنا عويل الأم المفجوعة ينثر تساؤلاته أمام إله رسم قدراً خاصاً بمجتمع يعاني الإبادة منذ قدم التاريخ على أرضه التاريخية، ذلك الصراع ما بين التجهيل الممنهج والدفاع الحماسي عن قيم الجمال والحق والخير، يثبت مصداقيته وجدوى تلازم الحضارة مع حروب الهيمنة على المقدرات، فمعركة كوباني المدمرة تستعر على مرأى العالم، وأمواج البشر المتلاطمة أخذت تزحف باتجاه الحدود هرباً من فلول التنظيم الإرهابي، وقلوب مليئة بالغصص والفجائع الكبيرة تمضي خارج هذا الدمار مستغيثة، إنه العالم المبني على العبث والتقاتل والنزاع، وكثيراً ما نلحظ هذه الرغبة المستميتة في الهيمنة ولقاءها، ونجد هذا النزوع للعنف محفوفاً بدوافع لا أسس إنسانية لها، تكاد تكون ربحية وثمنها باهظ يقدم من قرابينه هؤلاء الجنود المدفوعين لتنفيذ مآرب حكامهم وأفكارهم المعتمدةعلى القوة والبطش وزرع الدمار لتلبية شهوة التحكم بكل شيء يتصل بالحياة، هذا الصراع أربك العقل الإنساني، وقاد الإنسانية نحو طرق مسدودة ومحفوفة بالمهالك والمخاطر الجمة، فغياب الحضارة والتنافس المعرفي كان بسبب هذا اللهاث الربحي والتفسخ القيمي، الذي جعل نداء العقل الإنساني يغرب لصالح هذا التوحش الرأسمالي الفظ الذي أربك معالم الحياة المجتمعية وجعلها مجتمعات مهددة أبداً بالتفكك والتفتت، وتحولها إلى وقود ارتزاقي خدمة لحسابات الدول الإقليمية، هكذا يغدو ميدان الرواية مجسداً للأحداث الدرامية، لتتأسس قاعدة النقد الأدبي بنهجه التأويلي، على فك المراميز الحية الغائبة في متاهة الحدث المسلط عليه الضوء، مسرح يكتظ بالشجون، يعبر عن حقبة الصراع لإثبات الوجود في ظل

هذا التنازع المقيت ما بين السلطتين القائمة والمعارضة وبينهما حراك آخر يتطلع لمسار آخر بغية العيش في ظل هذه التناقضات المعقَّدة على الصعيدين الإقليمي والدولي.

وقد تمكن العدو من قتلنا بواسطة الهرم المدير وانتهاءً بالقاعدة المتفسخة أصلاً، بينما القرابين لا تعلم بأي ذنب تنحر على مذبح المقامرة السياسية، وعلى الجانب الآخر لازال مريدنا الحزبي يشتم ويهاجم المختلف معه حتى ظن الآخرون أنه سيفترسه، بينما بعضهم لازال يعول على حلم الوحدة وتحرير الأرض، وهنا نعني أن هذا المسرح البشري الكردي يعج بفوضى متباينة، رغم وجود تيار البناء والفداء الذي يحاول المضي بالمجتمع لتحقيق تطلعاته في العيش الأفضل، على الرغم من جوقة المنهزمين المنتصرين بالكلام والشاحذين للهمم بالشعارات، حيث يؤمن الكاتب هنا بوحدة رسالة الفن مع السلاح المدافع عن الأرض، كون أن أي حركة تعادي معرفييها فإنها تحكم على نفسها بالموت دون احتضار، لهذا فإن خيار الأدب هو الوقوف مع الوجدان الجمعي للإنسان المعرفي المدرك لطبيعة وضراوة الصراع، حيث يسلك الكاتب إيماناً بحقيقة الوجود الكردي، حيث الإيمان بالصهر أخطر من الإنصهار، فالأول ميت والأخير قد يعود للحاضنة لوضع نهاية لمسلسل فرق تسدّ الدموي، والذي طال تصويره وإخراجه في ربوع كردستان، حيث يتباين الخطاب الأدبي في الرواية عن أي خطاب كراهية رائج في الوسط الكردي المتسم بكونه خطاب لا مسؤول وجبان، وهذا ما جعل التركي قادراً على قضم مدننا بالتدريج والعمل على مشروع الإسلام السياسي المدمر لكل حالة دمقرطة جوهرية، لهذا نجد الثورات في عالمنا مفرخة للطغاة والفاسدين، إن خيار العدميين هو أن يموتوا كالأشجار اليابسة غير المثمرة، وأن يقفوا حجر عثرة بوجه التغيير والأفكار الجديدة المناهضة لأفكارهم الرثة وخياراتهم الكلاسيكية، لهذا فإن مسيرة الفكر النقدي تتحالف مع العمل الإبداعي في خندق واحد ضد قوى الجمود والعنف لهذا نجد حليم يوسف أقرب لثورية الفكر الجديد منها

إلى وصف الجمود والحزن الكثيف، يؤمن بالزمن المتجدد وانبعاثة الصحوة المعرفيَّة وقدرة الإبداع على تخطّي كل تحجُّرٍ أو جمود.

◆ معركة كوباني في عيون رواية الطيران بأجنحة متكسرة:

تعاد رسم الخرائط في المنطقة، وحينها لابد من أن تتغير التركيبة الديمغرافية وتصبح الحياة مضطربة، والمجتمع محتم عليه أن يجابه وينظم نفسه احتراساً من أمواج التغيير الديمغرافي ووجود عداء اقليمي بائن لشعب كردستان يفرض عليه التوحد، لكن ليس بوجود زعامات روحية تضع برامجها الإيديولوجية الحزبية على حساب الأمن الكردي الاستراتيجي، إلا أن المعركة ضد التنظيم المتطرف رجحت خيار المواجهة الميدانية بدلاً من الإنشغال بترتيب البيت الداخلي، حيث يصور حليم يوسف التناقضات والحيرة المتشعبة في صفوف الناس إزاء توغل الجماعات الجهادية المندفعة داخل المدينة والتي راحت تسن سيوفها لقطع الرؤوس دون رحمة، في كل زاوية وشارع وحي وقرية، راحت تدمر كل ما تصادفه، وفي تلك الظروف يقوم الناس بمختلف شرائحهم وأعمارهم بتجنيد أنفسهم لأجل مجابهة هذه الحرب الشرسة، حيث استعد الآلاف لمواجهة هذه الهجمة الغادرة، والبعض آثر التشبث بتراب الأرض على أن يخرج منها، حمل السلاح والانضمام للقوات بات واجباً مقدساً، والتمسك بغريزة البقاء والملكية تحتم على الناس أن تتشارك في معركة الدفاع، ففي هذه الحالة لا شيء يلوح في الأفق سوى ما يتعلق بصون الحياة وضمان البقاء والملكية، يلتقي الطرفان ليحملا في داخلهما ايديولوجية، أحدها توسعية تاريخية ترى في الدين وإعادة إحياءه سياسياً واجباً حتمياً يستدعي تدمير كل مخالف لها، والأخرى تحارب لأجل الأرض والوجودية المهددة تاريخياً بالانقراض والاندثار، ويتعلق ذلك بوجود الكرد كمكون قديم في الشرق الأوسط، فإحياء العسكرة الإسلامية يعني بروزاً للإسلام الجهادي كونه وسيلة أفضل

لخلط الأوراق والتحكم بالموارد المائية والنفطية، فالعثمانية الأردوغانية تم تثبيتها بعد أن برز تنظيم الدولة الإسلامية وتوسع وانتشر بسرعة، وكذلك أصبحت المعارضة السورية طعماً سهلاً للأسلمة الأردوغانية المفروضة عليها إلى جانب استفادة إيران منها ودعمها لشيطنة المكون السني واستهدافه طائفياً وبصورة مباشرة من خلال داعش الذي لم يستهدف الشيعة أو عناصر النظام السوري، وإنما استهدف العرب السنة وحدهم، وكذلك تم توجيهه بدهاء نحو المناطق الكردية في كل من جنوب كردستان العراق، وغربي كردستان سوريا، وكذلك استهداف الكرد الإيزيديين في شنكال، وهكذا ظهر داعش كعامل أساسي لرسم معالم جديدة للشرق الأوسط الجديد، بصعود كردي غير مسبوق كرادع أساسي وحليف قوي للتحالف الدولي في عملياته ضد داعش، بعد معركة تحرير كوباني على وجه التحديد، لهذا سلط الكاتب حليم يوسف النظر على البسالة الجماهيرية، عمد إلى تصوير البطولات الفردية على اعتبارها المعادل الأساسي للتفوق الروحي لشعب غرب كردستان.

ترسم الخرائط بالدماء دون أن يكون في حساب اللاعبين الكبار خراب المدن وخسارة الشريحة الشابة، فيكون إنهاء حرب داعش مقابل 11 ألف شهيد، ويكون ثمن عفرين مقابل الغوطة، ويكون سري كانيه وكري سبي مقابل إدلب، وهكذا تقسم مناطق النفوذ، ويكون على اللاعبين الصغار تنفيذ السيناريو دون نقاش، وتلعب الدول الكبيرة لعبتها بواسطة القوى المحلية لتخوض حروباً بالوكالة، عرضها الحصول على المكاسب والامتيازات في دولة مصطنعة كسوريا التي باتت ميداناً راهناً لتصفية الحسابات، ذلك التنافس الدولي لا يتم إلا في دول منهكة مفتتة، وهذا المد التركي الإيراني، يكشف عن تنافس متصاعد فيما بينهما، توجهها إليه كل من روسيا وأمريكا، وهكذا تغدو هذه الحروب رائجة في سوريا، العراق، اليمن، ليبيا، الصومال، ولبنان، ويتم تقاسم النفوذ، لتنمو عبرها ظاهرة النزوح والهرب من الجحيم الدائر، فالأزمات

السلطوية باتت جلية، والانهيار الاقتصادي يطل كشبح مخيف بات النتيجة المعلنة التي تعد وسيلة استكمال تنفيذ المآرب الدولية الذي هو نهاية المطاف، بعد تفتيت المجتمع وإحداث الشروخ العميقة، فبعد نموذج الدولة المخابراتية، حدث التفتيت والانهيار وإذكاء الفوضى لضمان الهيمنة والقدرة الدائمة على التحكم، ويكون على المجتمع المسحوق فيما إن أراد البقاء أن يقف بمواجهة الفساد والاستبداد المافيوي الذي ستمارسه السلطات الوليدة عن تفسخ الدولة وانهيارها غير المعلن، لذا نجد القرابين البشرية تتوالى والنزوح يستمر، والعجز الاقتصادي يطل كشبح مخيف، ويصبح اللهاث خلف الصراع شيئاً ليس بالإمكان إيقافه، فالدول الاقتصادية لا يمكنها إخماد جشعها ورغبتها في توسيع نفوذها، لهذا فالذي يشعل النار لن يكون بمقدوره إطفاءها في أي وقت يريد، لهذا أصبح لزاماً على الدول الراعية للفوضى والأزمات في أن تمضي في طريقها ولعب أدوراها دون تراجع، وهكذا يتشظى دور الأدب ليكون حليفاً للإنسان ووجدانه خارج شراسة هذا الصراع ومرتبطاً برغبة الإنسان في الحياة المثلى المتحققة في الإرتباط بالجمال والفن والقيم الأخلاقية، إذ بدونها تصبح الحياة عبثية ضارية تصارع لأجل لا شيء وإنما لتنشر الخراب والويلات دون حل يلوح في الأفق، فتغدو الحروب المتلخصة بقصة البقاء على الأرض مسرحاً للأدب ليوثق أخبار وحقب الأمم في النهوض والصراع لأجل بقاءها متسلحة بإيمانها بأصالتها وثقافتها وقدرتها على الاستيطان في مواقعها، هذا ما يدفعها للذود عن نفسها ودفع فواتير الحرب، ووعي الكردي بقضيته أصبح أمتن من أي وقت مضى، ولا تنهض الأمم مالم تتجاوز تلك التحديات المفروضة على وجودها، ولكي تبقى ويكتب لها الانبعاث فإنه ينبغي لها أن تستشرس في الدفاع عن مقدساتها وتحتل الجانب الأبلغ في رحلة الصراع نحو الأفضل عسكرياً وفكريًّاً وقوميًّاً.

إن التأمل في جوهر الصراع النفسي الذي يعتمل النفس الإنسانية يجعلنا نشهد صراع المتناقضات المتعلقة بالمزاج والعاطفة، ناهيك عن الأفكار المحتدمة في العقل، كل ذلك يسهم تحديداً في رسم مسار الفرد وتحولاته السلوكية بوجود العائق في كل مكان، ففهم السلوك يندرج في إطار العوائد المستقاة عن البيئة وتعامل الفرد مع محيطه استناداً إلى جملة مؤثرات اجتماعيَّة.

إن محاربة الإرهاب يعتبر عملاً صعباً يمتاز بجسامته وخطورته واستنزافه للموارد والبنى الفوقية والتحتية للمجتمع، وبالنظر للمجتمع الكردي، نجده منهكاً بفعل عوامل الإبادة الثقافية والجسدية الممارسة عليه من قبل الحكومات القمعية القومية، ولديه وظيفة أكبر من إمكاناته، تتمثل في مواجهة تنظيم الدولة الإسلامية، ومدى قدرة الأخيرة على مخاطبة العقول بخطاب تاريخي إسلامي يجعل الجماهير المحقونة بإبر التدين التقليدي تلبي هذا النداء مستجمعة كل الشرور والجنون الكامن في نفوسها.

هنا نجد جانباً آخر من تعريف ليس بجديد يتسم به الإنسان، كونه مجبول على الاستياء والغيرة، حيث يحاول الظهور بمظهر التسيد بين المحيط الاجتماعي بأي شكل، لهذا يتخذ العنف والإيديولوجية وسيلتين للهيمنة وإنشاء النظام الخاص به، بل إنه يتصف باللاتسامح حينما يصل لمبتغاه، فيحارب كل الأصوات المختلفة عن رؤاه وتوجهاته باعتبارها نشازاً حسب اعتقاده ووجهته، لهذا نجد أن سمات الجهاديين حسب حليم يوسف أنهم متطبعون تماماً بخصال الوحوش الذين يسارعون لقتل الناس كونهم مرتدين عن الدين حسب وصفهم، ويجب نحرهم وجز أعناقهم وصلبهم، نلحظ هنا مدى الاستسلام لغريزة العنف والتلذذ بالألم والاستمتاع به، ثم تخدير العقل بعد غسله بشيئين وهما الجنس والعنف لما لهما من قوة وجاذبية تستطيع توجيه الإجرام الفردي المصحوب بإيديولوجية دينية اسلامية تعتمد على القتل والقتال، إن شراهة المرء للعنف تقوى بوجود المحفز الديني المحرض للعنف بوجوب نص مقدس واضح

لا يحتمل اللبس، فهي توقظ لدى المتطرف شـهوة تدمـير المخالفين، هذا التطرف يتم توظيفه لتهديد دول وشـل اقتصاداتها واسـتنزافها وكذلك تعمل على تحويل الكراهية لمذهب حياة، الأمر الذي يضـمن وفرة معامل السلاح والاستفادة من بيعه، حيث تقوم أمريكا، روسيا، الصـين وألمانيا وفرنسا بتصدير السلاح وتصنيعه عالمياً، الأمر الذي يشـير إلى أنه لابد من وجود بؤر عنف مسـتدامة كي تتمكن تلك الدول من الاسـتفادة مادياً، حيث لا تأبه لا بالقيم ولا بالأخلاق فالمنفعة المادية أولاً، ولا معنى للإنسـانية إلا في الأدبيات التي آمن بها المعرفيون عبر توالي العصور، حيث ذلك السد المنيع الفاصل بين قيم الإبداع الأخلاقية وذلك الجشـع السلطوي المنحاز للعنف والوحشية المتجددة، فكلما أراد المعرفي المفكر أو الفنان أو الصـانع تشـييد الجسـور بين الثقافات والأمام، قامت السلطات عكس ذلك بهدمها وتقويض الروح الحضارية القائمة في الوجود، ولعل أول أثر للحضارة الإبداعية يتمثل بهندسة الوجود الماثل أمام أبصارنا.

◆ جدلية الحب والحرب:

شـكل مجيء البيشـمركة لمسـاندة قوات الحماية الشـعبية مرموزاً لقيمة الاتحاد الكـردي، والـذي تم أثناء التصـدي لتنظيم الدولة الإسـلامية إبـان محاولته لانتزاع كوباني وفرض سـيطرتها عليه، وقد عبّر الكاتب عن ذلك على نحو يبين التوق الشعبي لهذا التلاحم المصـيري في كسـر شـوكة التنظيـم وإبعاد المدينة عن خطر سـقوطها، وعـن تداعيـات قرب سـقوطها، كما تداولـت ذلك الأقنيـة الإعلاميـة التركية، وعن رغبـة الأخـيرة في هزيمة الكورد وانهيـار مدينتهم، عبّر الكاتب عن وحشـية التنظيم الإسـلامي وقتاله اللا أخلاقي فعلى الرغم من محدودية قوات البيشـمركة ودخولهم بعـدد رمزي، إلا أن ذلك أعطى للقوات الصـامدة عزماً وروحاً معنوية، لهذا فلا يبدد سـوى الحب فظاعة الحرب، بل لعل الحب يكسـر رهبة الموت، ولايدع العاشق إلا حالماً

ومتعلقاً بأمانيه، هذا ما يبديه رودي وهو يسرد المحيط الخارجي والنفسي لشخصيته، هنا اختار الكاتب شخوصاً يعدون أبطالاً للرواية على التساوي، يتحدثون عما يعتريهم ويرصدون كل ما جرى في تلك الرقعة الساخنة من الوطن، بأسلوب لا يبعث على الرتابة بل على حس الاستكشاف وتعقب الحدث، ففهم النفسية الاجتماعية وكيفية فهمها لإدارة الأزمات الإنسانية واحتواءها للفظائع والكوارث الناجمة عن الحروب بالوكالة، تلك الحرب تقف كتحدٍ وعائق أمام ممارسة الحياة الاعتيادية، وتجعل المرء يوغل أكثر في التمعن بالموت، إذ في فقد المقربين تنبثق حكمة ما تتعلق بفهم قيمة الحياة والعيش فيها، وكذلك قيمة التفاهم مع البشر لما يعتري الوجود من صدف ومفاجآت تغير المصائر والعقول وتفتح الأذهان، إذ أن الحدث يصنع الرأي مع تقادم الزمن، هذا ما يوحي إليه الحديث الداخلي المنبعث من الرواية، إذ هي محاولة من الكاتب لفهم صلات الإنسان النفسية بالآخر في زمن الحروب، فكلما تكالبت العوائق والصعوبات نزع الإنسان إلى التفكير والتدبر في شؤونه، وكذلك يباشر الخوف ولوجه لداخله، وبمعزل عن الخوف هنا، فإنَّ ذلك الحب المؤكد للرهبة والمقاومة ودفع الخطر وبذل الجهد لفهم طريقة العيش، أحاديث المقاتلات والمقاتلين تكشف لنا عن سذاجة الفكر الجهادي وعته الدماغ الباعث على الصدمة والدعابة معاً، هنا يتجلى غسيل الدماغ وحشو ذلك العقل البليد بمحفزات الخطاب الديني المتطرف، كي يخرج الفرد بعدها وحشاً بهيئة تكاد تشبه البشر، ووفق ذلك القالب ثمة الكثير ممن يرمزون لاتساع الشرور معبئين بالتطرف، يقادون كالنعاج والحيوانات الشاردة ليكونوا أداة لتغيير الخرائط والنظم ومسرحاً لتصفية حسابات الكبار.

إنها الحرب تنهش الحب وتثكل العشاق، ثم تجعل منهم فتاتاً يقتات منها المجتمع أشعاراً، أغانٍ وروايات، ظروف عصيبة تحيط بشخوص الرواية، وهم يتحدثون على حدى ليبينوا ما حدث في رقعة منسية اسمها كوباني ظهرت بغتة وباتت رمزاً للصراع

مـن أجل البقاء ضـد قـوى الإبادة، هـؤلاء التاريخيـين وبكامل أحقادهـم وذخيرتهم السـامة من بلاغة وتفقه في نص القداسـة، أخذوا يطبقون حرفياً ما أوتي في القرآن تبعـاً لفهمهم وقطبهم المتجدد، وينشـرون الويل والفزع حيثمـا ولوا الأدبار، نلحظ أن التطـرف يندفـع لمحاولة قتل الحياة ومعنـى التعايش وحس المسـالمة بين المجتمع، هذا التطرف الديني الذي جسـده الكاتب في إطار حديث المقاتلين الكرد عنه يأتي في إطار التهكم والسـخرية لمسـتويات التفكير لـدى الجهاديين، ممن يهربون إن سـمعوا مثلاً زغردة امرأة مقاتلة، لاعتقادهم أنهم سيخسـرون الجنة إن قتلوا بيد امرأة، يتوضّـح هنا ذلك التمايز بين فكر دفاعي وآخر أتى من ظلمات التاريخ الوحشـي، وهنا تصـبح السياسـة وسيلة لاجترار العنف وتهديد البشـر الآمنين، هذا الميراث الديني السياسي يتسـم بغنـاه وقوتـه البلاغية وإفحامه في الخطـاب الذي هو مزيج مـن تحريض على العنـف والبلاغـة المتحكرة للفضـيلة والمعبرة عـن التوجه للحرب بأن مـن يحارب هو وكيل لله ومعتمد في نشـر تعاليمه الموجودة في القرآن، ليس الكتاب فحسـب، إنما كبار الأئمة الذين يرون في الجهاد وتطبيق الشريعة بالقوة وسيلة مقدسة، ولابد منها لنشر الإسـلام كما كان السـلف يفعل ذلك وكان بذلك قد وصـل للعديد من البلدان واصـفاً غزوها بالفتح، فارتباط القداسـة بالعنف يعتبر أصـلاً للشـرور، هذا الإيمان الأعمى وضـع العقل في معتقل، وألبسـه عباءة الظلامية الدموية، والسبات الثقيل، حيث يعتبر الدفاع عن قيم البقـاء والتعايش المجتمعي ردة فعل ممنهجة وهامة بوجه التاريخيين، كون ذلك موضـوعاً للرواية الوطنية المجسـدة لكفاح المجتمع في التخلص من الهيمنة السـلطوية والدينيـة في آن معـاً، فترسـيخ الوعي الـرادع للظلامية الإسـلاموية بالغ الأهمية، ويغلق الطريق بوجه أسلمة المجتمع وضياعه في التاريخ، من حيث انغماسه في الطقوس التي قادت العقول إلى الخواء والانغماس في الأسر والتبعيَّة.

المعركة مع المتطرفين ليست بالأمر السهل، الاستيلاء على قلب المدينة بعد معارك طاحنة رسمت ملامح صراع جديد، يتسم بنصر أصحاب الأرض وتجديد ارتباطهم بوطنهم وتسابق الفتيان لنيل الشهادة لما لها من رمزية هامة في حياة الشعوب استناداً لمثل كردي شعبي، "الثور يموت، الجلد يموت، الرجل يموت والاسم يبقى".

إن انتزاع وسام القيم يعتبر هدفاً قيّماً يضعه المدافعون عن البلاد نصب أعينهم، ويجدون في تحصيله سعادة داخلية ونشوة تضاهي النصر: "في أيام السنة الأخيرة، وبينما العالم كان مستغرقاً بالحفلات، والمفرقعات النارية تملئ سماء أرجاء المعمورة، وحدها سماء كوباني، امتلأت بإطلاق الرصاص والمدافع القاتلة المخلفة خراباً وراءها، حيث تزينت سماؤها بها، في ذلك الليل، لم يدع الملتحون شبابنا وأطفالنا أن يكبروا في السنة الأخرى، فرغم تحرير المدرسة السوداء، إلا أنه لم تبقى سعادة لأجل السنة الجديدة، متصفح ومتابع الفيسبوك باهوز هوران كان ينتظر الأنباء الجديدة حول كوباني، فبدلاً من أن يقرأ نبأ تحرير المدرسة السوداء، قرأوا نبأ رحيله، انقضت السنة الجديدة بنبأ رحيل الناسط الفيسبوكي الشاب، الذي جعل من صفحته نافذةً مفتوحةً على كوباني المحاصرة بين النار والخراب والدم، كل فرد من ناحيته كان يؤدي تحيته: مع السلامة باهوز هوران، سلاماً لكل شهداء كوباني، نفخر بكم.."

هذه الحرب، حربٌ بين قوى البناء والهدم، بين المعرفة والخرافة، بين أصالة الجذور وعنجهية الهيمنة على المقدرات، وتحتاج أن تتبين معالمها أكثر في الساحة الأدبية ولا سيما الروائية، فلا شيء سوى الكتاب بإمكانه أرشفة الحوادث والاعتبار من مغازيها بغية صناعة ذاكرة كردية أدبية تحمل ما ينوء التاريخ عن حمله، حيث تعريف الجيل القادم بحقيقة الصراع من خلال الأدب يعتبر منجزاً معرفياً وطنياً يعتد به، إذ في التاريخ أقاويل وتفاسير لا تصلح كوسيلة لمعرفة الحقبة أكثر من الآداب الإنسانية وأخصها الرواية، فهي تقدم أرواحاً، أحاسيساً، أفكاراً، نجت بحكم الفن من أسر

الارتهان السياسي والانتفاع الايديولوجي، حيث تشير الرواية إلى الكفاح العسكري وخيارات الذود عن النفس والأرض للدخول عبر ميدان القوة لعالم السياسة والحنكة الدبلوماسية، واقع شعب مضطهد تخلى عنه قدماً الأحلاف والأصدقاء، عدا تلك الجبال الشماء، واليوم هو ماضٍ في تقرير مستقبل حر وديمقراطية واعدة وسلام منشود.

لا فلسفة في شيء يتقدس، يتحنط، ويصبح وسيلة لتقويض انتماءات وأفكار الآخرين بدلاً عن تنميتها، ويتغذى العنف من المقدس الذي يتماهى به المعتنق حد ألا يرى سوى عقيدته، وهنا تكمن نقطة الخطر، في ألا يميز المرء بين انتمائه وانتماءات الآخرين، ويرى من إيمانياته سواطيراً تعادي، وتنحر، هذا ما يدور في فلك دماغ الجهادي، فما يدور في أروقة ذهنه هو النزوع للتاريخ الوحشي وطرق التعذيب وتسخير العقيدة الدينية خدمة للتوسع والهيمنة على المقدرات والموارد، فالإنغماس في التراث أربك الفعالية الفكرية لدى الجهادي، وقادته إلى التقوقع والاستسلام للهلوسات والهذيانات الدينية واضعاً نصب عينيه الموت لأجل لقاء الجنة والحوريات، وقتال كل معادٍ أو مختلف بوصفه مشركاً أو مرتداً، هذا الخطاب طغى على الجانب الآخر من الفكر الاشتراكي الثوري الذي يتماهى خطابه ببعض جوانب طقوس الخطاب الديني، إذ أنه يعتمد على غسل الأدمغة والتركيز على الفئة القاصرة من الشباب، إلى جانب إضفاء القداسة على القائد واعتباره مهدياً منتظراً، فالواقع القبلي يجعل من المجتمع متأهباً أبداً لحدوث طفرات في حياته على الصعيد الحياتي، لكن على صعيد الأفكار، لن تكون الطفرات الفكرية إلا محدودة بوجود سلطة سياسية تلجم فكر الفرد وتلزمه على أن يقول ما تريده وليس ما يريده، هنا تتكاثر العقول المدجنة وتتناقص الإدراكات المميزة، فإبراز البطولات الجماهيرية يذكي ذلك الوعي القومي الإنساني، والتأكيد على كفاح شعب كردستان الغربية والجنوبية بمواجهة التطرف الإسلامي له أهمية عالمية، إذ أن مكافحة الإرهاب من بوابة الوطن المغتصب أعطى القضية الكردية بعداً بارزاً، أجج

عبرها مشاعر الكراهية والبغض من جانب الأتراك، إذ تمحورت السياسة التركية بمواجهة هذا التألق البارز للقضية، ومسألة الديمقراطية والانفتاح على الحريات، ذلك أحرج سياسة الدول الاقليمية وجعلها في حالة فرزع وهياج، فأخذت تنظر إلى لمعان القضية عبر مكافحتها للإرهاب العابر للحدود، بعين القلق والجدية، لهذت فإن توثيق تلك البطولات وتثبيتها في ذهنية المتلقي الشرق أوسطي عموماً والكردستاني خصوصاً يساعد كثيراً في إشراك مختلف الشرائح في عملية صناعة الوعي المضاد لأنظمة الرعب والشمولية، وقد قدم الكاتب حليم يوسف وعياً درامياً صحيحاً، وتعمق في المأساة المجتمعية وصناعة الأمل المنشود في رواية تحمل في متونها نوازع التشبث بالهم الاجتماعي، وذلك الانغماس في عمق الأرض والمرأة بوصفهما معشوقين قديمين تجيد سبرهما فنون الأدب والموسيقا وكذلك السينما، فتلك المشاهد أعطت للفن السابع قيمة في صناعة الحرفية الموغلة في تصوير الوجدان الجمعي وحمل رسالة المعرفي العاشق لوطنه والمتأصل بكفاح الشعوب وسيرها باتجاه التأكيد على الوجودية والمظلومية التاريخية، لقد وظف الكاتب كل ما يشير إلى الإنسان في عرض الشحنات الوجدانية وضخها بمظاهر الفكرة التي تنادي بمجتمع الإنسان كبديل عن الاستئناب والتوحش وعن رحلة الصراع لأجل تحرير الأرض، رغم أن المواجهة غير المتكافئة أفضت لخسائر مادية وتدمير للبنى التحتية، إلا أن المعنويات بقيت عالية وتصر على الاستمرار بالذود عن المصير، رحلة الصراع لأجل البقاء تستمر، لتجاوز الصعوبات والعراقيل التي وضعتها قوى التكفير، بطريق أمن المجتمعات وطمأنينتها، حيث يصف الكاتب البيوت المهدمة، الأنقاض، المباني التي تحولت إلى أنقاض وأطلال، فشجرة الجوز تتحدث كإنسان مراقب لما يجري بعد دمار كوباني وعودة أهلها، وعن أناس لم يجدوا مأوى يناموا فيه: " – حلمي أن ألبسك ثوب العرس بين هذه الأطلال يا بروين، استقبلت بروين استعجاله في الزواج بذهول". أو هنا :"عرسنا رمز انتصار الحياة

ضـد حصـار الموت لنا، رمز إعادة البناء مقابل الموت والخراب، انتصار للحب واللون الناصع ضد عبودية الحياة واللون الأسود المعتم".

هكذا جسد الكاتب ذلك الإبداع الفني والحي رغم كل الويلات التي تعترض طريق الناس في صناعة عيش رغيد وواقع أفضل، ليشيد صرح رواية تنتصر لأحلام الإنسان وتطلعاته في الحرية والجمال ونهضة الفن الجميل.

تخطـأ أحياناً طائرات التحالف في أهدافها فيتأثر المدنيون بهذا القصـف، تتهدم منازلهم وتصـبح معيشتهم صـعبة للغاية، فالمحظوظ هو مالم يتدمر منزله كاملاً، إذ بإمكانه بناؤه وترميمه، أما سـيئوا الحظ فيضـطرون للسـكنى في منـازل أقاربهم أو المكـوث في العراء أو في خيم أقيمت على عجل، لاسـيما وأن فرق البحث عن الجنازات لا تزال مسـتمرة وقد تم مصادفة جثة شيرين، هنا تتعدد المآسي وتتزاحم، حيث سوء الحال وفجيعة الروح لا تتوقف، ويسـتمر الأنين والترحال صوب ممالك الحزن والعوز، وبألم تتلقف الأم وصية ابنتها الشهيدة حين: "وصيتي حين تقومون بدفني، أهيلوا علي التراب بأيديكم، كي لا يتوجّع التراب الذي من أجله أصبحت شهيدة".

هذا العلم الذي يتعلمه المقاتل والمقاتلة، لم يكن وليد الكتب والمجلدات، بقدر ما هو استخلاص لهذا الحب المتأجج للأرض والشرف، يكثفه على نحو وصايا تنضم لأرشيف وأرث الأمـة الكرديـة، وتوضـع كأعمدة متينة في صـلب الرواية الوطنيـة، كي تتفقهها الأجيـال وتصـقل كم المعـارف والآداب الإنسـانية، لتعزز من مناعـة الأجيال وتحفظ الرسائل كأجنة حية في مختبرات الوجدان الإبداعي، رواية، شعراً، رسماً أم موسيقا.

إصـرار رودي علـى إقامـة عرسـه وزواجه مـن برويـن كان بمثابة نكـران متمرد وفلسـفي للواقع المزري والخطـورة الباقية، إنه بمثابة مواجهة من نوع آخر، وضـرورة لطلب الحياة كما يجدر أن تكون وتعاش، أراد عرسـاً ليتحدى صعوبات الحياة ورائحة الموت والجنازات وتكاثر قبور الشـهداء، أراد شيئاً يشـعره أن الدنيا على خرابها تبدو

صـالحة للعيش، وقد اسـتطاع أن يتزوج ويمشي مع عروسـته بروين بين شوارع المدينة المنكوبة، مشهد يبدو واضـحاً وعارماً بالحماسة، مشاعر متناقضة ومدببة توقظه من سـبات الخوف والمحنة المحدقة به من كل صـوب وحدب، لقد اسـتطاع حجز غرفة له مـع بروين، ومع الوقـت أخذ منزلاً يعيش فيـه إلا أن حلم المكتبة الـذي راود بروين لم يتحقـق، علـى الرغم من أنهـا لم تعد ترى كوابيسـاً تغير حال العاشـقين بعد الزواج، إنه الاسـتقرار والتفكير المشترك بالبناء والتغيير للأفضـل، أشياء نبيلة وأخرى بريئة تعصـف بذهنيهما، وهو أن يمضـيا بحياتهما بروح مشـرعة للأفق وطموح لا يتعب أو يهدأ، لقد أجاد حليم يوسـف الإنسـابية في الحدث عن تجربة رودي في زمن الحرب، وعـن شـجاعته في إحـداث مقاربة بين الخيـال والواقـع، رغم كل العـثرات والمواقف العصيبة، فالموت لايبدو بعيداً بل على مسافة قريبة جداً إليهما، عالم يتخلله الصراع، منافع تحول البشـر إلى جشـعين وإلى شـراذم قتلـة محترفين، وقلوب تنبضـ وتتابع طريقها بين الزحام، تروي سيرة الزمن المرير الذي يعايشه الناس معاً أو على حدى.

الموت والحياة يتبادلان الأدوار علناً في مجتمع الحرب، حيث تكون الحواس متأهبة باسـتمرار كأنها تنتظر مفاجأة ما، وتنعقد الألسـن حين يقع المحظور، تصـبح الحياة أكـثر تجسـيداً حين يقاربها شـبح الفناء، هذا مـا يحاول النص إبـرازه حينما يحيط بهالة الحدث الدرامي بانتظار أن ينبت الأخضـر ويزهر بين الصـخور الصـلبة، تلك المفاجأة كفيلة بأن تطوي صـفحة لتفتح أخرى، حيث تروي جيهان هذا الكابوس الذي بدء عند الاستيقاظ لتناول السحور الرمضاني عند الفجر: " يوم 25حزيران 2015 عند الرابعة صباحاً، كونه شهر رمضان، فأغلب الناس مازالوا يقظين، استيقظت على وقع أصـوات الرصـاص والتفجيرات، في الوهلة الأولى اعتقدت أنه حلم، أو هي سعادة المقاتلـين لتحريرهم بعضـ المناطق التي كانت بيـد ذوي اللحى، سـألت أمي الذاهبة والراجعة هناك:

ماذا تفعلين أمي ؟-

تناولت السحور وسأصلي.-

دنت أصوات الرصاص، بدت وكأنها تأتي صوب جدران بيتنا، كل شيء حدث بغتة، دون أن يدري أحد، أمي أخبرت أختي بريفان أن تتصل بإدارة المدينة ليعلموا ما يجري حولهم، حين صرخت زوجة أخي، توقفت يد بريفان على الهاتف: أم أحمد ذهبت، أحمد قُتِل".

الفاجعة التي سطرت صخبها في الكلمات، يتفاعل معها وجع الروائي وانقياده إلى فداحة الكارثة الإنسانية، وقد حلت بالسكان الآمنين، كيف سقطوا تباعاً جثثاً هامدة، يخبرنا الحدث عن أشياء تعصف بالذهن الإنساني ساعة قرب لقائها مع الموت إذ يدنو ويبتعد، حيث إطلاق النار يحدد من سيبقى ومن سيغادر إلى العالم الآخر، إذ لا يجيد الموت المزاح والفكاهة، والإنسان حياله لا يستطيع شيئاً، سوى أن يحرص ما استطاع على النجاة من مخالبه الحادة، الموت يتمتع بإيدي طويلة ورهبة لا متناهية ومزاج عكر، فالمجزرة التي راح ضحاياها العشرات من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، كانت إحدى الوحشيات المقترفة المعاصرة، وقد تم اقترافها باحترافية ومات جناتها كلهم، إنهم أتوا نتيجة عقيدة جهادية دفعتهم ليموتوا لقاء قتلهم أكبر عدد ممكن من العزّل، إيديولوجية تجد كل مخالف لها مستحقاً للموت بقسوة حسب وجهتهم، في داخلهم كمية حقد كافية لتشوية الحياة في النفوس التي استعدت لخوض بناء الوقت وملئه بما يجب وبما يحرّك في الذهن سعياً لبلوغ الأفضل.

القبور في كوباني تتسع، تبتلع أشلاء الشهداء وتقول هل من مزيد، كل شيء يشير إلى الفناء في أروقة هذه الرواية التي تتلوى من العذاب وحرقة القلب، والرغبة بالانعتاق من قيود الحاكمية والمظلومية التاريخية.

ويتجلى الموت في العمل بوصفه معادلاً لطلب الحرية والرفاهية، وكذلك يتعلق بالتشبث بالأرض وقيم المجتمعات، فحقاً لا يرغب أحد بالموت، لكنه يصبح حلاً اضطرارياً لرؤية واقع أفضل، في ظل صراع ساخن وعنيد بين أنصار الحداثة وأنصار النزعة التاريخية، حيث يواجه الإرهاب المقدس بإرهاب مضاد، الفارق بين الإرهابين، أن الأول وحشي يقوم على نزع الحياة، والآخر ضروري يقوم بطلب الحياة والدفاع عنها، ومما لاشك فيه فإن الكثير من الأرواح الشابة الحالمة ستتساقط كما أوراق الشجر الصفراء في الخريف، وأن قلوب الأمهات ستنفطر على فلذات أكبادها، إلا أن الموت هنا يتم الاحتفاء به كرمز لكرامة المجتمع المناهض لإرث الإرهاب التاريخي الراسخ في جذور الدين ومراميزه السياسية المتعلقة بالتوسع وتدمير إرث وحضارات المنطقة الخصيبة، نعم يرمز الموت الجهادي إلى دمار الحياة وتدمير روح الانتماءات وتقويضها، وإعادة الزمن رأساً على عقب، لتصبح الحياة جامدة لا روح فيها ولا إبداع، قتل الناس على الهوية، وتدمير بيوتهم، سبي نساءهم، ولأجل تلك الممارسات يهب الشباب القاصر كالقطعان لاهثاً دون وعي طالباً للموت في سبيل جنة وهمية عرضها الأكاذيب والهراء، ببساطة الحدث يعبر عن نفسه، عبر الضحايا الناجين من هول الجريمة المرتكبة، جيهان، تعتقد أن في نجاتها حكمة، ربما تتعلق في دورها كراوية لما حدث من خطب زلزل القلب، وجعلها لأشهر تعيش الصدمة، ولا تقدر أن تنفّس عن ذلك الألم العظيم المتأصّل في الأرواح، كانت الغاية من هذا السرد والتوصيف، هو التعريف بمحاصرة الأعداء الاقليميين وألدهم تركيا لتجربة الانعتاق القائمة في غربي كردستان، بعد تفكك الدولة السورية وجهازها القمعي وغياب حضورها في غالب المدن بالأخص الكردية، فداعش كانت وكيلاً عن تركيا في حربها ضد الكرد، حيث كانت داعش مطية في قتال الكورد وتفتيتهم، حيث يجري اختلاف البيت الكردي على أي حدث عبر وضح اللائمة على بعضهم البعض، والتنصل الخبيث من المسؤولية

حيال الشعب، حالة التفتت السياسية، سبب المحن المتلاحقة، فليس ما جرى إلا سبباً غير مباشر عن الانقسام السياسي ووجود شروخ مجتمعية وتجهيل مؤدلج يتجلى في تأليه الزعامات الروحية، بدلاً عن رسوخ فكر قومي صحيح وجوهري واضح، لايتم اختزاله بأشخاص ورموز.

في قسم آخر يتناول حليم يوسف مشاهد تتعلق باستنطاق الموتى، فالذهول ساد أرواحهم المغادرة التي اغتيلت غدراً، ففي المشهد الثاني يتحدث عن الذين لقوا حتفهم أمام أضواء الكاميرات، انتقال احترافي ومحزن لطريقة مغايرة للسرد، من امرأة تتحدث عن مشهد قتلها، سبع رصاصات اخترقت رأسها، وقد شاهدت أطفالاً يغادرون الحياة على مرأى من عينيها، المغزى من هذا الانتقال هو عرض المجزرة، أحداثها، وما يجول في داخل كل ضحية لم تنجو من الموت، وذهبت بما تحمله من لواعج وحسرات، ذلك الأسلوب في الدخول إلى جوانب دقيقة قد لا يتسنى للمتلقي مواكبتها في الحالات المألوفة، إلا أن كل ضحية تتحدث عن كيفية موتها، ذلك أبرز التأثير الدرامي الباعث على الحزن، فالموت هنا بات حليفاً للظلاميين، حسب تعبير "شيخ مهران" أحد الضحايا، إذ يصف طريقة موته على نحو مسترسل في حدث الرحيل الموحش عن الحياة، يعرض الكاتب ضحاياه، وهم من مختلف الأعمار، يصفون الحدث تبعاً لنظرتهم وتصوراتهم، وذلك إبراز لعمق الفجيعة وهولها على النفوس، وكذلك يجسد فداحة التآمر الاقليمي على شعب يسعى جاهداً للعيش في ظل منطقة مستعرة بالخلافات والنقائض والنزعات التعصبيَّة دينيَّاً وقوميَّاً.

هذا النزاع الدموي ضخم من الجهل والتجهيل، وأثبت للعالم أنه ليومنا هذا يمكن قيادة حروب كبيرة باسم الرب، إذ لا زال ذلك صالحاً ومطلوباً بشدة، حيث مئات الأقنية الدينية والمؤسسات والجماعات السرية منها والعلنية، وذلك الإعلام الذي يضخ سمومه في العقول، وذلك الخطاب الإسلامي الذي لم يتغير والذي لم تعترف

مرجعيته بأن داعش لا تمثل الإسلام، ذلك يعني استمرار الضحايا وتأصل العنف كثقافة مقدسة داخل مجتمعات الشرق الأوسط وكذلك التي تعيش في المناطق الفقيرة والمنكوبة والمهددة بالحروب والنزاعات المستمرة.

يروي الكاتب على ألسنة الضحايا كل أمنية ماتت معهم، وحسرة توارت بتواريهم عن أحبتهم، أراد أن يحقق في قدرة العصابات الوحشية على إخماد جذوة الحياة في أرواح العزّل، كل شخصية تتحدث عن المكان والزمان الذي توارت فيه عن الدنيا واستسلمت لسبات عميق، كل صوت كان يملئ المكان بالدفء والحركة في الأرجاء خيم عليه بغتة سكون مطبق، فالمقابر تدوي من حكايا الذين فتحوا أذرعهم للأمل، ثم استقبلهم الموت في حجره الباردة، فالموت مرموز الانطفاء، وعكس فعالية الحركة، يجيد اقتناص الحالمين والتائقين لحياة أقل معاناة، وقد امتهن صناع الموت القتل متسلحين بالعقيدة الدينية، وقد أحسن أسلافهم في ربط العنف بالثواب الإلهي، بتلقينهم عبر النص الذي خولهم ليصبحوا حراساً للدين ووكلاء لله على الأرض، الكاتب هنا ينشغل بالأحلام المزهقة والطفولة البائسة، ليستجمع في أذهاننا قصص الحروب التي كثيراً ما تتحدث عن ضحايا لم يحملوا السلاح وقضوا نحبهم بيسر، نلحظ كيف تصبح العقائد سيفاً مسلطاً بيد معتنقيها، كيف تحررهم من إنسانيتهم وشفقتهم وتجعلهم مهووسين بالدماء، وكيف يعاد التاريخ الوحشي على تعدد سيناريوهاته، وتصبح المسرحية الممارسة جسيمة في أدء ممثليها الحقيقيين على الأرض، كيف يتحول الدين إلى سيناريو يمثل بحرفية على خشبة الواقع، عبر ممثلين وضحايا وآخرون قتلة، هنا أخفق الفن مقابل الحدث المعاش، وأخفقت الرواية أمام من عاشوا الألم، ويخفق الكتّاب حيال نقل مأساة الآخرين إلا من خبر ذلك الواقع وعاش بتفاصيله واكتملت فيه مقومات المأساة والتمثيل الإبداعي لها على حد سواء، بهذا الكم من الحقد تم الاستيلاء على أدمغة الفرد المتطرف، وإخراجه عن الحالة الإنسانية التي تقشعر

بطبيعتها من رؤية الدم والأشـلاء، تم تجريدها من كل ما يمت بتأنيب الضـمير، ولعل خطاب الكراهية تم توظيفه عبر التاريخ لإخراج البشر من إنسانيتهم والتشبث الأعمى بالعقيدة واعتبارها فوق كل شـيء، لهذا فالضحايا يزدادون بالتزامن مع ضخ الإعلام لهذا النوع من التخاطب، عبر بثها للسموم، ولاسيما بتعدد وسائل التواصل الاجتماعي، فإن توظيف الدين في القتل بات تجارة رائجة تدر الربح ويصبح تنفيذ الأجندات أكثر يسـراً عبر تمويل الجماعات الدينية وتوجيهها من خـلال أمرائها وقدرتهم الخطابيَّة على استقطاب الشريحة الشابَّة بكافة الوسائل المتاحة.

يعمل التأثير البلاغي الكامن في الخطاب الديني على امتلاك فكر الفرد المراهق، وحتمـاً يعتبر من أقدم الآليـات المؤثرة على العقول والأذهان عـبر التاريخ، وقد حذت كل الإيديولوجيات الشـمولية حذوها في تمجيد ذاتها وتوجيه مريديها لكراهية الجهة المضـادة لها، وأعطتهم مسـوغات للقتل وإرهاب المختلفين معهـم، فقد مات الكثيرون باسم الأديان كما مات الكثير باسم الصراع الطبقي، من هنا نجد أن التحضر مجرد زي، بينمـا لا يـزال المتحكمـون بالعقـول والموارد يعمـدون إلى زج الناس في عداوات وخصومات لا تنتهي، فعمدت يد الإيديولوجيا للبطش والتنكيل دون وازع، يمكن التنبه بأن صـناعة الإرهاب الديني قائم على مبدأ الكراهية المقدسة، فهي إن تملكت إنساناً متديناً واستحوذت على ذهنه فإنه مستعد في أي فرصة سانحة في الانقضاض على من يكرههم، وذلك ينفي وجود التحضر الحقيقي، وإنما يخفي وراء العبارات الجميلة قلة الحب وكثرة الكلام المعسول ، كما يجعل الإزوداجية مرضاً سريع الانتشار.

مـا نركَّـز عليه هنا هـو تنقيب عن مراحـل الكراهية وتثبتهـا في اللاوعي، ومن ثم قيـام الإعـلام الموجه بتحفيز الناس على الكراهية واعتبار ذلـك حرية تعبير، إن كل إرهاب ممارس يتم عبر إذكاء شـعور المظلومية داخـل الذهن وتحويل ذلك مع الوقت إلى دعـوة للانتقام وتوجيه الضـربات العنيفة للجهة المسـتهدفة، لهذا فتثبيت الفكرة

ورسوخها داخل الفرد المعتنق يسهم في إطلاق يده وتفريغ شحنته الملغومة تلك، وما أكثر الجماعات المستخدمة في القتل والتدمير، كون هنالك دوماً أرضية خصبة لنموها وتوليدها، بخاصة وجود الأقنية الإعلامية وطريقة الشحن التعصبي، حيث اعتمدت الحروب الأهلية على التجييش الإعلامي "سوريا" أنموذجاً، وتم إعادة الصراع السني الشيعي عبر الاخوان المسلمين والطائفة العلوية الحاكمة، وتم تطوير ذلك الصراع اقليمياً من بوابة الإسلام السياسي الذي تقوده كل من تركيا وإيران في المنطقة، حيث راحت الدول تتسابق في إنتاج جماعات مسلحة وتخصيبها بخطاب الكراهية وضخ المال والتمويل الجيد للمجندين، وتم استخدام هذه الجماعات ضد دول ومصالحها، وتم توجيه داعش بأوامر تركية ضد الكرد وضرب تجربتهم الفتية في غربي كردستان، من ثم جندت المعارضة السورية المسلحة ضد الكرد بعد أن تمت هزيمة داعش عسكرياً، إذن يمكننا القول أن التطرف يعتمد على التجييش الإعلامي والتمويل الجيّد.

إن دولاً لم تكن لتقام لولا خطاب الكراهية المؤسسة لها، تركيا مثالاً، اعتمدت العنصرية لأبعد حدود لتأسيس دعائم قوتها، عبر كراهية العنصر التركي لكل ما هو غير تركي نقي، وقتل الإنسان الكردي لانتماءه القومي، إلا حين ينكر كرديته ويعتبر نفسه تركياً، حينئذ يحق له العيش كتركي غير نقي، وعبر ربط العروبة بالإسلام أقيمت دول عربية تحولت قوميتها المتعصبة كسيف مسلط على رقاب الأقليات والقوميات غير العربية، وفي أوروبا لا تزال هنالك كراهية مبطنة لليهود، فمعاداة السامية واقع معاش، حيث لا يجرؤ اليهودي على الإعلان عن يهوديته خشية وقلقاً على نفسه من القتل أو الاعتداء، إننا في عالم مبني على الكراهية واعتبار ذلك شيئاً طبيعياً، حيث أن منابع الإرهاب تحظى برعاية الكثير من الدول في الخفاء، ولاسيما تلك التي تزعم أنها تكافحه، إن الإرهاب الإسلامي انتشر كوسيلة لإزالة الدولة وتفتيتها، وكذلك توجيه المجتمعات لقبوله والتعايش معه، الهدف من ذلك الإرهاب العابر للحدود هو التذكير

بالتاريخ الوحشي الذي لم يتسنى للكثير الإطلاع عليه، وكان الغرض منه تمكين الإسلام والعرق العربي، على حساب انتماءات القوميات، الذين هم سكان أصليون لتلك المنطقة الشاسعة المعروفة راهناً بالعالم العربي.

حين نلحظ اقتران كل كراهية بما يسوغها من أمثلة التاريخ والوقائع الدموية ومن بوابة ذلك الماضي المسيس انطلق الخطاب الطائفي في مقت الطائفة المقابلة، حيث لا تزال رواسبها في العالم المتحضر قبل العالم النامي، فما تمدد اليمين المتطرف ومعاداة السامية إلا حاضنة أولية لكل نزاع قد يطرق الأبواب مع تقادم الوقت، حيث يمكن تشبيه الكراهية بالطبخ الذي ينضج على نار هادئة، فما هجوم داعش على كوباني ومن ثم قيامه بالمجزرة الوحشية التي روعت عبرها المدنيين في بواكير صبيحة رمضانية إلا دليلاً على أن الكراهية وحش مربوط بحبال لا تبدو متينة، وسرعان ما تنفلت من عقالها ما أن تتاح لها الفرصة المناسبة، فهنا عبر حليم يوسف عن محنة الحوار القصير بين الضحية وأحد العناصر المنتمية إلى داعش ما قبل مقتله:

أنت ستقتلني وغيرهم سيقتلك، بالحرب والقتل لا يُحل شيء، تجلب الحرب فقط خراب البيوت والدمار يا بني، أخرجته كلمة يا بني عن صمته: لستُ ابنك ولا يشرّفني أن أكون ابناً لكافرٍ لا يعرف الله.

– لا يعرف الله ؟! الوقت الذي قضيته على السجادة بالصلاة كان أطول من سنين عمرك، وأنت قادم باسم الله–

الذي صليت لأجله كي تقتلني.

في تلك اللحظات قدم رفاقه من قرب الباب، وأرادوا أن يرافقوه على عجل، لا أدري لمَ كان محتاراً في قتلي، والجملة الأخيرة التي سمعتها من رفيقه هي:

– انقضت ساعة وأنت مشغول مع هذا العجوز

بكلماته هذه، صوب رفيقه سلاحه نحوي وأرداني بالرصاص، وهكذا على عجل قفزوا من على جثتي واتجهوا نحو منزلٍ آخر".

هادي تيقَّن أن كونه كردياً فإن عشقه مرتبط بحالته ككردي اغتصبت هويته، فوفقاً لنظرته إن الشعب المضطهد كالإنسان المريض وعليه أن يكون دائم التطلع لحريته، هكذا يخرج الشهيد من مقبرته كطيف ليدخن سيجارته ويتأمل الكون في العتمة، الكاتب لا يرى في الموتى إلا أحياء، حيث حسراتهم لا تتوقف ولا حتى أحاديث عشقهم لحبيباتهم وأرضهم، فالموتى يتحركون، يحدثون الصخب، وتهتز أعماقهم، يستحضرهم الكاتب ليعبأ من خلالهم لوحته الفنية بألوان تتحدث عن هذا العالم الموبوء وعن ضحاياه المرابطين على جبهات الوجع والانغماس في عبادة الأرض والجمال والمرأة، رغم انخداع الكثير من الحالمين ببزوغ شمس العدالة، إلا أن ذلك لم يكن إلا وهماً مستساغاً، فأعمار الوحوش والقتلة في الواقع أطول من أعمار الملائكة وفق تعبير هادي، لقد صقل الكاتب هذه الشخصية وكيفية إدارتها في لمس العالم الوجداني لدى المتلقي والإيغال فيه، لتحقيق الدهشة والشعور بالحزن واستجداء الدموع والمضي قدماً في تجسيد حوادث الإنسان وأثرها على النفسية والتعريف بجلد الإنسان حيال الألم والفقدان إزاء انتهاء الإنسان ببروز شبح الموت، امرأة اسمها كوباني تعيش مخاضاً عسيراً وتخوض حملاً صعباً، ويتساءل حولها الناس أهل ستلدُ ذكراً أم أنثى، تلك خاتمة ختم بها الكاتب روايته، حيث يشير ذلك المرموز إلى الولادة التي تعني الأمل والبشرى التي طال انتظارها، أما علامة الانتظار والتساؤل عن جنس المولود فربما تشير إلى تمييز الصبي عن البنت، أو قد تشير إلى حياة لا يعلم الناس مآلاتها، إذ أن الغد يحمل في مكامنه الكثير من المفاجآت، إن الحرب لم تتوقف والجراح لن تبرأ سريعاً والناس تعيش في حالة من التأهب الدائم، في ظل واقع يتسم بالمتغيرات والصراعات التي لا تهدأ، كل ذلك يحتم على المرء أن يفر خارج الصخب ويستجمع هدوءه المريب، يحاول

إشـعال الأمل من فتيل محاولاته في سـلك طرق جديدة، وتفادي الشـعور بالألم جراء الفقـدان، إذ بات الموت حدثاً يومياً يتلقاه المحيط على نحو متوازن، حيث يؤمن الناس بالقـدر وبالأرض كشـجرة لا بد من رويها بالدم وكذلـك بالجهد والتعب الكبيرين، إن الشـهداء يختلطون بالأحيـاء في هذه الرواية، يمتزجون بإيقاعـات الحياة، ولا يهابون الموت، بل يعتبرونه مجرد انتقال من صورة لأخرى، فالناس تنتظر المزيد من المفاجآت السارة، وتحاول أن تعيش بعيداً عن الحزن، فليس الذين ضحوا بحياتهم لأجل الأرض موتـى، إنما أحياء في القلوب والأذهان، ويولدون من خلال تلك البراعم الجديدة التي تخرج من بطون الحوامل لتحمل قناديل الحياة الأفضـل عن أيد السلف المضحي لأجل انبلاج فجر جديد مكان الفجر الدموي الرَّاهن.

يبـدء عمل كل من هادي وبرهان مع بدء الفيلم بالحديث عن فجيعة عائلة محددة في كوبـاني، عانـت في حقبـة الحرب انتهـاء بحدوث تلـك المجزرة، وقد أصـبحوا من ضـحاياها فيما بعد، هنا تتضـح معالم الفيلم المنجز، ويتم تحديد الهدف من إنشاءه، وهو تقديم الحقيقة المعاشة للآخرين، ممن لم يتسنى لهم معرفة حقيقة الأوضاع وما آلت إليه، ببداية عاطفية يسهب فيها رودي بالحديث عن غرامه بحبيبته، ذات العينين الخضـراوين كالربيع في كوباني، فيعرّف رودي عن نفسـه كونه ابن هذه المنطقة التي لم تخضع لأي غازٍ أو محتل على مر الدهور، ابن سهل سروج، رائحة العراقة والأصالة تفـوح من تلك المنطقة، يعكس الكاتب هذا الظرف في شخصـية رودي كتعبير عن روح البسـاطة ودماثة السـكان، إلى جانب أن التغير الذي يتم في المنطقة يتسـم بفجائيته وسـرعته، فالحرب تتقدم والجماعات السـوداء في طريقها لتدمير كل أخضر أو شيء يدب على الأرض، نجد سـلالة انتقال الأفكار والتحولات المتسـارعة وعن التسـهيلات التـي قدمتها الدول الإقليمية في دخول العناصـر الجهادية لسـوريا دون قيود أو موانع بغية تحقيق مشـروع الإسلام السياسي على الأرض، وهذا يتطلب إراقة الدماء والكثير

من الضـحايا، فتقدم الدول الممولة لهذه العناصر أسلحة حديثة وآليات متطورة، ويتم تحويلها على نحو ممتاز لتسـهم في خلـط الأوراق وتغيير ديمغرافيـة المناطق وترويع السـكان، مقابل ذلك يحارب الإنسـان ابن الأرض بمنطق الحب والإرادة، فهنا يسارع حليم يوسف بوضع الحب مقابلاً للحرب، رودي العاشق لا ينفك عن حمى الحب الذي غـيّر من لـون عينيه، فبات يجتاحهما الخضـار، لتتم رواية الجوانـب البريئة في حياة الشباب في سنهم الأول، ولعل هدوء العلاقات الإنسانية والانفتاح الذي جرى في غربي كردسـتان والشـمال، أعطى إشـارات لبروز خرائط جديدة لا تلقي بـالاً للحدود، لأنّ تداخل المجتمع الكردي ما بين الشـمال والغرب، سـيلزم بتبدل الصراع ونشوء الحرب على نطاق واسـع حيث تداخل المنطقتين، يعكس أيضـاً دوراً تركيـاً في التدخل وكذلك تمويل داعش وتقديم مختلف سـبل الدعم لها، فالعلاقة القائمة ما بين فيان وجيهان، تشـير إلى انتهاء الحـدود وجدانياً، وكذلك مشـاركة أبناء الشـمال الكردي في حرب الدفاع الشـعبية ضـد تنظيم الدولة الإسلامية، كذلك بالتزامن من نيران الحرب يتم تدريس اللغة الكردية وإعداد المناهج وتدريب الأشـخاص ليصـبحوا مدرسـين وليبرز إلى جانب نضال الرصاص، صوت صرير القلم في إنشاء معالم انتفاضة معرفية تنتشل اللغة الكردية من توابيت الإهمال والتهميش، لعل الثورة الأبقى هي ثورة المعرفة وتنوير الأذهـان وتحريرهـا من القيود وكذلك إنشـاء مجتمع يقرأ، يفكر ويتعلم لغته ويسـبر الحيـاة مـن خلالها، ذلك جعل كل شـخص يدرك أن سـفينة الحيـاة الجديدة تتجّه بسرعةٍ نحو ميناء اليقظة والتأهب لحرب الدفاع عن النَّفس والأرض.

الحب في الرواية يدفعنا للتوغل أكثر في المشـاهد وكذلك يحفز الأحاسـيس لتتنبه بالذي حدث وسيحدث، أي أنه بمثابة توطئة وإشادة جسور متسلسلة لفهم ماسيجري، انتهـاء بوقوع تلك المجزرة التي تعرضـت لها كوباني، ومما لاشـك فيه فإن الضـحايا نسـق حياتي لابد وأن يعرض بدرامية، لاسـيما الشـق المتعلق بضـحايا لهم طموحات

وآمـال مرهفـة كانوا يتمنون تحقيقها، والتي اصـطدمت في نهايـة الأمر بحائط الموت الأصـم والفجائي، فهمنا للموت كحدث أوقف دفق الأحاسيس والأحلام، حيث الرواية تتحدث عن صراع الإنسان مع الظروف والحروب وطبائع الناس، ليحصد شيئاً بسيطاً ممـا يتخيل، هكذا دأبت الرومانسـية في الرواية أن تكون، وأن يمر العاشـق البطل في المصـاعب والعوائـق، ويتعـرف المتلقـي على ذاته من خـلال الشـخوص الذين يعجب بهـم أو يراهم الأقرب إلى شخصـه، فالأحداث تجري في كوباني، والحادثة تسـترعي إبـداع الكاتب أكـثر وتثير اهتمامه، فكل تركيزه ينصـب حول المجـزرة والأجواء التي كانت سـائدة ما قبلها، ومقاومة الشـعب لغزو داعش للمنطقة ولغـرام بروين ورودي، من ثم نجد الكاتب حليم يوسـف يحيط بالمجزرة ومعانيها المنتهكة للوجدان الإنساني بمـا يحمل من شـجون وخيبات، وعلى عكس قصـص الحب المألوفـة يتوج حب بروين ورودي بزواج ومن ثم يغدوان كلاهما ضـحية للقتل، في إيحاء أن الحب أيضـاً سـلاح لمواجهـة التطرف على الرغم من فداحـة الإرهاب وطرقه المروعة في قتل الأبرياء دون تمييـز، فبين روائح الأشـلاء ووسـط المذابح والدمار أصـرَّ رودي على إقامة عرسـه، معبِّراً عن حقيقة الصـراع بين الجمال والقبح، النور والعتمة، حيث تلك الحروب التي يمتهن عبيدها فيها القتل، كما يمتهن العشاق العشق، ويسير الحب مع الحرب ضمن مسارين مختلفين، كما جدلية البناء والهدم، فلكي تحافظ على حبك يجب أن تحارب، فـلا تتوقـف غريزة الإنسـان بعد الحب، وإنما يبدأ بالبحث عن أشـياء أخرى تتصـل بنداء الملكية، بيد أن الحب في البيئات غير الآمنة والفقيرة تسودها حالة من التصوف والصـفاء المقترن بالحرمان، لم تتدخل الملكية في صـنعه وإنما الحادة أوجدته، حيث يحاول العاشـق أبـداً الظهور بمظهر العابد أو الحارس لكل هـذا الزخم من العواطف والأحلام التي تشـتعل في صـدره، وقد جاءت الحرب لتناهض الحب ومحرِّضـةً الفرد على ضرورة التأمل في دقائق الحياة وتفاصيلها، ليتبين أن لا شيء من السهل أن يكون

بمتناول الإنسان مالم يحالفه الحظ ويبذل جهداً في حيازته، فالموت يحصد الأرواح ولا خيار أمام الإنسان الطبيعي إلا أن يذود عن وجوده وبقاءه إزاء قوى أتت من بطن التاريخ، متسلحة بوحشية العقيدة ونصوصها الصحراوية الاستعماريَّة المقدَّسة.

لا نرى في الحب الذي يجسده الكاتب تملكاً، بل وسيلة للارتقاء والتشبث بالأرض، مصدر الكينونة وإحساس الإنسان بالجمال والسحر والخصوبة، حيث تتجلى الأرض بملامح المرأة، التي هي هنا عاشقة تدافع عن قيم المجتمع وروحه من تلك الهجمة البدائية الناشبة أظفارها، هذا التصادم القهري لا يهدء ويفتح مساراً للتساؤل، وكذلك يستولي على المخيلة والإدراك، وهنا وجب على المتلقي أن يسبر ما بذاته من خلال مواطن الإحساس، فالسرد الجمالي يبدي وظيفة عليا في الارتقاء بمستويات إحساس الإنسان بالذاتية والجمال في ظل عالم وحشي جائر مؤلف من رأسمالية وحشية هدفها جمع المال وبيع السلاح وتوريد الإرهابيين والتخلص منهم عبر زجهم بمعارك تحصد من أرواح الآلاف من المدنيين العزل، تحالف قذر بين الجشع الربحي والتطرف الديني، حيث يقع على عاتق الكرد محاربة داعش التي تم توجيهها بمهارة وإدراك نحو المناطق الكردية في كل من جنوب وغرب كردستان، لتكون المنطقة المحتقنة مركزاً للحروب والنزاعات والصدامات، وهكذا تتدفق عبر ذلك موجات النزوح، وتتغير الخرائط لتصبح بين ليلة وضحاها، جديدة تحل محل ماكان سائداً، ولعل الذي يقود الإنسان الجهادي هنا هو سلسلة من أفكار دينية وهمية وإغراءات حسية تستولي عليه ولا يملك سبيلاً في إعادة تمحيصها بسبب تأثير الدعاية الدينية وحيث أنها تتسم بقوة الخطاب البلاغي وتاريخية التأثير العميق على أدمغة الشباب وعواطفهم وهم في مرحلة الفتوة الأولى، فالحرب الثقيلة وسيطرتها على العقول مفعمة بالصخب والصدمات، والحب يمثل عقاراً مضاداً ويمنع الخوف من الدخول لأعماق الفرد، هنا

يديـن الكاتب طبيعة المجتمع المتسـلح بقيم الحق والخير والجمال، ويجد في ممارسـة العشق ضرورة قصوى في مواجهة التحديات العصيبة، إنه صراع بين عالمين مختلفين، وطبيعتين مغايرتين، إحداها معلقة في الغيب وتعتقد أن القتل وتقديم الذبائح البشرية وسـيلة مثلى للتقـرب إلى الله، وأخرى تـرى أن لا إله كامن في الدم والوحشـية، وإنما هنالك وطن يجدر حمايته والإيمان به يعتبر أثمن قيمة.

◆ **جدلية الموت و الحياة في حرب كوباني:**

الموت يخيم على النفس في لحظة مجيئه القصوى، ويبدو حليم يوسف قد استخدم الأسلوب التكثيفي في إبرازه لبنية السرد، وأحاط بمشهد انفجار مبنى الهلال الأحمر الكردي في كوباني، معتمداً على المؤثرات الوجدانية، عبر توظيفه لملامح الشخوص الداخلية، وتذكر جيهان لابتسامة والدها الذي قضى نحبه في الانفجار، وذلك حتماً مدعاة ألم، وكذلك فإن الانفجار المهول أربك المحيط.

للعاطفة دور في مواجهة العقل، كيف يفقد الإنسان توازنه العقلاني في أشد لحظات حياته حميمية أو شجناً، خاصة فيما يتعلق بموت شخص عزيز وقريب أو سماعه لخبر صادم قد يغير من مجرى حياته كاملة، فقوة العاطفة وتدافعها تمنع العقل من أن يفكر بطلاقة، حيث الإنسان حيال الصدمة مفعم بالذهول والانشداه والتلعثم، هذا الاضطراب الداخلي يدفعه لسلوكيات غير منطقية، كأن ينزع للصراخ أو الحبور والالتزام بالوقوف ساكناً دون إبداء تصرف منطقي حيال الموقف، تحاول جيهان أن تنكر وقوع الموت وفقدانها لأبيها ولأشخاص تعرفهم من محيطها، ويتحول الموت لحدث طبيعي حين يتكرر بشكل دائم في زمن الحروب، فيأخذ المرء مناعة من الانهيار السريع نتيجة فراقه للعديدين، فلا ينشغل بالحزن طويلاً وإنما تسود الكآبة عوالمه برمتها، إلا ان الألم والحب يتصلان ببعضيهما هنا ولا ينفكان، حيث نلحظ أن الحب أحياناً يصلح ليكون عقاراً مخفِّفاً للألم نوعاً ما، لكنه يخفي في جوهره غصة الفراق والفقد، فالكاتب ينقب في فلسفة العواطف ويرصد لنا شخوصاً تعترضهم المفاجآت وتحاصرهم، تجعلهم يرمون ما بأرواحهم، وتتحدث كل شخصية عن حبها للأرض، وكذلك فإن الموت متعدد الأوجه يرمي بقتامته على كوباني، ويزداد حصار داعش لها يوماً إثر الآخر، والجنازات تتوالى، والجميع يهدف من عملية الصمود لنيل

الشعادة الحقيقية، والتماس الأمان والحياة الجيدة، نلحظ شخصية الوالد المتدين الذي كان مولعاً بإعداد وصفات طبيعية لمرضاه، وكذلك يضع وعاء ماء قرب رؤوس أولاده النائمين، ويذهب للمقبرة ليقرأ القرآن قرب قبر فيان، هذه الطقوس الدينية والجانب المتعلق بالطمأنينة الروحية تخبرنا عن وجه آخر للتدين يتصف بالمسالمة وعدم الأذى وكذلك نشدان حياة هادئة أقل ضرراً وتعنت وأكثر طيبة ودماثة، لهذا يعرض لنا الكاتب الجانب اليسير من التدين ليفرق المتلقي بين نوعين من التدين، الأول مرتبط بالفطرة الخيّرة والطبيعة المسالمة، فيما الآخر تدين وحشي سادي يستمتع بالأذى والانتقام والحقد، ونرى أن كلا التدينين على خلاف نقيض يجتمعان في ميدان الحرب، ويتصادمان مخلفين وراءهما عويلاً ونحيباً وموت، لهذا نجد الصراع يثبت لنا أنه الانتصار للأقوى كونه الأجدر والأصلح في تسيّد الوجود.

حب برائحة الانفجارات يستولي على الأذهان العاشقة، يكشف عن مخيلة تتسع للفقد، الرحيل، الانتقام والأمل، لاشيء يمنع العواطف من أن تتأهب لعيش العشق رغم حلول الموت بكثافة، فهو مأكل وشراب الأحياء، كي يصمدوا في وجه الأحزان والكوارث الناجمة عن حرب الإنسان ضد مقابله، الحرب تمتحن قدرة الشعوب في البقاء والاستمرار في مواجهة الإبادة والصهر، فتعمل الآداب والفنون إلى جانب الحراك السياسي والعسكري، لمقاومة الإبادة العرقية التي يتعرض لها الكرد في غربي كردستان وجنوبها، وكذلك فإن عمل داعش هنا هو تنفيد أجندات تركيا في تصفية ثورة غرب كردستان للحيلولة من أن تكون ذات يوم حرة على غرار تجربة اقليم كردستان الجنوب (العراق)، فتعمد إلى فرض واقع الانقسام الكردي.

يسعى رودي لتحصيل اللذة الروحية والحسية من وراء نشدانه لحب هادئ ومريح مع بروين، الفتاة الرقيقة ذات العينين الخضراوين كربيع كوباني، يعلم يقيناً أن

المحيـط يعج بالحــرب والجنازات والانفجــارات، مع ذلك يجد الحب مضــاداً للرعب والخوف وانعدام الأمل، ويذود من خلاله عن نفسه، ليكون أكثر فهماً لحاجات النفس في ظل العوز المتفاقم، شجرة الجوز لها رمزية عميقة في هذه الرواية وفي ذلك المكان، حيث هي الشــاهد على ما يجري، تواكب الشــجرة يوميات مدينة مقاتلة، شعب مقاوم وآمال معقودة. لقد رأى الجنرال حمو سعادته أخيراً في تجسيد وضعية الجنرال الظافر وتفرغــه لتلك الفكرة بعد العدول عن بحثه لامرأة تنجب له، إن الســعي وراء الأشــياء وتكرار الإخفاق قد يحوّل الإنســان لمعلول نفســي، وقد يعيش هذا النقص مضاعفاً، إذ أن الجنرال حمو نصــف مجنون بســبب عدم تحقق رغبته في أن يكون أباً، لشــدة طلبه لذلــك ومروره بالإخفاقات وعدم قدرته الكافية على إيلاء ذلك، لذا عجز عن التكيف وبــات يجد أن ذلك نقص لا يمكنه تفاديه، وبانتقالنا لمشــهد آخر يضــم جلوس بروين مقابل رودي، قبلة حميمة جعلت بروين في حالة من ذهول وخجل، وقد تعذر على رودي فهم شعورها آنذاك.

النصوص متقلبة وتعالج الكثير من الأشياء، تحاول تلخيص المحيط المحتقن بدايةً من مجزرة شــنكال، مروراً بأزمة الفرد المتلخصة في شــخص الجنرال، وكذلك غرق رودي في العشــق إلى جانب رائحة الموت المنبعثة في كل مكان بالتزامن مع تقدم داعش نحو كوباني، كأن رودي يحاول بالعشــق إدارة ظهــره للوجع المقيم والكارثة القادمة، أو يــداري بالحب المواقــف، إلى جانب أن الآخرين يجدون في قــراءة القرآن قرب القبور باعثاً للطمأنينة، لعل الأوهام الجمعية متأتية من حقيقة مبعثها ضعف الكائن الإنساني وحاجته الماسة لعزاء نفسي.

◆ **الخلاصة :**

للتمثيل الدرامي دورٌ سامي في هذا العمل الروائي، حيث استخدم الكاتب تقنيات متعددة في السرد كأنسنة شجرة الجوز، كذلك إيحاءه للمتلقي أن برهان وهادي يعملان على تصوير فلم يوثق ما جرى في كوباني، سرعان ما يصبحان ضحيتين للمجزرة المرتكبة من قبل داعش، حيث تعامل الكاتب مع الضحايا كأشخاص يخرجون من قبورهم ليلاً، فأحد الضحايا يخرج من قبره ليدخن سيجارته في تلك الليلة المقمرة، وليقم بإعادة سرد صدمته، أي ما جرى له في تلك الليلة الغادرة عند الفجر، كذلك فإن الكاتب اعتمد على تبويب روايته، لتتحدث كل شخصية على حدى، بدايةً من هادي وبرهان، وكذلك رودي، بروين، جيهان، شجرة الجوز، ليتيح الكاتب المجال في الفصل الأخير لتتحدث كل ضحية عما جرى لها أمام الكاميرا، هذا التمثيل المونودرامي أسبغ على الرواية تأثيراً فريداً ومميزاً على المتلقي، فالتخييل الذي اعتمده الكاتب في غالب رواياته أتت أكلها، وقدمت مادة فنية غنية اتسمت بالغرابة والدهشة والفنية العالية دون أن تخرج عن الأفكار والمناخ العام للرواية، حيث لا يتسع المجال كثيراً للإحاطة بكل شيء منعاً من التشعب والاستطراد، في أن تروي كل ضحية قصة موتها وحياتها وصلاتها بمحيطها ونظرتها للحياة، هنا يعمل التكثيف اللغوي دوراً في عملية التأثير، لاسيما وأن التركيز يعتمد على الإحاطة بهذا الحدث المفجع وتوثيقه في رواية، كي لا ينسى الكردي المعاصر أي عدو ينهش في لحمه وتاريخه ووجوده، هذا الوحش الذي حركته تركيا وقطر لتكون أساساً لمشروع الإسلام السياسي وإعادة الهمجية العثمانية من بطن التاريخ، فجوهر داعش هو جوهر تركيا العثمانية والعلمانية على حد سواء ماضياً وحاضراً، في إمعانها لكراهية الأقليات الدينية، وكذلك الشعوب الأصلية للشرق الأوسط، كالكرد والأرمن والسريان والآشور وغيرهم، كونها تعلم أن ضمانة وجودها

كعرق وافد من شـمال غربي آسـيا هـو أن تبيد وتنفـي وتجرم، وقد تطبعوا بالقسـوة والوحشـية نظراً لكونهم من سـكان السـهوب الفقيرة الجرداء، فاسـتماتة داعش في القضـاء على الفسيفساء الشرق أوسـطي وعلى رأسهم الكرد هو ذاته جوهر السلطنة العثمانيـة في مراحلهـا الأخيرة، حيث تفشـت النزعة الطورانية القائمة على إخضـاع كافة الشعوب الأصلية وصهرها بالبوتقة التركية، حيث الموت هنا ابن الحرب وابن عاق للوجود الإنساني، إذ يعيش الكائن لينتظره.

حليم يوسف في سطور

- من مواليد عامودە - سوريا
- خريج جامعة حلب، كلية الحقوق
- يقيم منذ العام 2000 في ألمانيا
- يكتب باللغتين الكردية والعربية
- حاز على جائزة الرواية الكردية في العام 2015 من دار أنديشه في السليمانية- كردستان العراق

المؤلفات

- **في الرواية**

سوبارتو 1999

خوف بلا أسنان 2006

حين تعطش الأسماك 2008

تسع وتسعون خرزة مبعثرة 2015

الوحش الذي في داخلي 2018

الطيران بأجنحة متكسرة 2019

- **في القصة القصيرة**

الرجل الحامل 1991

نساء الطوابق العليا 1995

موتى لا ينامون 1996

مم بلا زين 2006

آوسلاندر بيك 2011

- **في الدراسات النقدية**

الرواية الكردية – الكرمانجية والزازاكية – بانوراما شاملة، من العام 1930حتى العام 2010

- **في المسرح**

جمهورية المجانين (شرمولا) 1998 – فرقة الحياة الجديدة المسرحية Teyatra Jiyana nu في استانبول. وهي مأخوذة من قصة بنفس العنوان من كتاب "موتى لا ينامون". تم عرض المسرحية في العديد من المدن الكردية والتركية وفي العديد من المدن في الدول الأوربية. كما تم عرضها في الفضائيات الكردية وتسجيلها على شكل DVD. وتم، فيما بعد، انشاء صالة مسرحية باسم شرمولا Shermola في استانبول.

اعدام أنف، وهي مونودراما مأخوذة من قصة بنفس العنوان من كتاب "نساء الطوابق العليا". تم تقديم هذا العرض المسرحي لأول مرة في مهرجان المسرح الكردي الذي أقيم في برلين في العام 2001

الحذاء والرأس، وهي مسرحية ساخرة مأخوذة من كتاب "مم بلا زين" . قدمتها فرقة آفستا المسرحية، في ديار بكر في العام 2007

محطة قطارات العالم، مسرحية قدمتها فرقة فوبرشبورن في مدينة فوبرتال بألمانيا باللغة الألمانية في أيار2018

- **في الترجمة**

ترجمة خمسة كتب للأطفال من الألمانية الى الكردية لصالح معهد غوته في استانبول

الخلد الصغير – فيرنر هولزوارت

الاوزة، الموت وبراعم نيسان – فولف البروخ

كل اوزاته – كريستيان دودا

نقار الخشب – آنا مار

الملك والبحر – هاينز يانيش

صدرت مع الترجمة التركية لها في العامين 2011 و 2012 عن منشورات Iletisim الاتشم في استانبول

- **في الجرائد والمجلات**

ترأس تحرير مجلة ديوار (الجدار) الثقافية التي صدرت في ألمانيا بالكردية خلال العام 2013. كما شارك في هيئة تحرير العديد من المجلات الكردية والعربية مثل "بيل (الموجة) "و "أوركيش" و "أوراق". وكتب الزاوية الصحافية لعديد من الصحف الصادرة بالكردية ولسنوات عديدة مثل "روداو" الصادرة في أربيل، "آزاديا ولات" الصادرة في دياربكر و "كوردستاني نوى" الصادرة في السليمانية.

- **في التلفزيون**

عمل معدا ومقدما لبرنامج أدبي، ثقافي، حواري، نصف شهري بعنوان "الخطوة الثالثة" للفضائيات الكردية مزوبوتاميا تيفي، ميديا تيفي، وروج تيفي من العام 2000 وحتى العام 2011. واستمر في فضائية روناهي تيفي ببرنامج أدبي آخر اسمه "الباب الآخر" في العام 2012 وحتى العام 2020

- **دراسات عن أعمال الكاتب**

تجارب جديدة في القصة السورية، عالم عبدالحليم يوسف التعبيري، للناقد محمد محي الدين مينو – حمص، دار ملهم، 2004

السيرة الذاتية لمكان منهوب، دراسة تحليلية نقدية عن رواية سوبارتو، للناقد مسعود حسن – اصدار خاص، دمشق 2006

سلطة الجسد في نتاجات حليم يوسف، دراسة تحليلية ، باللغة التركية للكاتب الكردي فرزان شير.

وهـي أطروحـة جامعية مقدمة الى جامعة بيلكي في اسـتانبول ونـال عليها الكاتب درجة ماجستير في العام 2015

سـردية البداية في القصـة الكردية المعاصـرة، حليم يوسـف- مغامـرة المتخيل، للباحث ابراهيم محمود 2010

ملف مجلة W الواو الثقافية الصادرة بالكردية في ديار بكر. تضمن العدد السابع في العام 2005 ملفا خاصـا عن نتاجات الكاتب يحمل عنوان "حليم يوسـف، الكاتب الذي يحرق المراحل"شارك في الكتابة فيه مجموعة من الكتاب والنقاد الكرد.

صـدرت كتبـه حتـى الآن بالكرديـة والعربيـة والتركيـة والفارسيـة والألمانية والانكليزية.

المؤلف في سطور

- **ريبر هبون**
- ناقد وشاعر من مواليد مدينة منبج، شمال سوريا. و يقيم في ألمانيا
- نشـر العديد من البحوث النقدية والمقالات الفكرية والأعمال الشـعرية والنثرية باللغتين العربية و الكردية

  منها صرخات الضوء- عمل شعري 2016 و أطياف ورؤى - عمل نثري 2017

  جوقات كردستانية 2019 و أفكار صاخبة 2019
- يعتبر "فك المرموز في روايات حليم يوسف" هو الجزء الأول من عمل نقدي متكامل،
- يليه الجزء الثاني الذي يتناول فيه الكاتب ريبر هبون الأعمال القصصية لحليم يوسف.